المكتبة التاريخية

الشرق الاسلامى
زمن المماليك والعثمانيين

دكتور صبحى عبد المنعم





الشرق الإسلامى

زمن المماليك والعثمانيين



٦٠ شارع القصر العيني - أمام روز اليوسف
ج (١١٤٥١) القاهرة
ت: ٢٥٥٤٥٢٩ فاكس: ٢٥٤٧٥٠٦٦


بسم الله الرحمن الرحيم



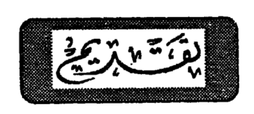
الإهـــداء

إلى العالم الكبير

الأستاذ الدكتور / مأمون محمد سلامه

حفظه الله وسدد على طريق الحق والخير خطاه .

صبحى



ظهرت الدولة العربية الإسلامية فى المدينة المنورة وكانت رسالة هذه الدولة منذ قيامها تهدف إلى تكوين الأمة الإسلامية الواحدة التى ترعى أبناءها وتكفل لهم حقوقهم وتنشر العدل بينهم ، بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام .

واتسعت حدود الدولة العربية الاسلامية فاشتملت على الشعوب التى حررتها من بين أيدى الفرس والروم

وجاء انتشار الإسلام فى منطقه الشرق الإسلامى إبان القرن الأول الهجرى ، السابع الميلادي موجة جارفة علت كل ما عداها من عوامل أخرى بعد أن ربط الإسلام بين شعوبها برباط العقيده الدينية التي لا تنفصم عراها . وتكونت الدوله العربية الإسلامية القوية التي أرهبت أعداء الإسلام وحفظت للمسلمين حريتهم وكرامتهم . وما أن ضعفت هذه الدولة وانساق حكامها مع سخف مطامعهم حتى بادر أعداء الإسلام بالانقضاض عليها فتعرض المشرق العربى لموجات من الزحف الصليبى الذى جاء بعدة حملات لتدمير الإسلام والمسلمين .

ووجدت الجيوش الصليبية بلدان العالم الإسلامى فى تفكك صارخ والدول الإسلامية المستقلة فى الشرق فى انحلال بالغ ، ورغم استمرار المصادمة بين المسلمين والأمواج المتوالية التى جاءت لتعزيز القوة الصليبية من أقطار أوروبا فإن قوة العدو بدأت تتضاءل لأن هذه الحروب خلقت روحاً من المقاومة الإسلامية المتحدية للصليبيين .

وما لبثت هذه الروح أن أنجبت فكرة بناء الجبهة الإسلامية الموحدة كما انجبت الشخصيات الكبيرة من أمثال عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين يوسف ابن أيوب وغيرهم من القادة الأبطال الذين استطاعوا اقتلاع الصليبيين من معاقلهم وحققوا النصر لأمة الإسلام

ولم يكد أبناء المشرق الإسلامى يخرجون من محنتهم بذلك النصر المؤزر حتى فاجأتهم جموع التتار الذين جاءوا فى موجات عاتية انحدرت إليهم من أواسط آسيا وزادت فى قسوتها وعنف تدميرها على حملات الصليبيين ، لكن أبناء المشرق الإسلامى الذين خرجوا منتصرين من الحروب الصليبية استطاعوا التصدى لتلك الموجة المدمرة وأوقعوا الهزيمة بالمغول وجنودهم لأول مرة فى تاريخهم ، ونتج عن ذلك كله أن صارت مصر بانتصارها على الصليبيين والمغول مركز العالم الإسلامى ومقر الخلافة العباسية وقبلة أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، لكن الأمور تبدلت ، وتحولت أمور الحكم وشئونه إلى أيد غير أيدى القادة العظام من الأيوبيين ثم المماليك الذين حكموا مصر وأسسوا دولة قوية مهيبة الجناح ، لم تلبث أن ضعفت نتيجة التنافس الشديد بين أمرائها على النفوذ والسلطان ، وتدبير المكائد والمؤامرات فى سبيل الوصول إليه ، وإهمال شئون

الرعية والبلاد ، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية الناشئة في بلاد آسيا الصغرى تنمو قوتها ويتسع سلطانها حتى صارت دولة إسلامية قوية نافست دولة المماليك في مصر والشام واستطاعت التغلب عليها بعد أن زحف السلطان سليم الأول بجيوشه الى الشام وتقابل مع السلطان المملوكي قانصوه الغوري وانتصر عليه ، وشرعت الدولة العثمانية تبسط سيطرتها على الشرق العربي

وظلت الدولة العثمانية محتفظة بقوتها وسيطرتها نحو قرنين من الزمان ثم بدأ حكمها يتزعزع وانتهى أمرها إلي أن اعتراها الاضطراب والتفكك فأسرعت يد الغرب المسيحي تحاول أن تتخطفها من كل جانب ، وظهرت الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التي أطلقوا عليها « الرجل المريض »

وكانت فرنسا وانجلترا من أكبر الدول التي انتهزت هذه الفرصة للتحرك لاقتطاع أجزاء من جسد الدولة فبدأت فرنسا حملتها على مصر والشام بقيادة نابليون بونابرت تلك الحملة التي لم تتميز بأنها غزو للشرق الإسلامي فحسب ، بل أبرزت أهمية المنطقة على مسرح السياسة العالمية ، لذا لم تتوان انجلترا هي الأخرى عن التفكير في غزو مصر وبدأت صراعاً مع الفرنسيين بحجة مساعدة العثمانيين في تحرير مصر من المستعمر الفرنسي ،وهي في الحقيقة تسعى لتثبيت أقدامها على أرض وادي النيل ونجحت في ذلك .

وتحرك الشعب المصري للتصدي للمستعمر واستطاع أن يجبرهم على الخروج من أرضه ، ثم وقف ضد العثمانيين الذين عادوا ليحكموا البلاد مرة أخرى بعد أن ظهرعجزهم وفشلهم في التصدي للزحف الأوربي كما تصدى لأمراء المماليك الذين تعاونوا مع العثمانيين وأذاقوا الشعب العسف والذل والهوان وظهرت حركات تمرد في مصر وكثير من بلدان المشرق الإسلامي ضد العثمانيين ، وكان من أبرزها حركة محمد على الذى أسس ملكاً وراثياً له ولأسرته ، وسخر قوة الشعب وموارده في بناء مجده واستبد بأمور البلاد .

والحقيقة أنه قد مر وقت طويل على أبناء الشرق الإسلامي عانوا فيه من أنانية حكامهم وسياسة الأجانب الذين كانوا يتحكمون فيهم ، وقلة وعيهم إلى حقائق أنفسهم مما تسبب في تأخرهم عن اللحاق بركب الحضارة .

وقد حاولنا في هذا الجهد المتواضع إلقاء الضوء على بعض الأحداث البارزة والمهمة التي تعرض لها الشرق الإسلامي والتي كانت سبباً في قوته أو ضعفه كي ندرس ماضينا فنأخذ منه العظه والعبرة فنتهيأ لمواجهة أحداث المستقبل ، والله أسأل أن يحقق النفع به وهو وحده ولى التوفيق .

صبحي عبد المنعم

القاهرة في ديسمبر ١٩٩٤



البيئة الجغرافية وأثرها على السكان

نتناول فى هذا التمهيد عن البيئة الجغرافية للشرق الإسلامى أمرين هما :

أولاً : تعريف الشرق الإسلامى وتحديده .

ثانياً : البيئة الجغرافية للمنطقة وأثرها على السكان .

أ - تعريف الشرق الإسلامى وتحديده :

يقصد بمصطلح الشرق الإسلامى بصفة عامة الحوض الشرقى للبحر المتوسط (1) أى الجزء الشرقى من العالم الإسلامى الذى يتكون من منطقة الشام الكبرى وامتدادها من الشمال والجنوب كما يدخل فى نطاقها أيضا الدول الملاصقة لها والمتصله بها برياً من الشرق والغرب (2)

ويمكن القول إن أهم الدول التى يتكون منهاالشرق الإسلامى فى العصر الحديث هى الدول العربية التى تقع فى قارة آسيا وتشمل : سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والمملكة العربية السعودية واليمن وعمان ، ودولة الإمارات العربية المتحدة والكويت والعراق ، وما يتاخمها من الدول الإسلاميه كتركيا فى الشمال ، وإيران فى الشرق ، ثم مصر وهى الدولة العربية الوحيدة من دول الشرق الإسلامى التى تقع فى قارة إفريقية . (3)

وقد أطلق على هذه المنطقة من العالم عدة مسميات منها :

- مصطلح (ليفان) Levant (4) وهو مصطلح تجارى يشمل بصفه عامة (5) تلك المنطقة من العالم التى تصل القارات إفريقية وآسيا وأوربا بعضها ببعض (6) والتى كانت بسبب هذا الموقع الجغرافى الفريد بقعة حيوية فى تاريخ الحضارات الإنسانية .

- الشرق الأدنى : وهو مصطلح أطلقة الغرب وحدده فى أعقاب الأبحاث الجغرافية فى أواخر القرن التاسع عشر والعشرين بأنه يمتد شمالاً من البحر الأسود فيقسم اليونان إلى قسمين حتى البحر الادرياتيكى ثم ينحدر جنوباً إلى الصحراء الغربية غرب مصر ويمتد

الخط الشمالى شرقاً من البحر الأسود حتى جنوب بحر قزوين ، ثم جنوباً فى المحيط الهندى حيث يقسم فارس إلى قسمين ، ومن هذا التحديد يفصل الجزء الشمالى من اليونان عن الشرق الأدنى، وكذلك شرق إيران عنه .

والحقيقة أن هذا التحديد الضيق لا يجب أن يطلق على الشرق الإسلامى وأن تحديده يجب ألا يكون على أساس معين من التضاريس أو المناخ ، بل على أساس الحضارات التاريخية التى وحدت هذا الاقليم حتى ولو كانت تنقصه الوحدة السياسية (٧) .

الشرق الأوسط : وهو مصطلح أطلقه قادة الغرب المتحالفون فى الحرب العالمية الأولى ضد تركيا المسيطرة على دول المشرق الإسلامى آنذاك للدلالة على المنطقة التى دارت رحى الحرب فيها بين الحلفاء وبين تركيا تمييزاً لها عن الشرق الاقصى ، ومازال هذا المصطلح شائعاً رغم عدم دقته وتحديده (٨) .

- جنوب شرق أسيا : يطلق هذا المصطلح و يراد به ابعاد مصر عن سائر البلاد العربية في أسيا وإغفال أهميتها وصلاتها بجاراتها (٩)

وخلاصة القول : إن هذه المصطلحات تعوذها الدقة العلمية المطلوبة فى ضرورة تحديد المسميات ، لذا فإننا نفضل استخدام مصطلح « الشرق الإسلامى » لأنه يشمل كل الدول الإسلامية التى تحيط بحوض البحر المتوسط من الشرق والجنوب الشرقى .

ب- البيئة الجغرافية وأثرها على السكان :

نظمت الطبيعة رقعة الشرق الإسلامى بحيث مهدت لوحداته المحلية سبل التضامن والتعاون، فأرض الشرق الإسلامى تتألف جغرافياً من نواة صحراوية يحيط بها نطاقان من الأراضى الخصبة ، غير أن هذه الصحراء الداخلية لم تكن نواة صماء وانما اخترقتها الطرق فى جميع الاتجاهات مارة بمناطق الواحات . ومن ثم نفذت الحياة عبر الصحراء بين النطاقين الخصبين المحيطين بها . (١٠)

إن سلسلة الجبال الواقعة عند الطرف الغربى لمنطقة الشرق الإسلامى والممتدة من تركيا شمالاً عبر لبنان إلى شبه الجزيرة العربية تقف حاجزاً يحول دون مرور الرياح الغربية التى تنشأ فى منطقة الأطلس ومنطقة البحر المتوسط والتى تحمل البخار المائى الضرورى لهطول الأمطار .(١١)

فالأمطار تسقط على هذه السلسلة مخلّفة وراءها منطقة داخلية تشكو القحط والجفاف ، حقاً إن المنطقة الداخلية بأسرها قاحلة جافة وباستثناء السواحل فإن الأراضى التى من على جوانب أودية الأنهر تأخذ البعض من تساقط المطر فى الشتاء والبعض الآخر من الرى أيام القيظ مما يوفر للسكان أعمالاً زراعية على مدى واسع . (١٢)

وتنعكس طبيعة سطح الأرض المزدوج ـ جبال وصحراء أو أرض مروية وأرض قاحلة جافة فى طبيعة معظم السكان الذين ينقسمون إلى فئتين : أهل الحضر وهم فلاحون يحرثون الأرض، وأهل البادية وهم بدو رحل ، ويقطن البدو الرحل الصحارى الداخلية فى كل من بر الأناضول وسورية وإيران والجزيرة العربية والمناطق المتاخمة للحدود العراقية والمصرية . وذلك لأن طبيعة البلاد فى كل من العراق ومصر من حيث توافر المياه تختلف عن غيرها بسبب الأنهر العظيمة الثلاثة فيها : النيل ودجلة والفرات . (١٣)

ولقد هيأت الطبيعة للشرق الإسلامى طبيعية كاملة جعلت من الأرض الممتدة بينها لها دورها الكبير فى تكوين شخصية الشرق الإسلامى من الناحية الاقليمية والمحافظة عليها وسط جيرانها ، فجبال زاجروس مثلاً التى تفصل بين العراق وإيران تمثل حدوداً كاملة تحمى الجانب الشرقى من الأمة العربية فالحدود البشرية والثقافية التى تفصل بين أمة العرب ولغتها وأمة الفرس ولغتها تقف عند تلك الجبال ، بينما تحد جبال طوروس وهضبة الأناضول وجبال كردستان بين الأمة العربية ولغتها وبين الجماعات التركية و الأرمنية وغيرها الضارية حول هذا النطاق الشمالى (١٤) بالإضافة إلى أن استناد أراضى الهلال الخصيب الذى يتكون من العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين من الشرق الإسلامى على تلك الجبال جعل لكل من هضبة إيران وهضبة الأناضول دوراً حيوياً فى حياة الشرق الإسلامى ، وإن كانت بيئة كل منهما تقع خارج نطاق موضع الشرق الإسلامى ، إذ تمثل هاتان الهضبتان حلقتين من حلقات بناء الطبيعة لموقع الشرق الإسلامى ومركز التفاعل بين مقومات الموضع والموقع .(١٥)

وإذا كانت الطبيعة قد جعلت من أرض الوطن العربى وحدة جغرافيه كبرى قائمة بذاتها هيأت لها كذلك أسباب الاتصال بين طرفى العالم فى الشرق والغرب ، فهى تطل على مجموعة من البحار والمحيطات والخلجان ذات الأهمية التجارية الكبرى كالمحيط الهندى

والخليج العربى والبحر الأحمر ثم البحر المتوسط مما هيأ لها السيطرة على منافذ معظم الخطوط التجارية بين الشرق والغرب البرية والبحرية على السواء (١٦)

ولقد عرفت أهمية الشرق الإسلامى على مدى القرون لأن الطرق العالمية الكبرى من الغرب إلى الشرق الأقصى كانت تمر خلال أرضه فكان يسيطر على جزء كبير منها ، وهو الممتد من شمال إفريقية وغرب آسيا إلى الشرق الأقصى .(١٧)

فطرق المواصلات الكبرى كانت تمتد من شرق وجنوب آسيا حتى الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط حيث توجد المراكز العالمية للتبادل التجارى ومن هناك تشحن البضائع إلى جنوب ووسط أوربا . (١٨)

تبدأ هذه الطرق من أقصى الجنوب من سيلان حيث مركز تجميع بضاعة الشرق الأقصى ومن هناك تخرج ثلاث طرق :

الأول : يمر عبر المحيط الهندى إلى عدن ومنها يتفرع إلى طريقين ، طريق للقوافل يمر بالساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية وينتهى عند شاطىء البحر المتوسط فى سوريا وآخر يمر بالبحر الأحمر وخليج السويس وعند نهاية خليج السويس يأخذ مساراً له عبر مصر إلى الإسكندرية ثم إلى الغرب .

الثانى : الطريق الأوسط يبدأ من سيلان ويمتد على طول الشاطىء الهندى حتى الخليج العربى ، ثم يعبر العراق إلى وسط وشمال سوريا ثم يخترق الأناضول .

الثالث : طريق برى يبدأ من الصين ، ويمر بوسط آسيا وشمال إيران وهناك يتجه إلى البحر الأسود أو العراق وسوريا حتى شواطىء البحر المتوسط . (١٩)

وقد نالت البلاد التى كانت تمر بها حركة القوافل أهمية كبرى لأنها تملك السيطرة على هذه الطرق فكانت تفرض رسوماً ، وكانت تؤجر الحيوانات ، وكانت تقوم على حراسة وتأمين التجارة مما أسهم فى رفع مستوى سكانها . (٢٠)

إن دور الشرق الإسلامى كان مفهوماً وأهميته ثابتة فهو الوسيط بين الشرق الأقصى وأوربا فى التجارة ، يلعب دور البائع والمشترى ومن خلال ذلك يسوق منتجاته الخاصة لأن مراكز التبادل التجارى تقع منذ عدة قرون على شواطىء البحر المتوسط فى

بلاد المشرق . (٢١)

ولقد كانت هذه المنطقة ميدانا لحضارات متعددة متباينة ، الحضارة المصرية الفرعونية والحضارة البابلية والأشورية والفينيقية ، وكانت حضارات مزدهرة انطلقت إلى المناطق المحيطة بها فى فترات مختلفة وامتد تأثيرها إلى الشام ، وجنوباً بآسيا الصغرى وأثرت فيها وتأثرت بما كان يموج فيها من تيارات حضارية متعددة .(٢٢)

ولم يتمتع الشرق الإسلامى بوحدة حضارية فى التاريخ القديم إلا بعد أن غزا الاسكندر المقدونى الشرق واستولى عليه ، وتبع ذلك خضوع شعوب هذه المنطقة لتيار الحضارة اليونانية التى تفاعلت مع حضارات الشرق وأخرجت لنا ما يسمى بالحضارة الهيلينية ، وعلى الرغم من انهيار إمبراطورية الإسكندر سنة ٣٢٣ ق . م فإن الحضارة الهيلينية ظلت مزدهرة فى مناطق الشرق حتى بعد ظهور الدولة الرومانية وسيطرتها السياسية والعسكرية على الشرق فى القرن الأول قبل المسيح .(٢٣)

فقد صارت هذه الحضارة رباطاً يوحد بين سكان هذه المنطقة ويقرب فيما بينهم فى العادات والتقاليد ومظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية حتى ظهور الإسلام فى شبه جزيرة العرب وانتشاره فى هذ المنطقة إبان القرن الأول الهجرى السابع الميلادى ، وتمكنت الحضارة الإسلامية من أن تصبغ هذه المنطقة بصبغتها وأن تربط بين شعوبها برباط العقيدة الدينية الذى لا ينفصم عراه ، بالإضافة إلى روابط الجنس واللغة فى المنطقة العربية مما جعل منطقة الشرق الإسلامى منطقة ذات عقيدة قوية واحدة وتاريخ مشترك وحضارة متميزة . (٢٤)

الهوامش

١ ـ دانيال كريسليوس : جذور مصر الحديثة ص ٥ ترجمة د . عبد الوهاب بكر مكتبة نهضة الشرق بجامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

. Daniel Crecellus : The Roots of Modern Egypt

٢ ـ د . محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى ص ١ .

٣ ـ المرجع السابق .

٤ ـ دانيال كريسليوس : جذور مصر الحديثة ص ٥ .

٥ ـ د. محمدأنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ص ٣ .

٦ ـ دانيا ل كريسليوس : جذور مصر الحديثة ص ٥ .

د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ص ٣ .

فيليب حتى : موجز تاريخ الشرق الأدنى ص ٧ .

٧ ـ د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ٣ ـ ٤ .

٨ ـ د. محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى الحديث ١ .

٩ ـ د. إبراهيم العدوى : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ٢٤ .

١٠ ـ المرجع السابق .

١١ ـ فيليب حتي : موجز تاريخ الشرق الأدنى ١٨ .

١٢ ـ المرجع السابق .

١٣ ـ المرجع السابق

١٤ ـ د. ابراهيم العدوى : تاريخ الشرق الإسلامى ٢٢ .

١٥ ـ المرجع السابق .

١٦ ـ المرجع السابق .

١٧ـ باول شمتز : الإسلام ٢٢

١٨ ـ المرجع السابق .

١٩ ـ المرجع السابق ٢٣ .

٢٠ـ المرجع السابق .

٢١ ـ المرجع السابق ٢٤ .

٢٢ ـ د. محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ٤ .

٢٣ ـ المرجع السابق .

٢٤ ـ المرجع السابق .

القوى الإقليمية بالشرق الإسلامي
عند مطالع العصر الحديث

مدخـــل :

كان الشرق الإسلامى في أواخر القرن التاسع الهجرى ومطلع القرن العاشر موزعاً بين عدة دول إسلامية كدولة المماليك في مصر والشام ودولة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى وشرق أوربا ودولة الصفويين الشيعية فى إيران .

ومما يرثى له أن هذه الدول لم تسع نحو الترابط والتضامن بين شعوبها والوقوف يداً واحدة للدفاع عن الإسلام والمسلمين والتصدى لأعدائهم الذين يتربصون بهم ؛ بل سعت نحو الفرقة والشقاق ، وراحت تجرى وراء أطماعها كى تحقق أغراضها فى التوسع وبسط النفوذ .

وشاهد الشرق الإسلامى أبناءه وهم يتصارعون ويتطاحنون ويقتلون بعضهم البعض من أجل التوسع والاستغلال فى وقت كان الإخاء الإسلامى يفرض عليهم التضامن والتعاون ونبذ بذور الفرقة والشقاق للوقوف فى وجه الغرب الذى كان - وما يزال - يسعى جاهداً لنهب مقدرات الشرق وضرب الإسلام والمسلمين .

وعلى ضوء هذه الصورة للقوى الإسلامية التى كانت تحكم الشرق الإسلامى ينصب الحديث ليشمل ثلاثة مباحث جديرة بالبحث والدراسة وهى :

أولاً : دولة المماليك فى مصر والشام .

ثانياً : نشأة الأتراك العثمانيين وتوسعاتهم .

ثالثاً : الدولة الصفوية فى إيران .

أولاً: دولة المماليك في مصر والشام

تمهيد:

كانت دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) تسيطر على مصر وبلاد الشام (فلسطين وسوريا ولبنان والأردن) والحجاز ثم اليمن وبعض الجزيرة الفراتية وإقليم العواصم والثغور وهو القسم الجنوبى من آسيا الصغرى (١)

فمن هؤلاء المماليك الذين كانوا يديرون ملكاً واسعاً فى مصر والأقطار التى تتبعهم ؟ ومن أين أتوا ؟ وكيف وصلوا إلى المنصب والسلطان ؟ وما موقفهم من الشعوب التى حكموها ؟ وما حقيقة شعورهم تجاه الإسلام والمسلمين ؟ وهل اعتنقوا الإسلام عن عقيدة وإيمان أم من أجل المنصب والسلطان ؟ .

هذا ما سوف نتناوله فى الصفحات التالية وسنبدأبتعريف « المماليك » إذ فى مجال دراسة التاريخ الإسلامى يجب توضيح المصطلحات والتعريفات ذات الصلة الوثيقة والمباشرة بموضوع البحث .

لذا سنعرف بالمماليك من الناحية اللغوية ثم نتحدث عنهم من الناحية التاريخية .

يقولون فى اللغة : إن المملوك هو العبد والجمع مماليك (٢) ، ويقال : هو عبد مَمْلَكَةٍ ومَمْلُكَةٍ ، إذا مُلِكَ ولم يُمْلَك أبواه ، ويقال : هم عبيد مَمْلَكَةٍ ، وهو أن يُغْلَب عليهم ، ويستعبدوا وهم أحرار ، والعبدُ القِنُّ الذى مُلِكَ هو وأبواه (٣)

ويروى أن الأشعث بن قيس خاصم أهل نجران إلى عمر بن الخطاب فى رقابهم وكان الأشعث قد استعبدهم فى الجاهلية ، فلما أسلموا أبوا عليه ، فقالوا : إنا إنما كنا عبيد مَمْلَكَةٍ ولم نكن عبيد قِنٍّ (٤) أى أنهم كانوا فى الأصل أحراراً فلما تغلب عليهم استعبدهم .

وأقر بالمَلَكَةِ والمُلُوكَةِ أى المِلْك ، وفى الحديث : « لا يدخل الجنة سيئُ المَلَكَةِ أى الذى يسيئ صحبة المماليك ، ويقال : فلان حَسَنُ المَلَكَةِ إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه (٥)

ومما سبق يمكن القول إن المماليك فى اللغة هم العبيد الذين كانوا يستعبدون نتيجة للأسر فى الحروب أو الشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد سواء أكانوا سوداً أم بيضاً .

ولقد اتخذ لفظ المماليك معنى اصطلاحياً خاصاً فى التاريخ الإسلامى فصار يطلق على أولئك الفتية الأرقاء البيض [٦] الذين كان يلجأ إليهم كثير من حكام الدول لتقوية أنفسهم بهم .

ولقد استخدم الرقيق فى الجيوش الإسلامية منذ أمد بعيد حيث يعود إلى أيام الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) الذى بدأ بجلب الأتراك ، وخصص لهم الأرزاق من بيت مال المسلمين [٧] ليقوى بهم ساعده فى الحروب التى واجهته ، وليكونوا موضع ثقته بعد أن ازداد نفوذ الفرس الذين آزروا العباسيين ، وقاموا بدور كبير فى قيام الدولة .

ويبدو أن اختياره للأتراك دون غيرهم يرجع إلى أن أمه كانت تركية [٨] ومنذ عهد الخليفة العباسى المعتصم شاع استخدام المماليك فى الدولة الإسلامية .

ومما لاشك فيه أن استخدام المماليك قد شاع وانتشر فى كثير من أرجاء الدولة نتيجة ضعف العباسيين من ناحية ، ورغبة حكام الولايات فى الاستقلال من ناحية أخرى اعتماداً على مايجلبونه من مماليك يكونون بهم جيوشاً يحققون بها مطامعهم [٩]

وبدأت تزداد أهمية المماليك ويتعاظم دورهم حتى وصلوا إلى أعلى المراتب فى الدولة ، وسلبوا السلطة من الخلفاء العباسيين الذين صاروا ألعوبة فى أيديهم ، وأخذوا ينكلون بهم فيقتلون الخليفة أو يسملون عينيه ، أو يضيقون عليه ، وأساءوا التصرف فى شئون الإدارة والحكم ، واستخدمهم كثير من حكام الدول المستقلة فى مصر ، ولم يأخذوا العظة والعبرة مما حدث للخلفاء العباسيين ، إذ تذكر المصادر التاريخية أن أحمد ابن طولون (٢٥٤ ـ ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ ـ ٨٨٣ م) عندما تولى حكم مصر وطمع فى الاستقلال بها عن الخلافة رأى أن يدعم استقلاله بقوة كبيرة من المماليك الأتراك استخدمهم فى جيشه ، وبلغت عدتهم أربعة وعشرين ألفاً [١٠] فلما سقطت الدولة الطولونية ، وتولى محمد بن طغج الإخشيد حكم مصر (٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ /٩٣٥ ـ ٩٤٦م) بلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك [١١]

واتبع الفاطميون السياسة نفسها التى سار عليها كل من الطولونيين والإخشيديين فاستخدموا الأتراك المماليك فى جيشهم منذ عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله [١٢]

(٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٦ _ ٩٩٦م) حتى ازداد عددهم فى زمن الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ _ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٦ _ ١٠٩٤ م) وكانوا سبباً من أسباب انهيار الدولة [١٣]

واعتمد الأيوبيون أيضاً على الرقيق فى جيوشهم وبخاصة أن الظروف السياسية التى شهدت صراع الصليبيين والمسلمين جعلت السلطان صلاح الدين الأيوبى (٥٦٧ _ ٥٨٩هـ/ ١١٧٢ _ ١١٩٣ م) يلجأ إلى تقوية جيشه عدداً وعدة فيقول المقريزى إنه : « أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم واستجد عسكراً من الأكراد والأتراك خاصة ، وبلغت عدة عساكره بمصر اثنى عشر ألف فارس » [١٤]

وعقب وفاة صلاح الدين توزعت الدولة إلى إمارات يحكمها أفراد من البيت الأيوبي فى مصر والشام ، واختلفوا فيما بينهم ، وتحاربوا حروباً كثيرة .

واستعان ملوك الأيوبيين سواء بمصر أو بالشام بأجناد من المماليك المجلوبة من ، بلدان مختلفة ، وازداد نفوذ أولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبى حتى نجحوا فى السيطرة على الحكم ، وأقاموا دولة أكثروا فيها من شراء المماليك أمثالهم ليكونوا سنداً وعوناً لهم .

وكان هؤلاء المماليك يشترون من أسواق النخاسين فى شبه جزيرة القرم ، وبلاد القوقاز والقفجاق ، وآسيا الصغرى ، وبلاد فارس وماوراء النهر وتركستان فكان فيهم الترك والجراكسة والروم والروس والأكراد والأوربيون بالإضافة إلى مناطق أخرى متفرقة حيث يباع هؤلاء الأطفال بيع الأرقاء من أهلهم لظروف فقر أو قحط أو لظروف اعتداء أو إغارة قبائل على قبائل أخرى تستحل معه كل ما تحصل عليه من مكاسب من القبائل المهزومة ، وكانت مقاييس اختيارهم تخضع لمواصفات معينة ومحددة على رأسها اللياقة الجسمانيه المتكاملة ، وقوة التحمل الفائقة وحداثة السن ، والذكاء وقوة النظر ، وحسن التصرف والعزيمة والطموح [١٥] مع الولاء والأمانة لأنهم سيكونون مسئولين عن حماية النظام من خلال تواجدهم فى السلطة فهم ينتقلون من قصر إلى آخر ، وقد يقبضون على زمامه دون أن تربطهم به صلة أو وطن أو أواصر قربى[١٦]

وكان المكلفون بجلب المماليك الشبان الجدد يعرفون كيف يختارون هؤلاء الأطفال من بين تجار الرقيق الذين كانوا يجوبون مراكز وأسواق النخاسة العالمية ، وكانوا يمضون الأيام والشهور فى تطبيق قواعد القياس لاختيار المملوك ا لمناسب [١٧]

وكان الحكام يفضلون شراء المماليك الصغار الذين يسمون أجلاب أوجلبان نظراً لجلبهم من بلاد أخرى [18] وعندما يتم شراء هؤلاء المماليك يرسلون إلى أماكن خاصة تعرف بالطباق [19] وهى أشبه ماتكون بالمدارس العسكرية التى تطبق النظام العسكرى الصارم على أفرادها فكانوا يتلقون التدريب طبقاً لأصول ومناهج الفروسية فى العصور الوسطى من ركوب الخيل بالطرق المختلفة، واتقان فنون القتال بمختلف أنوا ع الأسلحة [20] .

وكانت تدرس لهم اللغة العربية وعلوم الدين والقرآن والحديث الشريف والفقه الإسلامى، والعقيدة ، والسيرة النبوية ، وفى شهر رمضان كانوا يصومون ليمارسوا شعائر الدين الإسلامى فيشبوا على الإسلام فى حب وإخاء وكانوا يلقنون آناء الليل وأطراف النهار مايغرس فى نفوسهم أهمية الولاء لأربابهم وأوليائهم ليشبوا على الطاعة والولاء لهم [21] .

وبعد أن يتم المماليك تربيتهم فى الطباق يعتقهم السلطان من الرق وينعم عليهم بالخيل والقماش والسلاح بالإضافة إلى الجامكية [22] التى تتدرج من ثلاثة دنانير إلى خمسة إلى سبعة عشر دينارا [23].

ويتم إعتاق المماليك فى حفل خاص يحضره السلطان والأمراء ويأخذ المملوك شهادة تسمى « إعتاق » أو « عتاق » ويسمى معتقة أستاذه ، أما رفاقه المتخرجون معه فيسمون خشدا شية مفرد خشداش [24].

وكان المملوك يترقى من الجامكيات إلى الاقطاعات وإلى إمرة العشرات ثم إلى الطبلخانات ومنهم من ينتقل إلى تقدمة الألوف وإمرة المئين [25] وأعلى درجات الأمراء أمير مائة مقدم ألف وتدق على بابه ثمانية أحمال طبلخاناه وزمران وأربعة أنفرة ، ويليه فى المرتبة أمير طبلخاناه وتدق على بابه ثلاثة أحمال طبلخاناه ونفيران ثم تطورت وأصبحت طبلان وزمران ، ثم أمير عشرة فأمير خمسة [26].

وقد شغل بعض هؤلاء الأمراء وظائف الدولة ، على أن بعضهم عاش دون أن يكون له وظيفة سوى رتبته العسكرية فى جيش السلطان [27].

ولم يكن السلطان يكتفى بما يشتريه من المماليك وإنما كان يحصل على مماليك السلطان السابق الذى توفى أو عزل أو قتل بالقسر أو بالشراء ، ويعتبرون من مماليكه

ويسمون حينئذ قرانصة أو قرانيص أو قرانص أو حتى مماليك سلطانية ، كما كان السلطان يستولى على مماليك الأمراء الذين يتوفون أو يغضب عليهم أو يقتلهم ويسمون سيفية أما المماليك الذين يشتريهم الأمراء فإنهم يسمون مماليك الأمراء أو أجناد الأمراء (٢٨)

ومما سبق يتضح لنا أن المماليك كانوا رجال جيش قوامه الفروسية التي تعتمد أساساً على التربية المتقنة في الطباق ، وهذا النظام العسكري ارتبط كلياً بالإقطاع الحربي، مما أوجد للمماليك بيئة اجتماعية خاصة بهم ، تختلف في أهدافها عن أنواع المجتمعات التي فرضتها أنظمة الحكم السابقة فأوجد المماليك تمايزاً في البنية الاجتماعية داخل دولتهم ، فبالرغم من أنهم جددوا الخلافة العباسية ليستمدوا منها شرعية حكمهم فإن الخلفاء ظلوا مجرد ألعوبة في أيدي المماليك وصار أفراد الشعب مجرد أدوات انتاج تعمل من أجل خدمة الطبقة العسكرية الحاكمة في جميع الميادين (٢٩)

ورغم القوة والمهابة التي أبداها المماليك في مطلع دولتهم الأولى إلا أنها سرعان ما تصدعت وسقطت لتظهر إلى الوجود الدولة المملوكية الثانية التي تعتبر استمراراً للأولى في الهدف والتركيب الاجتماعي والعسكري ، وإن تميزت عنها بتبدل العنصر الحاكم من الأتراك إلى الجراكسة (٣٠)

وانطلاقاً من كل ذلك فإننا سوف نتناول بالحديث قيام الدولة المملوكية الأولى وأبرز سلاطينها وأهم أعمالهم وأسباب سقوطها وننتقل إلى الدولة المملوكية الثانية فنلقي الضوء على العوامل التي مهدت لقيامها وسياستها الداخلية والخارجية ثم نذكر الدوافع السياسية والاقتصادية التي مهدت لانهيار هذه الدولة .

قيام دولة المماليك الأولى (البحرية)

(٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م)(٣١)

من الواضح أن الفضل الأساسى فى تكوين دولة المماليك الأولى « البحرية » يعود إلى السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٨ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) الذى تولى الحكم بمؤازرة المماليك الذين استطاعوا خلع العادل الثانى وأقاموا الصالح نجم الدين مكانه فى السلطنة (٣٢)

وهكذا أحسّ الصالح نجم الدين أيوب بفضل المماليك عليه وأهميتهم له فى توطيد سلطانه والاحتفاظ بملكه (٣٣) فاكثر من شراء المماليك الأتراك الذين جلبوا معظمهم من بلاد القفجاق - شمالى البحر الأسود - ، ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين (٣٤) وعنى بهم عناية فائقة (٣٥) وجعلهم معظم عسكره (٣٦) لحاجته لجيش قوى يؤازره ويسانده فى صراعه مع بقية أفراد البيت الأيوبى من ناحية ، ومع الصليبيين من ناحية أخرى فضلاً عن عزمه القضاء على بقية طوائف المماليك الذين غدروا به .

لذا فإنه لجأ إلى إعداد هؤلاء المماليك إعداداً عسكرياً عالياً ، وعمل على تربيتهم تربية إسلامية صحيحة ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة وأسكنهم بها فسموا بالمماليك البحرية لسكناهم وسط النيل (٣٧) .

وهؤلاء المماليك انحدروا من أصول مختلفة ولا يربطهم دم ولا عنصر سوى أنهم مماليك اشتروا بالمال ، لذا فإنهم ظلوا منفصلين تمام الانفصال عن سكان مصر والشام ، فقل التزاوج بينهم وبين طبقات الشعب ، ولم يختلطوا بأحد ترفعاً واعتزازاً بقوتهم وتسلطهم وانتمائهم للسلطنة (٣٨)

وعلا شأن أولئك الجند المملوكى حين استطاعوا بفضل بسالتهم الحربية القضاء على الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع على دمياط سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م (٣٩)

فقد قدم الصليبيون إلى دمياط ، وحاولوا اختراق الدلتا للوصول إلى القاهرة إلا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب سار لمقابلة هذه الحملة يدعمه جنده من المماليك البحرية ورابط فى المنصورة (٤٠) ، لكنه مرض واشتد عليه المرض حتى توفى فأخفت شجر الدر نبأ موته وأسرعت باستدعاء توران شاه ابنه ، وظلت تصدر الأوامر باسمه (٤١) .

وأبدى الجيش المصرى بقيادة المماليك براعة فائقة أسفرت عن هزيمة لويس التاسع وجنده الصليبى عند المنصورة ، وسقط من جيش الفرنجة عشرة آلاف قتيل بالإضافة إلى أسر عدد كبير كان من بينهم قائد الحملة لويس التاسع الذى أسر فى دار القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، وحضر توران شاه إلى مصر فتسلم السلطة من زوجة أبيه شجر الدر التى أعلنت وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب عقب ذلك [٤٢]

وذاق المماليك طعم السلطة والحكم فى المدة الواقعة بين وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب وحضور توران شاه ابن أستاذهم الصالح أيوب فناصبوه العداء وأخذوا يأتمرون به ، ويبدو أنه أدرك ذلك ، لكنه لم يكن سياسياً ماهراً أو رجلاً خبيراً بفنون السياسة ودروب الدهاء حتى يكتسب ودهم ويضعف من شوكتهم تدريجياً ؛ بل إنه بادر بعزل كبار أمرائهم الذين كانوا الدعامة الرئيسية للدولة فى عهد أبيه [٤٣] ويروى أنه كان يشرب الخمر ويضع مجموعة من الشموع أمامه وهو ثمل ثم يمسك سيفه بيده ويضربها واحدة تلو الأخرى وهو يردد « هكذا أفعل بالبحرية » وكان كلما ضرب شمعة ذكر اسم واحد من زعمائهم ، ليس هذا فحسب ؛ بل إنه تنكر لشجر الدر زوجة أبيه التى حفظت له العرش وطالبها بأموال أبيه وضيق عليها الخناق [٤٤] ولم يعمل بوصية أبيه له [٤٥] .

وكان أن تآمرت عليه شجر الدر وأغرت أمراء المماليك بالتخلص منه فقتلوه بعد سبعين يوماً من توليه الملك سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وبموته بدأ عهد جديد من حكم الأجانب المتسلطين الذين اتفقت كلمتهم على تولية شجر الدر العرش الذى لم يجرؤ أحدهم على اعتلائه فى بداية الأمر ثم رشحوا أحد أمرائهم لمنصب الأتابكية وهو الأمير عز الدين أيبك التركمانى. [٤٦]

شجر الدر وتمزق الجبهة الإسلامية الموحدة [٤٧] .

لم تكد شجر الدر تتولى الحكم فى مصر حتى ثارت ثائرة الأمراء والملوك الأيوبيين فى بلاد الشام لأنهم وجدوا فى ذلك خروجاً للسلطنة من بينهم [٤٨] فبادر الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل بن أيوب بالاستيلاء على مدينة غزة ثم سار إلى قلعة الصُبيبة وملكها ، وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصوابى الصالحى نائب الكرك والشوبك ، وركب

إلى الشوبك وأخرج الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل وملكه الكرك والشوبك وأعمالهما وحلف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنه (٤٩)

وكتب الأمراء القيمرية (٥٠) من دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب حلب يخبرونه بامتناعهم عن الحلف لشجر الدر ويحثونه على المسير إليهم حتى يملك دمشق ، فسار من حلب إلى دمشق ففتح له الأمراء (٥١) ثم أرسل إلى القلاع المجاورة لها كبعلبك وبصرى وصرخد وأعمالها وعجلون والسلط فسلمت كلها له (٥٢).

وهكذا خرجت بلاد الشام كلها من قبضة شجر الدر ، وتمزقت الجبهة الموحدة مرة أخرى فصارت مصر تحت سيطرة المماليك ، وبلاد الشام بين يدى الأيوبيين ، ولم تعد هناك القيادة الموحدة التى تستطيع دفع العدو عن بلاد المسلمين ، وانهارت الوحدة الإسلامية التى عمل كل من عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى على بنائها .

ويبدو أن شجر الدر أحست بخطورة الموقف عقب ما حدث فى بلاد الشام فلجأت إلى توطيد سلطانها فى مصر فأخذت تتقرب من الأمراء والمماليك البحرية وأغدقت عليهم الأموال والخيول التى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن وساست الرعية أحسن سياسة(٥٣)

لكن الأمور لم تسر حسبما أرادت إذ أن الخلافة العباسية صاحبة السيادة الاسمية على مصر لم ترض بتعيين شجر الدر سلطانة على مصر فأرسل الخليفة المستعصم بالله إلى المماليك يقول : « أعلمونا إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها ، أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » (٥٤) .

ولما وصلت رسالة الخليفة العباسى إلى المماليك شعروا بخطأ اختيارهم لشجر الدر وحاولوا ألا تخرج الأمور من بين أيديهم فأشاروا على شجر الدر بأن تتزوج الأمير عز الدين أيبك وتتنازل له عن العرش فقبلت ذلك ، وخلعت نفسها من السلطنة بعد أن حكمت ثمانين يوماً دون موافقة الشعب أو رجال الدين أو الخلافة العباسية (٥٥)

السلطان عز الدين أيبك التركمانى (٦٤٨ـ ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ـ١٢٥٧م)

أصله من مماليك السلطان الصالح نجم الدين أيوب اشتراه فى حياة والده الملك الكامل محمد ولازمه حتى جعله جاشنكيره [٥٦] واستمر على ذلك إلى أن قتل المعظم توران شاه وملكت شجر الدر بعده .

وقد تولى عز الدين أيبك التركمانى عرش مصر سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وتلقب باللقب السلطانى « الملك المعز » [٥٧]

ويبدو أن اختيار المماليك لأيبك لم يكن نابعاً عن قناعتهم بجدارته وأحقيته للحكم ، وإنما انتخبوه لكى يتمكنوا من عزله متى شاءوا [٥٨] .

وما أن استقر أيبك فى السلطنة حتى واجهته مشاكل عدة فى الداخل والخارج ، وأبرزها خطر الأيوبيين فى الشام وخطرطائفة المماليك البحرية فى مصر .

فماذا فعل أيبك أمام هذه الأخطار؟

الحقيقة أنه وأعوانه من المماليك لجئوا إلى حيلة ماكرة لإرضاء الأيوبيين فوقع اختيارهم على طفل أيوبى صغير لا يتجاوز عمره الست سنوات واسمه الأشرف موسى[٥٩] ونصبوه شريكاً للسلطان المعز أيبك وصارت المراسيم تخرج باسم الملكين الشريكين الأشرف والمعز وإن كانت جميع الأمور بيد أيبك نظراً لصغر سن هذا الطفل[٦٠].

ولم تجز هذه الحيلة على الأيوبيين الذين بدأوا يتحركون لضرب المماليك فى مصر وتزعم هذا التحرك الناصر يوسف الأيوبى صاحب [٦١] حلب ودمشق الذى زحف بقواته نحو مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م فلما علم أيبك بذلك بدأ يعد للأمر عدته فبادر بإلقاء القبض على المماليك المعروفين بميولهم للأيوبيين ثم أعلن فى القاهرة أن البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها ، وأنه نائب الخليفة العباسى المستعصم بها[٦٢].

ولما علم أيبك بأنباء المفاوضات التى جرت بين الملك الفرنسى لويس التاسع المقيم فى عكا والملك الناصر يوسف ، أرسل إلى لويس التاسع رسالة اتبع فيها أسلوب الترغيب والترهيب فمن ناحية هدده بقتل الأسرى الصليبيين المقيمين بمصر إن قام بأى عمل عدائى

ضده ومن ناحية أخرى أبدى له استعداده لتعديل معاهدة دمياط والتنازل له عن نصف الفدية المقررة إن تحالف معه ضد الناصر الأيوبى ، لكن لويس التاسع رأى بمكره ودهائه أن يقف بين الفريقين موقف الحياد وأن يستغل نزاعهما لصالحه (٦٣) .

ولما تأكد أيبك من حسن استعداده خرج للقاء الأيوبيين بجيش أكثر قواته من المماليك البحرية وفى سنة ٦٤٨ هـ (٣ فبراير ١٢٥١ م) التقى الجمعان عند بلدة العباسة بين مدينتى بلبيس والصالحية فدارت الدائرة على المماليك فى بداية المعركة لكن الأمور لم تلبث أن تبدلت لصالح المماليك إذ انقلبت فرقة من مماليك الناصر عليه وانضمت إلى المماليك المصرية التى قوى ساعدها واشتد حتى حققت النصر على الجيش الأيوبى ففر الناصر يوسف ومن معه من أبناء البيت الأيوبى إلى الشام منهزمين بعد أن فقدوا عدداً كبيراً من القتلى والأسرى (٦٤)

واستمر النزاع الأيوبى المملوكى إلى أن تدخل الخليفة العباسى المستعصم بالله بين الطرفين لإنهاء هذا النزاع فأرسل رسوله نجم الدين البادرائى (٦٥) الذى تمكن من عقد الصلح بينهما سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما فى ذلك غزة والقدس بينما تظل بقية بلاد الشام فى يد أصحابها الأيوبيين (٦٦) .

وبمقتضى هذه الإتفاقية اعترف الأيوبيون بشرعية سلطنة المماليك فى مصر ، وانتهز أيبك الفرصة فأسقط شريكه الصغير من الحكم وحذف اسمه من الخطبة .

ولم تستقر الأمور لأيبك فى مصر إذ قام الأعراب فى كل من ديروط والفيوم والجيزة والبحيرة والشرقية والغربية والمنوفية بثورة كبيرة سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م كان الغرض منها القضاء على حكم المماليك وإعادته إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد (٦٧) فأرسل إليهم الأمير فارس الدين أقطاى فى خمسة آلاف فارس من خيرة المماليك البحرية فتمكن من الإنتصار عليهم (٦٨) وعقب هذا الانتصار ازداد نفوذ المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاى الذى تزوج من ابنة الملك المظفر تقى الدين محمود ملك حماه ولقبه أصحابه بالملك الجواد(٦٩) ، وأخذ يسرع الخطى نحو الاستيلاء على السلطنة لكن أيبك تمكن من التصدى له عن طريق مؤامرة دبرها لقتله سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م اشترك فيها سيف الدين قطز (٧٠) .

ولما علم كبار المماليك البحرية بما جرى لزعيمهم أقطاى خشوا أن تدور الدائرة عليهم ففروا هاربين فمنهم من قصد الملك المغيث عمر بالكرك ومنهم من التجأ إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، كما التجأ مائة وثلاثين منهم إلى السلطان علاء الدين كيقباذ ابن كيخسرو سلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى (٧١)

واستطاع أيبك الاستبداد بالأمور والسيطرة عليها عقب نجاحه فى التخلص من نفوذ المماليك البحرية فحجر على شجر الدر وضيق عليها الخناق واستبد بالسلطان دونها وعزم على الزواج من غيرها ابنة « بدر الدين لؤلؤ » صاحب الموصل (٧٢) فحصل بينهما صراع انتهى بأن دبرت شجر الدر مؤامرة لقتله فأعدت له خمسة من الغلمان الأشداء منهم محسن الجوجرى ونصر العزيزى وسنجر وكان مملوكاً لأقطاى (٧٣) ونجح هؤلاء الغلمان فى قتل أيبك فى الحمام سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م (٧٤) ولما علمت المماليك المعزية بمقتل أيبك على يد شجر الدر بادروا بالقبض عليها وقتلها (٧٥) وقرروا اختيار على ابن استاذهم أيبك سلطاناً ولقب السلطان الجديد بالمنصور وكان فى الخامسة عشرة من عمره واختاروا سيف الدين قطز أتابكاً له (٧٦) ومما لا شك فيه أن اختيار هذا الصبى ليتولى مسئولية الحكم جعل البلاد تتعرض لأطماع الطامعين فى الداخل والخارج ففى الداخل اعترض المماليك الصالحية على سلطنته واتفقوا على تولية الأمير علم الدين سنجر الحلبى السلطنة وحلفوا له لكن المماليك المعزية استطاعوا القضاء على هذه المحاولة وقبضوا على الأمير وسجنوه فى الجب بالقلعة كما قبضوا على عدد كبير من أنصاره بينما فر البعض الأخر إلى بلاد الشام (٧٧)

أما فى الخارج فيبدو أن المماليك البحرية الفارين إلى بلاد الشام قد شجعوا الأيوبيين على غزو مصر فاستجاب لهم الملك المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك الذى حاول غزو البلاد مرتين كانت الأولى فى سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م والثانية فى سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ولكنه هزم فى المحاولتين على يد الأمير سيف الدين قطز المعزى نائب السلطنة (٧٨)

وما أن قضى قطز على الأطماع الداخلية والخارجية حتى جاءت الأخبار تترى بأن المغول استولوا على بغداد فى صفر سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقتلوا الخليفة المستعصم بالله

العباسي وحرقوا الجوامع والمساجد وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات (٧٩) .

ولما علم قطز بأخبار المغول عقد مجلساً بالقلعة يضم كبار الأمراء والعلماء والقضاة والأعيان للتشاور فى الأمر وبين لهم أن البلاد بحاجة إلى سلطان قاهر يقاتل هذا العدو أما الملك المنصور فهو صبى صغير لا يعرف تدبير أمور المملكة فاستقر الرأى على أن يتولى قطز السلطنة كي يتمكن من التصدى لخطر المغول الذى يتهدد البلاد (٨٠) .

الزحف المغولى على العالم الإسلامى :

ابتلى العالم الإسلامى بموجات من الزحف المغولى الذى لم يرحم صغيراً ولا كبيراً وانطلق يدمر كل شيء فى طريقه حتى انتشر الفزع والهلع فى كل مكان (٨١) فمن هؤلاء المغول الذين نشروا الرعب والفزع فى العالم الإسلامى ؟ ومن أين أتوا ؟ وماذا فعلوا بالمسلمين ؟ ومَنْ مِنَ المسلمين استطاع أن يتصدى لهم وأن يوقف زحفهم ويحطم كبرياءهم؟

يذكر كثير من المؤرخين والباحثين أن المغول هم عدة قبائل بدوية رعوية كان يشار إليهم غالباً باسم التتار أو التتر ، وهو اسم كان يطلق على إحدى مجموعاتهم وهى قبيلة التتر ، وكانت القبائل المغولية فى مستهل القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى تعيش فى هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبى بين بحيرة بايكال فى الغرب وجبال خنجان (Khingan) على حدود منشوريا فى الشرق (٨٢)

وكانت هذه القبائل تعيش على الصيد والقنص ويتغذون باللحم ولبن الخيل (٨٣) ولم يكن لهم دور يذكر فى التاريخ قبل ظهور جنكيز خان ؛ بل كانوا ينقسمون إلى عدة قبائل كما يلى :

١ ـ قبيلة القيات الصغيرة : التى ظهر منها جنكيز خان وكانوا يسكنون على شواطئ الشعب العليا الآمور وجبال قراقروم أى يابلونوى الحالية Iablonoi (٨٤) .

٢ ـ قبيلة الأويرات : وكانوا يقيمون فى المنطقة الواقعة ما بين نهر أونن Onan وبحيرة بايكال، وكانوا كثيرى العدد وقد انقسموا إلى عدة فرق ، إلا أنهم كانوا يأتمرون بأمر ملك واحد ولما جاء جنكيز خان استطاع أن يخضعهم لطاعته (٨٥) .

٣ ـ قبيلة النايمان : وهى من قبائل الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولى وكانوا يقيمون

فى أقاصى الغرب بين أعالى نهر أرتش ونهر أورخون شمال جبال التاى وبسبب اقتراب هذه القبيلة من قبائل الأوغور فى الجنوب فقد اعتنق أفرادها الديانة المسيحية حسب الطقوس النسطورية [٨٦] .

٤ ـ قبيلة الكراييت Kerait وكانت تقطن الواحات الشرقية لصحراء جوبى [٨٧] وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين ، وكانت هذه القبيلة من أقوى قبائل المغول فى القرنين الخامس والسادس الهجريين واستطاعت السيطرة على معظم القبائل حولها، وقد اعتنق رئيس هذه القبيلة الديانة المسيحية عام ٣٩٨ هـ [٨٨].

٥ ـ قبائل المركييت Markit وهم من المغول وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالى بلاد الكراييت على مجرى نهر « سلنجا » وجنوبى بحيرة بايكال ، وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد ، ولهذا شنّ عليهم جنكيز خان حرباً شعواء استعمل فيها القسوة والشدة حتى أباد معظمهم [٨٩] .

٦ ـ قبائل التتار : وكانوا يقطنون المنطقة التى تحد شمالاً بنهرى « أرخون » و «سلنجا» Selenga ومملكة القرغيز ، وشرقاً بإقليم الخطا (الصين الشمالية) وغرباً قبائل الأويغور وجنوباً بإقليم التبت [٩٠] .

وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً فى أقاليم آسيا الشمالية وكانوا يتمتعون باحترام زائد نتيجة قوتهم وجبروتهم بالإضافة إلى أنهم كانوا أكثر القبائل رفاهية وتنعماً [٩١] .

وكانت قبائل التتار فى صراع دائم وشديد مع قبائل المغول حتى ظهر جنكيز خان فقام ومعه جنوده بالإجهاز عليهم واستئصال شأفتهم وأصدر أمراً قاطعاً بألا يترك أحد منهم على قيد الحياة ، وعلى أثر انتصاره عليهم ، أطلق اسمهم عليه ، ربما لما كانوا يتمتعون به من القوة والشجاعة والثراء والنبل [٩٢]

و الحقيقة أن المغول فى بدء هجومهم على العالم الإسلامى كانوا يعرفون بالتتار كما أطلق عليهم اسم « المغول » و« مغل » واشتهروا فى التاريخ بهذين الاسمين [٩٣] .

ولقد تمكن الزعيم المغولى جنكيز خان [٩٤] من جمع شمل القبائل المغولية المتفرقة واخضاعها كلها لسلطانه ، ونصب نفسه عليها خاقاناً [٩٥] سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م وبعد أن

تولى جنكيز خان عرش المغول سعى إلى التوسع فى الأقاليم الجنوبية بهدف اقتطاع ما يمكن إقتطاعه من البلاد الصينية والتوسع فى الأقاليم الغربية بقصد تعقب بعض القبائل المغولية التى فرت من وجهه وأبت الرضوخ لسلطانه ، وبينما هو يستعد لتوسيع ملكه وضع دستوراً لشعبه كي يلتزم به المغول ويسيرون وفق قواعده فى حياتهم وقد نظم هذا الدستور الحياة العامة المغولية لمدة طويلة بعد موته (٩٦) .

وبعد أن نظم جنكيز خان الأمور داخل دولته واطمأن إلى استقرارها زحف نحو البلاد الشمالية من بلاد الصين وتمكن من إخضاعها ، كما تمكن من الانتقام من أعدائه الذين فروا من وجهه تجاه الغرب ، ومن ثم اصطدم بالقوى الإسلامية ولا سيما الدولة الخوارزمية التى كانت قد وصلت إلى أقصى اتساع لها فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه ، وقد استطاع جنكيز خان تخريب أقاليم هذه الدولة والتنكيل بسلطانها وجيوشها وسكانها فى مدة لا تزيد على أربع سنوات ، إذ بلغ حدودها سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م وشرع فى العودة إلى منغوليا سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م (٩٧) .

وقد كان غزو جنكيز خان للشرق الإسلامى عنيفاً وشديداً فقد خرّب ودمر كل ما صادفه من البلاد التي وطئتها أقدامه ، ونكل بالمسلمين وتفانى فى تعذيبهم بشتى الوسائل والأساليب (٩٨) .

وفى أثناء هذه الفتوح الكبيرة توفى جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م عن اثنين وسبعين عاماً وكانت البلاد التى فتحها هو وأولاده تمتد من البحر الأصفر إلى البحر الأسود ، وكانت تضم بلاداً وقبائل انفصلت عن حكم الصين والتانغوت والأفغان وإيران والترك (٩٩) .

لم يترك جنكيز خان قبل وفاته أية تعليمات بالنسبة لوحدة الامبراطورية المغولية لذا فقد اتفق على أن يجرى اختيار من يخلفه من أبنائه عن طريق الانتخاب ، وفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩ م تم عقد الجمعية الوطنية العامة « القوريلتاى » واتفق أبناء جنكيز خان على تنصيب « أوكتاى » خلفاً لأبيه ، ودخل الجميع فى طاعته (١٠٠) وامتاز عصر أوكتاى بتوسع الممتلكات المغولية بشكل واضح حيث تم اخضاع دولة « كين » الواقعة فى النصف الشمالى من الصين ، والتي كانت قد اخضعت جزئياً فى أيام جنكيز خان (١٠١) ثم شن

المغول على أوربا حملة كبيرة فدخلوا موسكو ونوجرود وهاجموا بلاد المجر وأحرقوا كزاكاو وحاصروا بشته ، ولقد أنقذ أوربا من الخطر المغولي وفاة أوكتاى [١٠٢] ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١م وقد قبضت زوجته « توراكينا خان » على أزمة الأمور حتى استطاعت بذكائها وحسن دهائها أن تجعل السلاطين والأمراء الكبار يوافقون على اختيار ابنها كيوك خان فى مؤتمر « القوريلتاى » الذى انعقد سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م[١٠٣] وأعاد كيوك الأمن الذى اختل فى حكم أمه ثم أرسل جيوشه إلى إيران والصين [١٠٤] ولم يمكث كيوك خان فى الحكم سوى عام وبعض العام حتى لقى حتفه [١٠٥].

وبوفاة كيوك خان انتقل زمام الدولة إلى شعبة أولاد تولوى فتولى منكوبن تولوى العرش سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م [١٠٦] .

وفى سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م أرسل القان منكو أخاه هولاكو ومعه أسرته على رأس جيش كبير إلى إيران ليحارب الاسماعيلية والعباسيين فى بغداد [١٠٧] .

وقد حرص منكو على إعداد أخيه هولاكو إعداداً دقيقاً وباشر ذلك بنفسه فأمده بكثير من القوات التى مارست الطعن والنزال واقتحمت ميادين القتال ، وأمده بكثير من الجند الذين مهروا فى استخدام أدوات الحرب مثل المنجنيق وقاذفات النفط ورمى السهام ووصل تعداد هذا الجيش إلى ١٢٠,٠٠٠ جندى من خيرة محاربى المغول [١٠٨] .

وخرج هولاكو على رأس جيشه من عاصمة المغول « قراقورم » سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣م حتى وصل إلى إيران واستطاع أن يخضعها لسلطانه سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م وفى العام التالى فتح قلعة ألموت وحطم المغول ما وجدوه من الأسلحة وأدوات القتال التى كانت لدى الاسماعيلية ، وبذلك زالت دولة الاسماعيلية الباطنية بعد أن استمرت ١٧١ عاماً تثير الرعب والفزع فى بلاد العالم الإسلامى كافة [١٠٩] ليحل محلهم المغول الذين انتقلوا إلى همدان وعسكروا فيها ليكونوا بالقرب من العاصمة العباسية بغداد ليعدوا العدة لفتحها .

ويبدو أن هولاكو طمع فى أن ينشئ لنفسه بوصفه تابعاً لأخيه منكو امبراطورية خاصة فى الغرب أو أن يكون أخوه الخاقان قد أوعز له بذلك ليكون فى بيتهم الملك والسلطان ، وحقق هولاكو هدفه الأول بالقضاء على طائفة الاسماعيلية وجعلها عبرة لمن يفكرون فى

مقاومته ثم سار إلى بغداد لتحقيق هدفه الثانى وهو القضاء على الخلافة العباسية وفتح بغداد (١١٠).

و فى التاسع من المحرم سنة ٦٥٦ هـ / السادس عشر من يناير سنة ١٢٥٨ م وصلت جيوش المغول بقيادة هولاكو إلى بغداد وأعمل السيف فى أهلها لمدة أربعين يوماً فقتل من المسلمين عدد كبير وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله وآل بيته ، ولم ينج من بين أيديهم إلا العدد القليل (١١١) .

وقضى هولاكو بذلك على الخلافة الإسلامية ثم تقدم نحو بلاد الشام ، وفى طريقه استولى على ميافارقين فى دياربكر وقتل صاحبها الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وحمل التتار رأسه على رمح قصير وطيف به لأنه رفض الإستسلام للمغول (١١٢) .

وفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م دخل جيش المغول إلى حلب عنوة بعد أن رفض حاكمها الاستسلام وأعملوا فى أهلها القتل والأسر(١١٣)، وسقطت دمشق فى أيديهم ، واستمروا فى إسقاط كافة البلدان بالشام حتى وصلوا إلى غزة والخليل فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال واستاقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشى شيئاً كثيراً وأخذوا من الأسلاب والأثاث ما لا يحصى (١١٤) وصاروا على مقربة من الحدود المملوكية المصرية .

الملك المظفر قطز والتصدى للمغول :

تولى قطز عرش السلطنة فى مصر واستطاع السيطرة على الأمور داخل البلاد ، واعتقل من توهم خطره من الأمراء ، وبدأ يعد العدة لمواجهة الخطر الكبير الذى زحف على بلاد الشام وبدأ يهدد مصر .

وفى أثناء ذلك يصلته رسالة من ركن الدين بيبرس البندقدارى أحد أمراء المماليك البحرية يطلب منه العودة إلى مصر للمشاركة فى مقاومة المغول (١١٥) .

وكان بيبرس مقيماً ببلاد الشام عقب مقتل زعيمه فارس الدين أقطاى فلما علم بضعف أمراء الشام ورغبتهم في الاستسلام للمغول ، لم يرض عن ذلك ؛ بل إنه صفع أحدهم وسبه قائلاً : أنتم سبب هلاك المسلمين ، وعاد هو ومن معه من المماليك البحرية إلى مصر فاقطعه قطز قليوب وأعمالها (١١٦) .

وفى تلك الأثناء وصل إلى السلطان سيف الدين قطز خطاب تهديد من هولاكو يطلب منه التسليم ويهدده وينذره إن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول (١١٧) .

ولم يتردد قطز أو يتهاون ؛ بل كان رده حاسماً وقاطعاً إذ قبض على رسل المغول الأربعة وأعدمهم وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، ونودى فى البلاد بالاستعداد والخروج إلى الجهاد ، وأخذ قطز يستنهض همم كثير من الأمراء ويقنعهم بوجوب الخروج معه لملاقاة المغول والدفاع عن مصر الذين عاشوا على أرضها وأكلوا من خيراتها فكان يقول لهم : «يا أمراء المسلمين : لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين » (١١٨) .

وفى شهر رمضان سنة ٦٥٨ هـ / أغسطس ١٢٦٠ م خرج قطز من مصر ليلاً على رأس الجيوش المصرية ومن انضم إليه من جنود الشام وغيرهم (١١٩) .

وأمر بيبرس أن يتقدم بمجموعة من العسكر ليتعرف أخبار المغول ويستطلع أحوالهم فسار بيبرس إلى غزة فالتقى بطلائع المغول واستطاع أن يلحق بهم الهزيمة الأولى فى تاريخهم (١٢٠) وإن لم تكن حاسمة حيث كانت بقية قواتهم تستعد لملاقاة الجيش المصرى بقيادة قطز .

وصل قطز بعد ذلك إلى غزة وأقام بها يوماً ثم رحل إلى مدينة عكا حيث التقى بالفرنج المقيمين هناك وطلب منهم إلتزام الحيدة التامة وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى المغول (١٢١) .

وتقدم قطز بقواته حيث التقى بقوات الأمير بيبرس عند عين جالوت (١٢٢) وفى صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨ هـ الموافق الثاني من سبتمبر سنة ١٢٦٠ م التقى الجمعان المغولى والمملوكى وكما يقول المقريزى : « التقى الجمعان وفى قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر»(١٢٣)وهذا شىء طبيعى لأن أولئك القوم اجتاحوا آسيا كلها وجزءاً من أوربا دون أن يلحق بهم هزيمة واحدة وكانوا يقتلون وينهبون ويدمرون .

وقد انتهى أمر هذه الوقعة الدامية التى اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة مرات إلى أن نصر الله المماليك نصراً كبيراً وهزم المغول لأول مرة فى تاريخهم وقتل مقدمهم كتبغانوين وحمل رأسه إلى القاهرة (١٢٤) وكان نصر عين جالوت إشارة لخلاص الشام من أيدى المغول الذين سارعوا بالفرار قبل أن يقعوا فى أيدى الشاميين الذى هبوا للإنتقام(١٢٥).

وهكذا استطاعت دولة المماليك أن تلعب دور حامية الإسلام بعد أن تمكن قطز وزميله ركن الدين بيبرس من الانتصار على المغول .

ولا شك أن موقعة « عين جالوت » كانت نقطة تحول خطيرة فى الشرق الإسلامى فقد أنقذت مصر والشام من خطر المغول ، وجعلت دولة مغول فارس تقف عند حدود العراق ، وإذا كان المغول قد استمروا بعد ذلك يهددون الشام ، إلا أن تهديدهم لها لم يكن خطراً كما كان الحال من قبل وإنما صار مجرد إغارات متقطعة تنتهى بالانسحاب والفرار عندما تخرج لهم الجيوش الإسلامية فى مصر .

وفى الفترة القصيرة التى قضاها قطز ببلاد الشام بعد موقعة « عين جالوت » استطاع أن يبسط سيطرة دولة المماليك على الشام ، وأن يعيد الحياة إلى مجراها الطبيعى هناك(١٢٦) واستولى قطز على سائر بلاد الشام كلها من الفرات إلى حد مصر(١٢٧)وبذلك أعاد بناء الجبهة الإسلامية الموحدة التى كانت قد تمزقت أثناء تولى شجر الدر السلطنة .

وسمح قطز لبعض أمراء البيت الأيوبي بالعودة إلى ولاياتهم في حمص وحماه على أن يتعهدوا بالدعاء للسلطان على منابرهم ، والاعتراف بالتبعية لسلطنة المماليك في مصر (١٢٨) .

وفي مصر كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع في نفوس المصريين الذين أقاموا الزينات ، ودقوا البشائر ، وأخذوا يستعدون لاستقبال القائد المنتصر ، غير أن قطز لم يستطع قطف ثمار انتصاره إذ تعرض للقتل على يد الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ، الذي اعتلى العرش مكانه بموافقة بقية الأمراء المماليك الذين فطروا على الخيانة والخديعة وانتهاز الفرص وقتلوا قائدهم ، وهو في أزهى ساعات مجده (١٢٩) .

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس

(٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)

يعد الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية ، فقد استطاع القضاء على مناوئيه من أمراء المماليك والحكام الأيوبيين في مصر والشام وبفضله تم توحيد البلدين .

والحقيقة إن بيبرس لم يكد يستقر في السلطنة حتى أخذ يتقرب من الخاصة والعامة فخفف عن الأهالي عبء الضرائب وألغى الأموال التي كان قطز ، قد فرضها عند محاربة المغول (١٣٠) ويذكر المقريزي أنه أرسل الأمير جمال الدين المحمدي إلى دمشق ومعه مائة ألف درهم وحوائص وخلع بألفي دينار عيناً لاستمالة الناس هناك إلى جانبه وللقضاء على ثورة الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب الشام وقد نجح في ذلك واعتقل سنجر (١٣١) .

كما جهز الأموال والأصناف بصحبة الأمير علم الدين اليغموري لعمارة الحرم النبوي بالمدينة ، وبعث الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس وكانت قد ضعفت . (١٣٢)

وأخرج ما كان في اقطاعات الأمراء من أوقاف الخليل عليه السلام ووقف عليه قرية بفلسطين (١٣٣)

ورسم للأمير جمال الدين بن يغمور بعمارة ما تهدم من قلعة الروضة فأصلح ما فسد منها ، ورتب الجندارية ، وأعاد لها حرمتها ، وفرق أبراجها على الأفراد لكل أمير مهم برج وأمرهم أن تكون اصطبلاتهم وبيوتهم فيها وسلمهم مفاتيح القلعة (١٣٤) .

وأمر بعمارة أسوار الأسكندرية ، ورتب لذلك جملة من المال فى كل شهر ، وبنى بثغر رشيد مرقباً لكشف البحر ، وأمر بردم فم بحر دمياط بالحجارة حتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله (١٣٥) .

كما أمر بعمارة ما خربه المغول من قلاع الشام وهى قلعة دمشق وقلعة الصلت ، وقلعة عجلون ، وقلعة صرخد ، وقلعة بعلبك ، وقلعة شيزر ، وقلعة الصبيبة وقلعة شميس وقلعة حمص فعمرت كلها ونظفت خنادقها ووسعت أبراجها وشحنت بالعتاد وجرد إليها المماليك والأجناد وخزنت بها الغلات والأزواد. (١٣٦)

وحملت غلال كثيرة إلى دمشق وفرقت فى البلاد لتصير تقاوى يستخدمها الفلاحون فى الزراعة ، ورتب دار العدل بدمشق ، وبنى مشهداً فى عين جالوت عرف بمشهد النصر .(١٣٧)

كما رتب بيبرس البريد فى سائر الطرقات حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها ، فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعة مرتين.(١٣٨)

واهتم بيبرس بأمر الأسطول فأعاده إلى سابق قوته أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب وأنشأ عدة شوانى بثغرى دمياط والإسكندرية ، بل إنه كان ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بجزيرة الروضة ويشرف على بناء السفن حتى تكامل عنده ما يزيد على أربعين سفينة حربية وعدة كثيرة من الحراريق ونحوهـا حتى صار الجيش فى عهده قوياً. (١٣٩)

ويمكن القول إن بيبرس كان إدارياً حازماً وسياسياً ماهراً ، دائب العمل لترقية شئون بلاده وتنمية مواردها .

القاهرة حاضرة الخلافة العباسية :

لما سقطت الخلافة العباسية فى بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م سعى بيبرس إلى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، إذ انتهز فرصة قدوم بعض الأمراء بأحد أفراد الأسرة العباسية الذين نجوا من المغول فاحتفى به ، وجمع العلماء والقضاة والأمراء فى القلعة لإثبات النسب وبيعته فأثبت قاضى القضاة النسب فى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وبايعه بالخلافة ثم تقدم إليه الظاهر بيبرس يبايعه بالخلافة أيضاً على كتاب الله وسنه

رسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها، وصرفها فى مستحقها (١٤٠)

وتلقب الخليفة الجديد بلقب « المستنصر بالله » ونقش اسمه على السكة إلى جانب اسم بيبرس كما دعى له على المنابر قبل الدعاء للسلطان ثم فوض إليه حكم مصر وسائر البلاد التى يفتحها الله عليه .(١٤١)

وقد فرح كثير من المسلمين ، واغتبطوا ، وأبدوا ارتياحهم لقيام الخلافة العباسية من جديد ، فقد كانوا ينظرون إلى الخلافة نظرة إجلال وتقديس وتبارى الشعراء فى تخليد هذا الحدث العظيم .

ويبدو أن بيبرس كان غرضه من ذلك الاستفادة من سلطة الخليفة الروحية ليكسب حكمه صفة الشرعية أمام العالم الإسلامى .

أما من يرون أن الظاهر بيبرس بعد نجاحه فى إعلان الخلافة العباسية بالقاهرة ، رأى أن يتخلص من الخليفة ، حتى لا يكون خطراً عليه فأرسله إلى بغداد مع بعض الجند لطرد المغول منها واسترداد ملكه فكان فى ذلك نهايته حيث قتله المغول .

نقول لهم لو كان بيبرس قد سعى إلى الخلاص من الخليفة العباسى بعد تنصيبه بمصر لما بحث عن أمير عباسى آخر ودعاه لإحياء الخلافة من جديد ، فقد أحضر بيبرس فى العام التالى أميراً عباسياً آخر ، وجعله خليفة بدلاً من الخليفة الراحل ولقب باسم «الحاكم بأمر الله » (١٤٢) وصارت القاهرة حاضرة الخلافة العباسية آنذاك ، وصارت البلد الذى يتطلع إليه العالم الإسلامى كله ، ويدين له بالولاء ، وأصبح السلاطين المماليك حماة الخلافة والخلفاء ، ودعموا سلطتهم الزمنية بسلطة روحية دينية ، وأصبح لهم بذلك المقام الأسمى على كل ملوك وحكام العالم الإسلامى .

بيبرس و التصدى للصليبيين و المغول :

يرجع الفضل فى انتصار المسلمين على الصليبيين فى المنصورة ودمياط إلى شجاعة الجند المملوكى آنذاك ، وقد قدر لهؤلاء المماليك الذين أقاموا دولتهم فى مصر والشام أن يتولوا صد الأخطار الكبرى التى هددت المسلمين فى الشرق الإسلامى فأخذوا يهيئون أنفسهم للتصدى للأعداء ، وقد جمعوا فى ثقة بين مصر والشام ، ووحدوا بين شعبيهما

وجمعوهما فى حركة نضالية واحدة ، ونفثوا القوة فى البلدين ، واعتمدوا على مواردهما المادية والبشرية لضرب العدو الصليبى .

وظهر السلطان بيبرس ليقود الجهود الإسلامية ضد العدو ، وبدأ جهوده بأن عمل على محالفة بعض الدول الأوربية لإبعادها عن المعسكر الصليبى ، فعقد حلفاً مع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس (٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) Michael VIII Palaeologus وأرسل إليه بطريقاً من الملكانية ليشرف على الملكانيين [١٤٣] فى دولته وبصحبته عدد من الأساقفة ومعهم الأمير فارس الدين آموش المسعودى ، فلما وصلوا القسطنطينية استقبلهم الأمبراطور واحتفى بهم ، كما تحالف بيبرس مع خان القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق واسمه بركة خان وهو أول حاكم من المغول يعتنق الإسلام ، وكانت بلاده تمتد من تركستان شرقاً إلى البحر الأسود غرباً ، وقد جعل عاصمة بلاده « سراى بركة » على نهر الفولجا مركزاً لبسط سلطانه على أنحاء كبيرة من روسيا الحالية . [١٤٤]

ولم يكتف بيبرس بذلك بل حالف سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ووعده بأن يقف بجانبه ضد أخيه ركن الدين قلج أرسلان ، وضد هولاكو وأطماعه فى آسيا الصغرى وأرسل بيبرس جنوده إلى دمشق وحلب استعداداً لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول .[١٤٥]

وهكذا دخل بيبرس المعركة ضد خصومه وقد ضمن إلى جانبه حلفاء يشدون من أزره فدخل مع الصليبيين فى معارك عديدة فكان من نتيجتها الاستيلاء على قيسارية [١٤٦] وحيفا وعتليت [١٤٧] وأرسوف [١٤٨] سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥م وفى العام التالى نجح فى تحرير صفد [١٤٩] وهونين وتبنين ومدينة الرملة .[١٥٠]

وقد توج الظاهر بيبرس انتصاراته ضد الصليبيين بالاستيلاء على مدينة انطاكية سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م [١٥١] وكانت خسارة الصليبين فادحة بسقوطها فقد كانت مركز احدى الإمارات الصليبية القوية فأحدث سقوطها دوياً فى العالم الإسلامى والمسيحى معاً ، فقد كانت تعد أكبر حصن للصليبيين فى الشرق وهى ثانى إمارة تنشأ بعد إمارة الرها .[١٥٢]

ولم يبق بعد سقوط انطاكية سوى مملكة طرابلس فى الشمال وعكا وصور فى الجنوب، وقد عرضت كلها الصلح مع الظاهر بيبرس الذى استجاب لما طلبوا .[١٥٣]

ولم تتوقف جهود بيبرس ضد الصليبيين عند بلاد الشام وإنما توجه نحو أرمينيا الصغرى [١٥٤] لتأديبها جزاء لها على تعاونها مع الصليبيين والمغول فأرسل جيشاً كبيراً لمهاجمة أرمينياسنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م أثناء غياب ملكها هيثوم Haythoum وقد تمكن الجيش المملوكي من هدم الأبراج التي شادها هيثوم وأنزل هزيمة كبرى بالأرمن ووقع ليفون بن هيثوم أسيراً في حين لقى الابن الآخر مصرعه وأسر عدد كبير من الأرمن [١٥٥]

ودخل الجيش المملوكي مدينة سيس العاصمة فنهبها وأخذ ما فيها ثم اتجه إلى المصيصة وأذنة واياس وطرسوس وعاثوا فيها فساداً وتخريباً مدة عشرين يوماً ثم عاد الجيش بغنائم كثيرة [١٥٦]

وقد اضطر الملك هيثوم إلى طلب الصلح الذى تم سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م [١٥٧] على أن يطلق سراح ولده وأن يتنازل للمماليك عن عدة مواقع استراتيجية هامة تتحكم في طرق المواصلات التي تربط أرمينية بحلفائها المغول في الجزيرة شمالي العراق من ناحية وبالصليبيين في أنطاكية من ناحية أخرى ، كما تعهد هذا الملك بدفع جزية سنوية للسلطان المملوكي في مقابل مسالمته [١٥٨] ، وعندما تكررت اعتداءات النوبيين المسيحيين على أراضي مصر الجنوبية أثناء حروب بيبرس مع المغول والصليبيين ومملكة أرمينيا الصغرى قام بيبرس بإرسال حملة عسكرية إلي بلاد النوبة بقيادة الأميرين شمس الدين آق سنقر الفارقاني وعز الدين الأفرم ووصلت هذه الحملة سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م وتمكن أفرادها من الانتصار علي الملك داود الذى أجبر على دفع الجزية في كل عام[١٥٩] ، هذا وكان السلطان بيبرس قد احتل مدينة سواكن المنفذ البحرى لمالك النوبة على البحر الأحمر سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦م [١٦٠] وأدى ذلك إلي إحكام السيطرة المصرية على البحر الأحمر وتجارته وفي نفس الوقت أدى إلى تهديد المعاقل المسيحية في بلد النوبة .[١٦١]

ولم يكتف بيبرس بالتصدى للصليبيين وإنما تصدى أيضاً للمغول ففي سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م حاصر المغول مدينة البيرة ورابطوا على شاطيء الفرات ليحولوا دون وصول النجدات لها لكن الظاهر بيبرس استطاع هزيمة المغول الذين ارتدوا عن مدينة البيرة مخلفين وراءهم معسكرهم وأثقالهم وأزوادهم ودخل بيبرس إلى مدينة البيرة فائزاً منتصراً.[١٦٢]

وكانت عودة المغول إلى ما وراء الفرات عودة مؤقتة إذ لم يفقدوا الأمل فى معاودة الهجوم ، ولهذا تكررت إغاراتهم على بلاد الشام بين حين وآخر فقرر بيبرس مطاردتهم فى جنوب آسيا الصغرى حتى يقضى على كل أمل لهم فى الإغارة على الشام فأعد حملة كبيرة سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م تمكنت من الانتصار على المغول وأنصارهم من سلاجقة الروم وقتل قائد المغول فى المعركة وسط سبعة آلاف قتيل من رجاله بالإضافة إلى الأسرى وقد أمر بيبرس بقتلهم جميعاً .(١٦٣)

وبعد ذلك دخل بيبرس قيصرية ودعى له على منابرها وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة ثم قفل عائداً إلى بلاد الشام (١٦٤)

وخلاصة القول إن بيبرس استطاع القيام بمجهود كبير فى سبيل تدعيم دولة المماليك الأولى والدفاع عنها ضد أعدائها من الصليبيين والمغول .

لما توفى بيبرس سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م (١٦٥) بويع ابنه محمد الملقب بالملك السعيد ناصر الدين « بركة خان » بيد أنه لم يلبث أن خلع بعد سنتين اثنتين على يد والد زوجته الأمير سيف الدين قلاوون أحد أمراء المماليك البحرية (١٦٦) الذى ولى بدر الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس الصغير خلفاً لأخيه وكان صبياً فى السابعة من عمره ونهض بعبء الوصاية عليه ثم خلعه بعد ثلاثة أشهر واستقل هو بالحكم .(١٦٧)

المنصور قلاوون (١٦٨)

(٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)

لم يكد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون يتولى الحكم فى البلاد حتى أخذ يتقرب إلى الناس بصالح الأعمال فرفع عن أصحاب الأموال ضريبة الزكاة التى كانت تسمى زكاة الدولية (١٦٩) وخفف الضرائب على التجار (١٧٠) وأحسن إلى مماليكه وحاشيته (١٧١) مما دفع المؤرخ أبو الفداء إلى القول بأنه « أقام منار العدل وأحسن سياسة الملك ، وقام بتدبير المملكة أحسن قيام » (١٧٢) .

إلا أنه لم يسلم من الثورات الداخلية التى تعرض لها سلاطين المماليك فى بداية حكمهم (١٧٣) إذ خرج عليه نائب الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، وهو أحد كبار

أمراء المماليك البحرية فأعلن استقلاله بملك الشام ، وتلقب بالملك الكامل ، ودعا القضاة والعلماء والأمــراء وأعيان الـبلاد إلى مسجد أبـي الـدرداء بقلعـة دمشـق حيـث تمـت البيعة لـه (١٧٤).

ويبدو أن قلاوون كان يخشى هذا الرجل فأبعده إلى الشام ليتقي شره ، كما يذكر ابن إياس الذى يقول : « وكان الأمير سنقر الأشقر مجرماً ، وعنده جهل زائد فأبعده المنصور قلاوون إلى الشام ليكفى شره ، فما كفى ذلك » (١٧٥) .

ولم يكن قلاوون ليترك هذا الرجل يستقل بأمور الشام ويفتت وحدة البلاد ، فأرسل جيشاً بقيادة الأمير علم الدين سنجر الحلبى تمكن من هزيمة سنقر وأعوانه سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م(١٧٦) وفر سنقر إلى رحبة مالك بن طوق (١٧٧) وكاتب « أبغابن هولاكو » ملك المغول يستغيث به ويطلب عونه (١٧٨) .

انتهز المغول هذه الفرصة فأقبلوا نحو بلاد الشام فى حملتين كانت الأولى سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م ويبدو أنها كانت حملة استطلاعية اتجهت إلى حلب فدخلوها وأحرقوا جوامعها ومدارسها وقتلوا كثيراً من أهلها (١٧٩) ، ولما علموا بتحرك السلطان قلاوون إليهم سارعوا بالفرار إلى قواعدهم فى العراق (١٨٠) .

أما الحملة الثانية فكانت سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م حيث أقبل « منكوتمرين هولاكو » في جيش كبير من المغول والتقى بالجيش المملوكى فى موقعه حمص فدارت الدائرة على المغول وولوا الأدبار إلى العراق بعد أن أصيب قائدهم وهلك منهم خلق كثير (١٨١) .

وبعد هزيمة المغول قرر السلطان قلاوون التصدى للصليبيين فأرسل جيشاً كبيراً سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م لمهاجمة حصن المرقب (١٨٢) لأن أصحابه من فرسـان الاسبتـاريـة (١٨٣) كـانوا قـد ساعدوا المغـول أثنـاء حصارهـم لمدينـة حـلب سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠م فتمكن الجيش المملوكي من فتح هذا الحصن بعد ثمانية وثلاثين يوماً واستولى عليه مما سبب خسارة كبرى للصليبيين (١٨٤) وقد استولى السلطان قلاوون كذلك على أعمال المرقب مثل بلنياس ومرقية (١٨٥) وأرسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م وهو آخر ما تبقى للصليبيين من إمارة أنطاكية (١٨٦)

ولم يتوقف قلاوون عن تقدمه ؛ بل أخذ يعد العدة للإجهاز على الصليبيين في كل مكان ببلاد الشام فاستغل النزاع الذى حدث فى طرابلس حول وراثة الحكم عقب موت بوهيمند السابع فخرج من مصرعلى رأس جيش كبير يزيد عن أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة وحاصر طرابلس التى لم تستطع المقاومة وسقطت فى قبضته سنة ٦٨٨ هـ /١٢٨٩م ولم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التى أخلاها الصليبيون قرب طرابلس مثل بيروت وجبلة ولم يبق للصليبيين من ملكهم في بلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعتليث (١٨٧) فأمر قلاوون بالاستعداد لحصار عكا سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠ م ودفعه إلى ذلك ما فعله الفرنج مع المسلمين هناك حيث قتلوا بعضاً ممن جهر بالأذان في مسجد المدينة ، ونكثوا الهدنة الموقعة بينهم وبين السلطان قلاوون سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م مما جعل السلطان يقسم بألا يترك فى المدينة مسيحياً على قيد الحياة ، لكن القدر شاء لقلاوون ما شاء لبيبرس من قبل فمات وهو يرنو بعينيه إلى فتح عكا

أسـرة قـــلاوون
(٦٨٩ـ٧٨٤هـ/١٢٩٠ـ١٣٨٢م)

استطاعت أسرة قلاوون الاحتفاظ بمنصب السلطنة والاستمرار فى حكم البلاد حتى سقطت دولة المماليك الأولى (البحرية) سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م .

وأول من تولى من ابناء قلاوون السلطان الأشرف خليل الذى مضى فى تنفيذ عزم والده الذى مات قبل انجازه ، وهو تصفية المراكز الصليبية فى بلاد الشام ، فخرج بالجيوش التى كان أبوه قد أعدها من مصر ، وكتب لنوابه فى الشام أن يوافوه بجيوشهم حول مدينة عكا (١٨٩)

وما أن وصل السلطان إلى عكا حتى فرض حصاره عليها فى ١٣ من ربيع الآخرسنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م ، وبدأ رميها بالمجانيق رمياً متواصلاً ، وبذل الصليبيون جهداً مستميتاً فى الدفاع عن عكا ، لكن جهودهم باءت بالفشل فاقتحم المسلمون المدينة فى ١٧ من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م (١٩٠) وفرت البقية الباقية من الفرنج إلى سفنهم الراسية فى ميناء عكا يطلبون النجاة عن طريقها وتبعهم المسلمون يأسرون منهم ويقتلون فيهم ولم ينج أحد منهم إلا القليل (١٩١) .

وبعد سقوط عكا لم يصبح للصليبيين بعد ذلك مقام فى تلك البلاد فألقى الله تعالى الرعب فى قلوبهم ، واستولى المسلمون فى سهولة على المراكز القليلة الباقية بأيديهم مثل صور وصيدا وانطرسوس وعتليث [١٩٢] وطويت بذلك آخر صفحة فى الحروب الصليبية من الشام بعد احتلال دام قرنين من الزمان (٤٩٠ ـ ٦٩٠ هـ)

وبعد أن انتصر الأشرف خليل على الصليبيين ، وارتفعت مكانته فى قلوب المسلمين ، حنق عليه كبار أفراد المماليك ، ولجأوا كعادتهم إلى التآمر والتدبير ، وتزعم حركة التآمر على السلطان الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بالقاهرة واشترك معه الأمير حسام الدين لاجين وكان السلطان قد عزله عن نيابة السلطنة بدمشق واعتقله مرة بعد أخرى ، وشمس الدين قراسنقر الذى عزل عن نيابة السلطنة بحلب ، وسيف الدين بهادر رأس النوبة [١٩٣] وجماعة من الأمراء ، وعند خروج السلطان الأشرف خليل للصيد سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣ م تبعه المتآمرون حتى وصلوا إليه فضربه بيدرا بالسيف ثم لاجين وبقية الأمراء حتى قضوا عليه [١٩٤] .

وعقب مقتل السلطان الأشرف خليل قرر المتآمرون اختيار زعيمهم بدر الدين بيدرا سلطاناً وحلفوا له يمين الولاء ، ولقب بالملك القاهر وقيل الأوحد [١٩٥] لكنه لم يهنأ بما فعل إذ أقبل المماليك الأشرفية بزعامة الأمير زين الدين كتبغا طلباً للثأر لأستاذهم ، وطاردوا بيدرا وأعوانه حتى لحقوا بهم فى الطُرَّانه من قرى كوم حمادة بالبحيرة ، ودارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل بيدرا وفرار معظم أعوانه وأنصاره [١٩٦]

واتجه الأمير زين الدين كتبغا وأعوانه من المماليك الأشرفية نحو القاهرة حيث التقوا بالأمير علم الدين سنجر الشجاعى وكان السلطان قد أنابه عنه فى القلعة واتفق رأى الجميع على اختيار الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً [١٩٧]

السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

كان الناصر محمد بن قلاوون طفلاً صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره عندما تولى سلطاناً لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣م [١٩٨] وكان من الصعب على ذلك الطفل أن يتولى إدارة شئون تلك الدولة الواسعة ، لذا يمكن القول إن فترة حكمه خلال سلطنته الأولى التى

امتدت من سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٢حتى سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م كانت اسمية وأن السلطة الفعلية تركزت فى أيدى مجموعة من الأمراء كان أبرزهم زين الدين كتبغا [١٩٩] الذى قام بعزل السلطان الناصر محمد بعد سنة واحدة من توليه الحكم وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد[٢٠٠] واختار الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة [٢٠١] إلا أن لاجين لم يلبث أن طمع فى السلطنة ، ونجح فى أن يتولى أمورها سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م [٢٠٢] لكنه لم يستقر فيها سوى سنتين وثلاثة أشهر وقتل على يد المماليك البرجيه الذين اتفقوا على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون وعودته إلى ملكه لكونه ابن استاذهم [٢٠٣]

وعاد الناصر محمد بن قلاوون من الكرك إلى مصر ليتولى منصب السلطنة وزينت البلاد ودقت البشائر وفرح الناس به .[٢٠٤]

واختير الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير بيبرس الجاشنيكر استاداراً أى يتولى شئون الطعام والشراب بالقصر ، فأصبح هذان الأميران هما أصحاب السلطان والنفوذ وبدأ الصراع بينهما على الانفراد بالسلطة [٢٠٥] .

وكان أهم ما تعرضت له دولة المماليك فى هذه الفترة هو تجدد هجمات المغول على بلاد الشام [٢٠٦] ففى سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م أقبل السلطان المغولى غازان [٢٠٧] فى جيش كبير قاصداً بلاد الشام ، ووصل الخبر إلى مصر فتوجه السلطان على رأس جيشه لملاقاة المغول عند مجمع المروج بين حمص وحماه [٢٠٨] واستطاع المغول هزيمة الجيش المملوكى، وتسلم غازان خان مدينة دمشق بالأمان لكن قلعة المدينة بقيادة الأمير سيف الدين أرجواش المنصورى رفضت التسليم وقاومت الحصار المفروض عليها حتى رحيل غازان [٢٠٩].

فأرسل السلطان الناصر جيشاً بصحبة الأمير سيف الدين سلار المنصورى والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استطاع السيطرة على المدينة ، وأعاد الخطبة للناصر محمد ابن قلاوون [٢١٠] .

لم ييأس قلاوون عقب هزيمتة الأولى من التتار رغم صغر سنة فأخذ يعد العدة ، وينظم الجيش ، ويستعد لجولة جديدة مع المغول ، ولم يطل الوقت به ، إذ أقبل المغول سنة

٧٠٢هـ/١٣٠٢م بقيادة غازان نحو بلاد الشام ، وفى موقعة مرج الصفَّر [٢١١] بالقرب من دمشق حلت الهزيمة قاسية بالمغول [٢١٢] ، الأمر الذى جعل الناس يفرحون بالناصر محمد ويستقبلونه استقبالاً كبيراً فى دمشق والقاهرة [٢١٣] مما جعل الأميران سلار المنصورى وبيبرس الجاشنكير يحنقان عليه ويمنعانه من الاتصال بالناس ففكر الناصر محمد فى التخلص منهما فدبرّ لهما مؤامرة لقتلهما سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م ، لكن المؤامرة انكشفت واحتاط الأميران على نفسيهما وأسرعا بمحاصرة القلعة تمهيداً للقبض على الناصر محمد وعزله ، مما أثار الاشتباك بين المماليك السلطانية واتباع الأميرين ، وانقذ الناصر محمد من بين براثن الأميرين تدخل العامه الذين تجمعوا تحت القلعة بكثرة وهم يصيحون «ياناصر يامنصور ! الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » [٢١٤] وخشى أمراء المماليك غضب العامة فرأوا ألا ينزعوا السلطان من السلطنة فى هذه الظروف، ورأوا مصالحته حتى تستقر الأمور لهم ويحسنوا تدبيرهم ، ولما تصالحوا مع السلطان طلبوا منه أن يشق القاهرة فى موكب بين الأمراء حتى تطمئن قلوب العامة عليه ، ويعلموا أن الفتنة قد خمدت فأجابهم لذلك [٢١٥]

على أن السلطان ظل متخوفاً على نفسه من غدر الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير فقرر ترك السلطنة والعودة إلى الكرك سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨م [٢١٦] فبادر بيبرس الجاشنكير بتولى منصب السلطنة ويبدو أنه أراد إرضاء العامة بعد أن عزل الناصر نفسه ، فأمر بكتابة تقليد بمنح الناصر محمد الكرك [٢١٧]

لكن الأمور لم تهدأ للسلطان بيبرس الجاشنكير ، ففى مصر ظل الناصر محمد بن قلاوون يتمتع بحب الناس له فى الوقت الذى انخفض فيه النيل وارتفعت الأسعار وحلّ بالناس البؤس الشديد مما جعلهم يفسرون ذلك بسوء طالع السلطان الجديد [٢١٨] وأخذوا يطوفون بشوارع القاهرة وهم يقولون :

سلطاننا ركيـــــن [٢١٩] ونايبـــو دقيـــن [٢٢٠]
يـجيـنـا المـــآ مـــن أيـــن
هاتولنا الأعـــرج [٢٢١] يجى المؤيـدّ حـرج [٢٢٢]

فأمر السلطان بالقبض على جماعة من العامة وأمر بضرب جماعة منهم بالمقارع واشهارهم فى القاهرة وأمر بقطع ألسنة جماعة آخرين (٢٢٣)

وازدادت الأمور سوءاً بانقسام العسكر إلى فريقين ، فريق يؤيد عودة الملك الناصر والفريق الثاني يؤيد بيبرس الجاشنكير (٢٢٤)

وفي الشام رفض الكثير من الأمراء الاعتراف بالسلطان الملك المظفر بيبرس وبخاصة نواب حلب وحماة وطرابلس الذين أرسلوا إلى الناصر محمد بالكرك يستأذنونه فى القدوم عليه بالكرك لمناصرته والوقوف بجانبه (٢٢٥)

وفى شعبان سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م خرج الناصر محمد من الكرك إلى دمشق لاستطلاع الأمور فاستقبله أهل دمشق استقبالاً كبيراً واقيمت الخطبة باسمه ، وبدأ أنصاره ببلاد الشام يجتمعون حوله بعساكرهم فلما تأكد من قوة رجاله وأعوانه أمر بالمسير إلى مصر(٢٢٦) فلما علم بيبرس الجاشنكير بخبره فزع فزعاً شديداً وخلع نفسه من السلطنة وبادر بالهرب (٢٢٧) .

وهكذا تولى الناصر محمد سلطنته الثالثة ، وقد بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة ، فصار رجلاً ناضجاً واعياً لما يدور حوله ، متنبهاً لمطامع الأمراء فكان إذا سمع بتآمر أمير أو شك فى تصرفاته تخلص منه فى الحال ، وأقصاه عن الوظائف العامة ، وكانت سياسته تجاه كبار رجال الدولة بوجه عام هى أن يقرب الواحد منهم ، حتى إذا أحس أن نفوذه زاد عما يجب تخلص منه (٢٢٨) وقد استمر حكمه فى سلطنته الثالثة مدة اثنين وثلاثين عاماً (٢٢٩) وكما يقول ابن إياس فإن أيامه فى السلطنة قد طالت بخلاف من تقدمه من الملوك ، وصفا له الوقت ، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر ، وهادوه ، وصار جميع العسكر من كبير وصغير فى قبضته (٢٣٠)

وفى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤١م توفى الناصر محمد بن قلاوون ، وتبوأ كرسى السلطنة من بعده اثنا عشر سلطاناً كلهم من سلالته ، ثمانية من أبنائه واثنان من حفدته واثنان من ابناء حفدته .

ومما لاشك فيه أن حب الناس لأسرة قلاوون جعلهم يتمسكون بسلالة الناصر محمد بعد وفاته فظل أولاده وأحفاده يحكمون الدولة حتى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م رغم أنه كان

من هؤلاء الأبناء والأحفاد من لا يستحق الملك لضعفه أو سوء خلقه أو صغر سنه ومع ذلك فإن الهيبة التى صارت لبيت قلاوون فى نفوس الناس جعلتهم يتمسكون به [٢٣١] وجعلت المماليك الآخرين يخشون الانقلاب عليهم أو الدعوة لأنفسهم .

إلا أن المماليك البرجية أو الجراكسة قد ازداد نفوذهم داخل الدولة حتى استطاعوا فى النهاية إسقاط أسرة قلاوون التى سقطت بسقوطهم دولة المماليك الأولى وأسس الجراكسة دولتهم الثانية التى سنشير إليها فى الصفحات التالية .

قيام دولة المماليك الثانية

مدخل :

لما تولى السلطان المنصور قلاوون الحكم فى مصر ، أنشأ فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد معارضيه ومنافسيه من كبار الأمراء وحرص أن تكون هذه الفرقة من عناصر جديدة غير العناصر التى انتمى إليها مماليك عصره مثل الخوارزمية ، والتركمان والأتراك . فأقبل على شراء عنصر الجركس الذين ينتمون إلى بلاد الكرج « جورجيا » وهى البلاد التى تقع بين بحر قزوين والبحر الأسود (٢٣٢)

ويبدو أن اختياره لهذه الفئة دون غيرها ناتج عن رخص سعرها (٢٣٣) من بين عناصر الرقيق الأبيض الأخرى ، وإلا لما استطاع أن يكثر منها حتى بلغت عدتها اثنى عشر ألف مملوك (٢٣٤) بالاضافة إلى النفقة التى كان ينفقها عليهم .

وأسكن هؤلاء المماليك فى أبراج القلعة مما جعل اسم « البرجية » يطلق عليهم نسبة إلى سكنهم فى هذه الأبراج (٢٣٥)

كما أطلق عليهم اسم الجراكسة لكونهم من العنصر الجركسى .

واهتم السلطان قلاوون بتربيتهم العسكرية والدينية حتى صاروا قوة يحسب حسابها ، وازدادت أعداد هذه الطائفة الجديدة وتعهدها ابناء قلاوون وأحفاده بالرعاية حتى ازداد نفوذهم وصاروا يسعون إلى السلطة ، ففى سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م تولى السلطنة حاجى خليفة بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون وهو آخر سلاطين المماليك البحرية (٢٣٦) فعين برقوق أحد أمراء المماليك البرجية أتابكاً له ، فأخذ يعمل على الوصول إلى السلطنة بأن تقرب إلى الأمراء والنواب على الأقاليم حتى وثق بهم وانقضّ على السلطنة ، فكان أول سلاطين المماليك البرجية حيث ارتقى العرش سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م (٢٣٧)

والحقيقة أن عصر دولة المماليك الثانية (البرجية أو الجركسية) يعد امتداداً لعصر دولة المماليك الأولى (البحرية) وإن عانت البلاد فى عهدهم كثيراً نتيجة المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وماكان ينشأ عن تلك المنازعات من حوادث وقتال فى الشوارع مما أوجد جواً من الفتن والثورات وعدم الاستقرار .

وزاد من شدة البلاء أن السلاطين عجزوا فى ذلك العصر عن السيطرة على مماليكهم ، بل اضطروا إلى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض حتى يخلو لهم الجو فيعيثون فى الأرض فساداً [٢٣٨]

ورغم ذلك فقد عمرت دولة المماليك الثانية أكثر من مائة وأربعة وثلاثين سنة (٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ ـ ١٥١٨م)

تعاقب على عرش السلطنة خلالها ثلاثة وعشرون سلطاناً ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات وهم :

برقوق ـ فرج ـ المؤيد شيخ ـ برسباى ـ جقمق ـ إينال ـ خشقدم ـ قايتباى ـ قانصوه الغورى .

وقد حكم الأربعة عشر سلطاناً الآخرون تسع سنوات فحسب [٢٣٩]

وسوف نتحدث فى الصفحات التالية عن أبرز سلاطين هذه الدولة .

السلطان الظاهر برقوق [٢٤٠]
(٧٨٤ـ٨٠١هـ/١٣٨٢ـ١٣٩٩م)

يعد السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين دولة المماليك الثانية ، وقد بدأ عهده بتقريب الأمراء الجراكسة إليه ، وأقطعهم الاقطاعات و أنعم عليهم بالوظائف الكبيرة [٢٤١] مما أثار بقية المماليك الأتراك ؛ وكانت البداية من نائب أبلستين الأمير ألطنبغا السلطانى الذى خرج على برقوق وقال : « لا أكون فى دولة حاكمها جركسى »[٢٤٢] وباءت هذه الثورة بالفشل لأن صاحبها لم يجد العون والتأييد من نواب الشام ففر هارباً إلى بلاد المغول [٢٤٣]

وتآمر أمراء الأتراك فى مصر مع الخليفة العباسى المتوكل على قتل السلطان برقوق إذا نزل من القلعة إلى الميدان للعب بالكرة ؛ واختيار الخليفة سلطانًا للبلاد ووصل نبأ المؤامرة إلى السلطان برقوق فأسرع بالقبض على الخليفة المتوكل والأمراء الذين تآمروا معه وأراد أن يأخذ الفتوى من القضاة الأربعة بقتل الخليفة لكنهم رفضوا فاكتفى بخلعه وسجنه فى أحد أبراج القلعة وولى الخلافة بدلاً منه عمه عمر بن إبراهيم الذى لقب بالواثق [٢٤٤]

لكن الأمور لم تستقر لبرقوق ففى سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩ م قامت ثورة أخرى ضد برقوق فى شمال الشام تزعمها الأميرتَمُرْبُغا الأفضلى الأشرفى نائب ملطية الذى يلقب بمنطاش (٢٤٥) ويلبغا الناصرى نائب حلب (٢٤٦) وجمع كبير من المماليك الأشرفية واليلبغاوية والتركمان والأعراب (٢٤٧)

فارسل لهم برقوق جيشاً تمكن الثائرون من هزيمته ، ودخلوا دمشق فاستولوا عليها ، ثم أعدوا عدتهم للزحف على القاهرة (٢٤٨) وساءت الأمور فى مصر لانتشار مرض الطاعون (٢٤٩) وضعف موقف برقوق ؛ ففر هارباً من القلعة (٢٥٠) واختفى أياماً حتى قبض عليه ونفى إلى الكرك (٢٥١) وقرر الأمراء إعادة السلطان حاجى خليفة حفيد الناصر محمد ابن قلاوون بحجة أن برقوق قد خلعة ظلماً وفسقاً ، واختير يلبغا الناصرى أتابكاً للعسكر (٢٥٢) فاستبد بالأمور دون السلطان (٢٥٣) وتنكر لحليفه منطاش الذى أخذ يدبر المكائد للإيقاع به (٢٥٤) واشتد النزاع بينهما مما أعطى الفرصة لبرقوق كى يسترد سلطانه ومكانته فخرج من الكرك محاطاً بأعوانه وأنصاره (٢٥٥) واتجه إلى دمشق واستطاع هزيمة اعدائه (٢٥٦) ثم زحف على القاهرة فدخلها فى الرابع عشر من صفر سنة ٧٩٢هـ فاستقبله أهلها استقبالاً كبيراً ورفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال له (٢٥٧)

قضى برقوق السنتين التاليتين فى اخضاع منطاش بالشام ؛ ولم يكد يفرغ من ذلك حتى دهمه خطر جديد (٢٥٨) هو تيمورلنك (٢٥٩) والمغول .

ففى سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م استولى تيمورلنك على بغداد وفر صاحبها أحمد بن أويس (٢٦٠) ولجأ إلى القاهرة فى العام التالى طالباً عون المماليك لاسترداد ملكه (٢٦١) ووصلت رسل صاحب ماردين الملك الظاهر مجد الدين عيسى يستغيثون بالمماليك من عدوان تيمورلنك (٢٦٢)

فأخذ برقوق بعد العدة لملاقاة المغول (٢٦٣) ويبدو أن المغول علموا باستعداد المماليك لملاقاتهم فأرادوا تخويفهم وارهابهم ؛ فأرسل تيمورلنك رسالة إلى السلطان برقوق والمماليك يطلب فيها منهم التسليم والامتثال لأمر المغول (٢٦٤)

لم يفزع برقوق من خطاب تيمور ؛ بل أرسل له رسالة بنفس أسلوبه وقد تضمنت الوعيد والتهديد أيضاً ؛ وختمها بقوله « وصل الكتاب كصرير باب أو كطنين ذباب وسنكتب

ما يقول :« ونمد له من العذاب مداً »ونريه ما نقول إن شاء الله ، لقد لبكتم فى الذى أرسلتم والسلام » (٢٦٥)

وشد من عون برقوق الحلف الذى عقده بين القوى التى أحست بخطر تيمورلنا ، فى الشرق الأدنى مثل طقتمش خان صاحب بلاد القفجاق (٢٦٦) والقاضى برهان الدين أحمد صاحب سيواس ، والسلطان العثمانى بايزيد الذى أرسل كتاباً للسلطان يقول فيه إنه جهز لنصرة السلطان مائتى ألف فارس (٢٦٧)

وفى سنة ٧٩٧هـ /١٣٩٥م خرج برقوق لملاقاة المغول وإعادة أحمد بن أويس صاحب بغداد إلى بلاده ، ولكنه فوجىء بعودة تيمور لنك إلى بلاده ؛ فعاد هو الآخر إلى القاهره(٢٦٨) حيث توفى سنة ٨٠١هـ /١٣٩٩م (٢٦٩) بعد أن حكم البلاد ست عشرة سنة ، وأربعة أشهر وسبعة وعشرين يوماً خلال فترتى سلطنته واتسعت الدولةفى عهده وخطب باسمه فى أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها مثل تبريز والموصل وماردين وسنجار وبغداد وضربت السكه باسمه فى هذه الأماكن ، ولما توفى بايع الخليفة والقضاة الأربعة ابنه فرج ابن برقوق ولم يكن عمره يزيد على ثلاث عشرة سنة (٢٧٠)

السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق :
(٨٠١-٨١٥هـ/١٣٩٩-١٤١٢م)

تولى السلطان فرج الحكم خلفاً لأبيه ، وتولى أتابكية العسكر الأمير أيتمش البيجاسى وصاحب عملية نقل السلطة الهزة المعتادة فى مثل هذه الظروف من قبض واعتقال ، وقتل ، وخنق ؛ وعزل لبعض أمراء المماليك من ناحية ؛ وإفراج وترقية وتولية لبعض الأمراء من ناحية أخرى (٢٧١)

كما بدأت المؤامرات والفتن حول السلطنه نظراً لصغر سن السلطان ففى سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م طلب الملك الناصر فرج من الامراء والقضاه أن يعلنوا بلوغه سن الرشد فأقروا له بذلك ، وكان المحرض على ذلك الأمير يشبك الخازندار فغضب الأمير أيتمش البيجاسى لهذا القرار الذى يحد من سلطانه فأعلن عدم موافقته عليه ، مما أدى إلى اشتعال المعارك بين يشبك الخازندار وأنصاره وبين أيتمش وأنصاره من ناحية أخرى ، وهزم الأمير أيتمش ومن معه ففروا هاربين إلى بلاد الشام (٢٧٢) فخرج الأمير

تنم لاستقبالهم وبالغ فى إكرامهم [٢٧٣] واستقر رأيهم على خلع السلطان فرج وزحفوا بجيوشهم على مصر ولما علم السلطان بخبرهم أسرع بإعداد جيشه لمقابلتهم ، وفى الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١ م التقى الجيشان عند الجينين بين نابلس وبيسان ، فكان النصر لجيوش السلطان وانهزم تنم ومن معه من الأمراء وقبض عليه وقتل[٢٧٤]

ويبدو أن تيمورلنك علم بالاضطرابات والقلاقل التى كانت تدور داخل الدولة المملوكية ، فوجد أن الفرصة مواتية للانقضاض عليها ؛ فعاود زحفه على بلاد الشام حيث وصلت جيوشه إلى حلب واستولى على المدينة عنوة ، ونكل بأهلها تنكيلاً شديداً وتركها متجها نحو حماه ففعل بأهلها مثل الذى فعله بأهل حلب [٢٧٥]

ولما وصلت أنباء الغزو المغولى إلى مصر خرج السلطان فرج بجيشه لملاقاتهم ، ووصل إلى دمشق حيث دارت بين الفريقين عدة معارك محدودة ثم طلب تيمور لنك عقد معاهدة صلح بينه وبين المماليك [٢٧٦] وأثناء ذلك نشبت الفتنه بين كبار الأمراء الذين تركوا المعركة وساروا إلى مصر لإقامة سلطان آخرغير السلطان فرج ؛ فلما سمع فرج بالنبأ أسرع نحو القاهرة تاركاً جيشه وبلاد الشام كلها تحت سيطرة تيمورلنك [٢٧٧]

فأسرع بدخول مدينة دمشق ونهبها هو وجنوده ثم أشعلوا فيها النيران كما دمروا معظم الأطراف الشمالية لبلاد الشام [٢٧٨]

وهكذا كان الصراع الدائم بين أمراء المماليك سبب نكبة المسلمين وسقوطهم فى أيدى أعدائهم لقمه سائغة .

أما السلطان الذى هرب من المعركة وترك الجهاد ضد الأعداء فسرعان ما سقط هو الآخر سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م وقتل [٢٧٩]على يد المشاعلية [٢٨٠] بعد أن أفتى العلماء والقضاة بقتله [٢٨١]، وعقب مقتل السلطان الناصر فرج لم يتفق الأمراء على من سيتولى الأمر بعده نظراً للتنافس الشديد بين الأميرين شيخ المحمودى ، ونوروز الحافظى على تولى منصب السلطنة ؛ لذا فقد لجأوا للخروج من هذا المأزق إلى حل يعد الأول من نوعه وهو تولية الخليفة العباسى المستعين بالله السلطنة الاسمية على أن يكون الحل والعقد فى مصر للأمير شيخ المحمودى وفى الشام من غزة حتى الفرات للأمير نوروز الحافظى [٢٨٢]

ولما تأكد الأمير شيخ من استقرار الأمور بين يديه قرر عزل الخليفة من السلطنه فجمع القضاة الأربعة والأمراء ؛ وقام كاتب السر فى وسط المجلس وقال : « ياسادة القضاة ؛ ومشايخ الإسلام إن أحوال الديار المصرية قد فسدت و تغيرت و عم الفساد براً وبحراً وزاد طغيان العربان فى البلاد ونهبوا الغلال وإن الأحوال مضطربة ، والوقت محتاج لإقامة سلطان من الأتراك له سطوة تقمع العربان وغيرهم ؛ وإن العساكر وأرباب الدولة ؛ وقع رأيهم على سلطنة الأتابكى شيخ » (٢٨٣) وهكذا عزل الخليفة العباسى من السلطنة وعاد إلى موقعه الأول ؛ (٢٨٤) وبويع بالسلطنة الأمير شيخ المحمودى الظاهرى ؛ ولقب بالسلطان الملك المؤيد أبو النصر .

السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى :

(٨١٥ـ٨٢٤هـ/١٤١٢ـ١٤٢١م)

عندما تولى السلطان المؤيد شيخ الأمور فى البلاد وجد أنه لابد من القضاء على نفوذ الأمير نوروز الحافظى الذى أعلن التمرد والعصيان ؛ وظل يخطب على منابر الشام باسم الخليفة العباسى ورفض الاعتراف بسلطنة المؤيد شيخ الذى زحف على رأس جيشه إلى بلاد الشام واستطاع القضاء على فتن نوروز وأعوانه (٢٨٥)

لم تكد الأمور تهدأ للسلطان حتى هبت الإمارات التركمانية الواقعة على الأطراف الشمالية لدوله المماليك وأعلنت الخروج عن طاعة المماليك مما اضطر المؤيد شيخ إلى الخروج لاخضاعهم مرتين كانت الأولى سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م والثانية سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م لكنهم عادوا إلى التمرد والعصيان سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م فأرسل ابنه إبراهيم الذى تمكن من اخضاع المتمردين ودخل إلى مدينة قونية وخطب باسم أبيه وضرب السكة باسمه أيضا وولى الأمير علياك بن قرمان بدلاً من أخية محمد الذى تمرد على السلطان (٢٨٦)

وقد استطاع المؤيد شيخ السيطرة على أمور دولته وقطع دابر الفتن خلال السنوات الثمانى التى تسلطن فيها حتى توفى سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م فخلفةابنه الملك المظفر أحمد وكان طفلاً رضيعاً لايتجاوز عمره سنه وثمانية أشهر فوضع تحت وصاية الأمير ططر الذى تولى الأتابكية وأخذ يدبر شئون المملكة (٢٨٧) وازداد نفوذه وسلطانه(٢٨٨) مما دفع أمراء

الشام إلى التمرد والعصيان فخرج لهم ططر وحاربهم وانتصر عليهم (٢٨٩) فقويت شوكته ورأى أن يخلع السلطان الطفل وينادى بنفسه سلطانا (٢٩٠) لكنه لم ينعم بالحكم طويلا إذ مات بعد أربعة وتسعين يوما (٢٩١) فخلفه ابنه محمد بن ططر وكان في الحادية عشرة من عمره ؛ وتولى أتابكية العسكر الأمير جانى بك الصدفى (٢٩٢) فلم يرض عن ذلك الأمير برسباى الدقماقى الداودار الذى بآدر بالقبض على الأمير جانى بك واستبد بالأمور وبتدبير المملكة ، (٢٩٣) حتى قرر عزل السلطان محمد بن ططر بعد ثلاثة أشهر وأيام لم يكن له فيها من السلطنة إلا الاسم فقط (٢٩٤) وتولى برسباى السلطنة ولقب بالملك الأشرف (٢٩٥)

وهكذا أدت الفتن والمؤامرات التى انتشرت داخل الدولة إلى عدم الاستقرار وتعدد السلاطين وخلعهم بعد أيام قلائل ، وقد فطن إلى ذلك المؤرخ ابن تغرى بردى حين عرض للسلاطين الذين تولوا عقب وفاة السلطان المؤيد شيخ فيقول : « سنة ٨٢٤هـ السنة التي حكم فيها أربعة سلاطين » (٢٩٦)

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى كانت تمر بها الدولة المملوكية الثانية آنذاك .

السلطان الملك الأشرف برسباى :

(٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٧م)

حكم برسباى دولة المماليك مدة تزيد عن ستة عشر عاماً امتازت بالهدوء والاستقرار وقلة الاضطرابات وإن عانى الناس فى عهده من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع الأسعار بسبب سياسته الاحتكارية ،(٢٩٧) وقد تمكن برسباى من القيام بعمل حربى كبير شهد له به معاصروه وهوفتح جزيرة قبرص ؛ وإدخالهافى نطاق التبعية لسلطنه المماليك فى مصر لأن القبارصة كانوا قد اتخذوا من جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانى الإسلامية فى شرق البحر المتوسط ؛ وهددوا تجارة المسلمين ، ولم تنقطع غاراتهم على شواطىء البلاد فى الاسكندرية ودمياط (٢٩٨)

أرسل برسباى ثلاث حملات لغزو قبرص ، كانت الأولى سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٤م (٢٩٩) وكانت حملة صغيرةاستكشافية لكنها استطاعت ضرب القبارصةوعادت بعد أن غنم المسلمون غنائم كثيرة (٣٠٠)

وقد شجع برسباى النجاح الذى حققته الحملة الأولى فأرسل حملة ثانية فى العام التالى [٣٠١] تمكن أفرادها من محاصرة القبارصة براً وبحراً حتى نجحوا فى هزيمتهم وأخذوا يقتلون ويأسرون ويحرقون وينهبون القرى حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى وامتلأت أيديهم بالغنائم [٣٠٢]

على أن السلطان برسباى لم يكن هدفه من الحملتين هو السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم ، وإنما كان يود أن تعود جيوشه بعد اخضاع الجزيرة نهائياً للسيادة المملوكية [٣٠٣] لذا قرر إرسال حملة ثالثة للسيطرة على الجزيرة القبرصية .

وقد خرجت هذه الحملة من مصر سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م [٣٠٤] متجهة نحو الجزيرة القبرصية حتى وصلت ميناء ليماسول الذى بدأ المسلمون بمهاجمته والاستيلاء عليه وبعد أن مكثوا ستة أيام فى ليماسول قرروا الزحف إلى داخل الجزيرة للاستيلاء على عاصمتها وتأديب ملكها جانوس الذى خرج بجيوشه لملاقاة المسلمين ، فدارت المعركة الفاصلة بين الطرفين عند خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من ليماسول ، وفيها حلت الهزيمة ساحقة بالقبارصة ووقع ملكهم أسيراً فى أيدى القوات المملوكية التى زحفت بعد ذلك على العاصمة نيقوسيا فسيطروا عليها ثم غادروها بعد أن أشعلوا النار فى أرجائها ، وعادوا إلى مصر[٣٠٥] وبصحبتهم ملك الجزيرة الذى ظل أسيراً حتى سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٧ م عندما أفرج عنه السلطان برسباى بعد دفع فدية كبيرة والتعهد بالاعتراف بالسيادة المملوكية على الجزيرة[٣٠٦]

وفى سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م توفى السلطان الأشرف برسباى بعد أن حكم البلاد ستة عشر عاماً وثمانية أشهر وخمسة أيام فكثر عليه الحزن والأسف من الناس بمصر لأن البلاد كانت هادئة فى أيامه وخلت من الفتن والحروب [٣٠٧] .

وتولى بعد برسباى عرش السلطنة فى مصر ابنه الملك العزيز يوسف وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، وتولى أتابكية العسكر الأمير جقمق العلائى [٣٠٨] الذى سرعان ما انقض على العرش فى سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٩م فاستدعى الخليفة والقضاة الأربعة وطلب منهم خلع

السلطان العزيز يوسف لأنه لا يحسن التصرف فخلعه الخليفة بعد ثلاثة أشهر وخمسة أيام وفوض السلطنة للأمير جقمق العلائي الذي تلقب بالملك الظاهر أبي سعيد (٣٠٩)

السلطان الملك الظاهر جقمق (٣١٠)

(٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٩-١٤٥٣م)

ما أن تولى الظاهر جقمق عرش السلطنة حتى توالت عليه المحن والشدائد وقد وصف ابن إياس ذلك بقوله « اضطربت الأحوال على الملك الظاهر في أوائل سلطنته من كل جانب» (٣١١)

ففي بداية أمره علم أن الأمير قرقماس الشعباني الأتابكي دبّر أن يقبض عليه أثناء لعبهما معاً الكرة ، فاحتاط السلطان لنفسه ، فشلت خطة قرقماس ودار صراع بين الرجلين انتهى بالقبض على قرقماس وسجنه ثم إعدامه (٣١٢)

ولما انتهت فتنة الأتابكي قرقماس في مصر فوجيء السلطان بفتنة أخرى في بلاد الشام فقد أعلن الأمير اينال الجكمي خروجه عن طاعه جقمق ومنع اسمه من الخطبة على منابر دمشق وخطب باسم العزيز يوسف بن برسباى (٣١٣) وازدادت الأمور سوءاً بفرار السلطان المخلوع العزيز يوسف من سجنه بالقلعة واختفائه لدى بعض أنصاره (٣١٤) .

لكن السلطان استطاع أن يتغلب على هذه الفتن بأن أرسل جيشاً إلى الشام تمكن من هزيمة الخارجين عليه وقبض على بعضهم وقطع رؤوس البعض الآخر ومنهم إينال الجكمي نائب الشام وزعيم المتآمرين ، ثم ألقى القبض على العزيز يوسف وأمر بإيداعه سجن الاسكندرية(٣١٥) .

ويبدو أن كثرة الفتن والمنازعات الداخلية التي تعرض لها جقمق جعلته يفكر في عمل كبير يشغل به أمراء المماليك عن المؤامرات والفتن ويوجه طاقتهم نحو الغزو والجهاد ففكر في غزو جزيرة رودس للقضاء على فرسان الاسبتارية الذين اتخذوا هذه الجزيرة قاعدة لهم للإغارة على الشواطيء المصرية بعد أن سقطت أرمينيا الصغرى وقبرص (٣١٦)

وفي سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤١م أعد السلطان جقمق أسطولاً بحرياً يتكون من خمس عشرة سفينة من النوع المعروف باسم الغراب (٣١٧) وشحنها بالمقاتلين (٣١٨) وقدّم عليهم

الأمير تغرى برمش الزردكاش [٣١٩] ولم تستطع هذه الحملة أن تفعل شيئاً لأن أخبار الحملة تسربت إلى أهل رودس الذين كانوا فى انتظارها وأوقعوا بها خسائر كبيرة [٣٢٠]

ولم يفت هذا فى عضد السلطان الذى صمم على تأديب فرسان الاسبتارية فى رودس فأرسل حملة أخرى سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣م بقيادة الأمير إينال العلائى المؤيدى فاتجهت إلى سواحل الشام حيث انضمت إليها بعض القوات الشامية ثم توجه الأسطول المملوكى إلى جزيرة قبرص فأخذ ما يحتاجه من ميناء ليماسول واتجه إلى رودس ودارت معركة كبيرة قتل فيها عدد من الجند المملوكى وجرح آخرون فاضطر الأسطول للعودة إلى مصر [٣٢١]

لم ييأس السلطان جقمق لفشل الحملتين السابقتين فأعد حملته الثالثة فى سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م وكانت أكبر من الحملتين السابقتين وأوفر منها عدة وعتاداً وجعل الإمارة على القوات البرية للأمير إينال العلائى وإمرة البحر للأمير تمربياى رأس نوبة النوب [٣٢٢] فاتجهت صوب مدينة رودس وحاصرتها نحواً من أربعين يوماً أبدى فيها المماليك شجاعة نادرة [٣٢٣] لكنهم عجزوا عن القتال بسبب شدة مقاومة الاستبارية الذين خبروا أساليب المسلمين فى القتال أثناء وجودهم ببلاد الشام ، مما دعا قائدا الحملة إلى إصدار أمرهما بالانسحاب والعودة إلى مصر حرصاً على سلامة قواتهما ، ولم يلبث أن تم الصلح بين الاسبتارية والسلطان جقمق فى مصر بعد أن تعهد الاسبتارية بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية [٣٢٤]

ويبدو أن هزيمة الجيش المملوكى فى حملة رودس جعلت السلطان جقمق يستجيب لطلب شاه رخ بن تيمورلنك صاحب فارس وبلاد ما وراء النهر الذى يطلب فيه تحقيق رغبته فى كسوة الكعبة ، وهى الرغبة التى رفضها الأشرف برسباى أكثر من مرة ، وإن اشترط عليه أن تكون كسوة شاه رخ من الداخل أى تحت كسوة السلطان ، ولعله باستجابته لهذا المطلب أراد أن يجنب البلاد حرباً جديدة ، وإن عاب عليه المؤرخون قبول هذا المطلب وقالوا عنه « ذلك من عجز السلطان » [٣٢٥]

كما عظم ذلك على أمراء الدولة والمصريين الذين غضبوا وثاروا على رسل شاه رخ مما اضطر السلطان إلى التصدى لهم والأمر بضربهم [٣٢٦]

وقد استمر الظاهر جقمق يحكم البلاد مدة أربع عشرة سنة وعشرة أشهر حتى توفى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م [٣٢٧] بعد أن سعى لأن يتولى ابنه المنصور أبو السعادات عثمان السلطنة وله من العمر تسع عشرة سنة ، وتولى أتابكية العسكر الأمير إينال العلائى[٣٢٨] الذى قام بخلعه عن السلطنة بعد ثلاثة وأربعين يوماً وتولى هوأمور السلطنة [٣٢٩] وعين ابنه أحمد أتابكاً للعسكر [٣٣٠] ، ويبدو أنه أراد بذلك استقرار ملكه لأن أتابك العسكر كان دائماً ما يثير القلاقل للسلطان وقد ينجح فى عزله أو قتله حتى يأخذ العرش مكانه .

وقد استمر آلسلطان إينال العلائى يحكم البلاد ثمانى سنوات وشهرين حتى توفى سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م فتسلطن من بعده ابنه الأتابكى أحمد الذى لقب بالملك المؤيد [٣٣١] وتولى الأمير خشقدم الناصرى الأتابكية [٣٣٢] إلا أن أمراء المماليك قرروا خلع الملك المؤيد أحمد بعد أربعة أشهر وتولية الأمير خشقدم السلطنة ، الذى لقب بالملك الظاهر[٣٣٣] .

استمر السلطان الملك الظاهر خشقدم يحكم البلاد لمدة ست سنوات حتى توفى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م وقد امتاز عهده بالهدوء والاطمئنان وإن كان قد أكثر من شراء المماليك حتى صاروا أكثر من ثلاثة آلاف مملوك تسببوا فى الإيذاء والضرر للناس كما يقول ابن إياس [٣٣٤]

فلما مات خشقدم بويع أتابك العسكر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى وتولى أتابكية العسكر الأمير تمر بغا الظاهرى [٣٣٥] الذى قام بخلع السلطان بلباى بعد شهرين وتولى مكانه ولقب بالملك الظاهر أبى سعيد [٣٣٦] لكن ملكه لم يدم بدوره أكثر من شهرين إذ لم يستطع إرضاء المماليك الخشقدمية وقائدهم خايربك الذى قبض عليه ليلاً ، وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد [٣٣٧] لكن الأتابكى قايتباى أسرع إلى القلعة واستطاع السيطرة على الأمور وقبض على خايربك الذى لم يمكث فى السلطنة سوى ليلة واحدة حتى أطلق عليه العامة « سلطان ليلة » [٣٣٨] وفى الصباح بايع الخليفة والقضاة الأربعة قايتباى بالسلطنة وتلقب بالسلطان الملك الأشرف قايتباى [٣٣٩].

والحقيقة أنه منذ وفاه الظاهر جقمق سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م تعاقب على عرش السلطنة فى مصر عدد من السلاطين لم يكن لهم دور يذكر ولذا آثرنا الحديث عنهم بإيجاز

شديد ، أما السلطان الأشرف قايتباى فيستحق أن نفرد له الصفحات التالية .

السلطان الأشرف قايتباى

(٨٧٣ـ٩٠١هـ/١٤٦٨ـ١٤٩٦م)

أمتد حكم السلطان قاتيباى ما يقرب من الثلاثين عاما ، وهى أطول فترة حكم فيها سلطان من سلاطين الجراكسة ، وكان لحسن سياسته وعظيم تدبيره أكبر الأثر فى استقـرار الأمـور فى البلاد .

وقد استطاع قاتيباى أن يعيد للدولة هيبتها ومكانتها فى الداخل والخارج وأن يلقن الخارجين عليها دروساً قاسية .

فقد واجة قايتباى بمجرد جلوسة على عرش مصر فتنه شنها الأميرشاه سوار أمير نولقادرالذى كان يتمتع بتأييد العثمانيين والذى أعلن استقلاله وضرب السكة باسمه وشرع يهاجم أطراف الدولة المملوكية والحقيقة أن قايتباى رفض أن يهادن هذا الرجل ؛ بل بادر بإرسال عدة حملات ضده وقد نجحت الحملة الاخيرة التى أرسلها قايتباى سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١م فى إنزال الهزيمة بشاه سوار والقبض عليه وإرساله إلى القاهرة حيث شنق على باب زويلة [٣٤٠]

أما فى الداخل فقد انتهز الأعراب فرصة الحرب مع شاه سوار وأعلنوا الثورة على الدولة فى الوجهين البحرى والقبلى ، ولم تكن ثورات الأعراب فى عهد قايتباى حديثة عهد على المماليك إذ أن جذورها تمتد إلى أوائل عهد دولة المماليك الأولى (البحرية) عندما حاولوا هدم الدولة من أساسها وظلوا طوال حكمها وحكم دولة المماليك الثانية (الجراكسة) يتحينون الفرص للتخلص من المماليك الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم أقل منهم بأعتبار أن المماليك قدمسّهم الرق أما العرب فإنهم أصحاب البلاد الأحرار [٣٤١]

ففى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م استغل الأعراب انشغال السلطان بتجهيز الحملة الأولى لتأديب شاه سوار أمير نولقادر وخرجوا عن طاعة السلطان فأرسل لهم الأمير أزبك أتابك السلطنه سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م لتأديبهم [٣٤٢] كما أرسل الأمير يشبك الداودار [٣٤٣] إلى أعراب الوجه القبلى فبدد شملهم وأخرب عدة قرى من شرق بلاد الصعيد ثم عاد إلى القاهرة بصحبة نسائهم وأولادهم [٣٤٤] ويبدو أنه أراد باصطحابهم منع الأعراب من الثورة مرة أخرى أو توجيه

الأذى والإهانة إليهم باصطحابه نسائهم مما دفع هؤلاء الأعراب إلى الثورة مرة أخرى ومهاجمة مراكب الغلال ونهبها وإحراقها مما دفع المؤرخ الصيرفى إلى القول بأنه « كان من المفاسد حضور هذه النسوة إلى القاهرة » (٣٤٥)

واستمرت ثورات العربان حتى سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦م حيث أخذ قايتباى يطاردهم حتى تمكن من إيقافهم ومنع شرورهم (٣٤٦)

أما عن أحوال مصر فى أواخر عهد السلطان قايتباى فقد تميزت بكثرة جمع الضرائب والاموال بالإضافة إلى تفشى وباء الطاعون الذى فتك بالناس فتكاً ذريعاً وهلك منه المماليك والعبيد والجوارى والأطفال والغرباء ، وفيه توفيت زوجة السلطان وابنته ، وترتب على هذه الوباء القحط الشديد وندرة القوت وغلاء الأسعار (٣٤٧)

وفى وسط تلك الظروف القاسية اشتد المرض بالسلطان قايتباى وتقدم به السن حتى جاوز الثمانين من عمره فتنازل عن العرش لابنه محمد ثم توفى بعد ذلك فى اليوم التالى مباشرة سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٦م (٣٤٨)

وقد تعاقب على عرش السلطنة فى مصر بعد السلطان قايتباى خمسة سلاطين حكموا مدداً قصيرة مما يدل على حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فقد تولى ابنه محمد السلطنه لمدة عام ، وفى سنة ٩٠٢ هـ /١٤٩٧م خلعه الأتابكى قانصوه خمسمائه وتولى عرش السلطنة مكانه وتلقب بالسلطان الأشرف ، لكنه لم يمكث سوى ثلاثة أيام ثم عاد محمد بن قايتباى مرة أخرى ومكث فى السلطنة مدة عام آخر ثم قتل على يد المماليك وتولى مكانه السلطان الظاهر قنصوه الأشرفى الذى خلع من السلطنة سنة ٩٠٥هـ / ١٥٠٠م على يد الأتابكى جان بلاط الذى بويع بالسلطنة وتلقب بالأشرف أبو النصر ، لكنه لم يمكث فى السلطنة سوى ستة أشهر وعدة أيام حتى عزل على يد طومان باى الذى تولى السلطنة ولقب بالعادل طومان باى و لم يمكث هو الآخر سوى ثلاثة أشهر وثار عليه المماليك ففر هارباً واختفى عن الأنظار ثم قتل .

وهكذا صار منصب السلطنة مهتزاً لا يثبت عليه أحد ، ومن اعتلاه قتل أوسجن أو خنق ، مما جعل كبار الأمراء لا يرغبون فى تولى هذا المنصب (٣٤٩)

والدليل على ذلك أن السلطان الغورى الذى تولى سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠١م (٣٥٠) امتنع فى بداية

الأمر عن قبول المنصب رغم أنه كان أقوى الأمراء ويقول ابن إياس إن الامراء « قالوا مانسلطن إلا هذا فسحبوه وأجلسوه ، وهو يمتنع من ذلك ويبكى » (٢٠١)

السلطان الأشرف قانصوه الغورى

(٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م)

ما أن اعتلى السلطان الغورى كرسى السلطنة حتى عمل على إعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد ، ثم اتجه إلى علاج الأزمة الاقتصادية إلا أنه يؤخذ عليه جمع المال بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة فجمع ضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض الضرائب على الأراضى والحوانيت والعقارات ، بل تلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس (٢٠٢) والرسوم الجمركية مما أنزل بالتجارة أضراراً بالغة ، وضاق التجار الأوربيون بتعنت حكام مصر وفقدوا صبرهم عندما وجدوا أسعار السلع الشرقية من عطور وتوابل وبخور ومنسوجات تتضاعف كل سنة (٢٠٣) .

وكان من سوء حظ السلطان « قانصوه الغورى » أن استطاع الرحالة البرتغالى «فاسكو دا جاما » Vasco Da Gama اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى السنة السابقة على صعود الغورى إلى العرش ، فقد أبحر هذا الرحالة فى المحيط الأطلسى والتف حول إفريقيا ووصل إلى المحيط الهندى ومنه إلى دول الشرق الأقصى حيث استطاع أن يحصل على ميناء هندى للبرتغاليين هو ميناء « كلكتا » Calcuta (٢٠٤)

وبعد عامين من تولية الغورى للسلطنة عاد « فاسكوداجاما » من رحلته الثانية إلى الهند فوصل الى لشبونة عاصمة بلاده ، وعلى ظهر سفنه حمولة ضخمة من البهار لاتقل عن خمسة آلاف قنطار ، باعها بسعر القنطار عشرين ديناراً فقط بينما كان القنطار يباع بمائه وخمسين ديناراً فى الاسكندرية (٢٠٥) .

وكان اكتشاف هذا الطريق وتحول التجارة إليه أخطر ضربة وجهت للاقتصاد المصرى فى عصر المماليك فقد كانت مصر تقوم بدور الوسيط بين الشرق والغرب فى التجارة الدولية حتى غدا بعض التجار المصريين أصحاب فروع تجارية بالحبشة والسودان واليمن والهند ، وأدرك سلاطين المماليك أهمية هذه التجارة ففرضوا الضرائب الجمركية على الصادرات والواردات ، بل

إن بعضهم كانوا ينقلون بعض السلع الشرقية إلى مخازنهم ويحتكرون لأنفسهم حق بيعها لتجار أوربا بأضعاف ثمنها (٢٥٦) وصرفوا من حصيلة هذه الضرائب على عمائرهم وقصورهم وحروبهم .

وهكذا فقد المماليك بسبب هذا الطريق أعظم مواردهم المالية السهلة فصارت الأحوال تدريجيا من رخاء إلى ضيق وعسر شديد

وحاول السلطان الغورى القضاء على وجود البرتغاليين فى المحيط الهندى بالطرق الدبلوماسية فقرر إرسال بعثة برئاسة الأسقف « ماوروس دى سان برناديتو Maurus Di San Bernadino رئيس دير جبل صهيون ببيت المقدس ومعه راهبان إلى ملوك وأمراء أوربا وبابا روما للوقوف على الأحوال السياسية بصفة عامة وحث البابا والملوك على اقناع البرتغاليين بوقف أعمالهم العدوانيه ضد مصالح السلطان فى الشرق لكنه لم يجد آذاناً صاغية (٢٥٧) وشرع البرتغاليون يمدون سيطرتهم على سواحل الهند الشرقية ويحاولون إغلاق مداخل الخليج العربى والبحر الأحمر أمام التجارة المملوكية فلجأ الغورى إلى تحصين ثغور البحر الأحمر وإعداد أسطول قوى لمجابهة البحرية البرتغالية ، ونزل هذا الأسطول إلى ميناء الطور بقيادة الأمير حسين الكردى بعد أن زود بالأسلحة والعتاد ، وكان السلطان الغورى قد تحالف مع أمراء الهند وبخاصة أمراء جوجيرات لوضع حد للنفوذ البرتغالى فى مياه الهند وتجمعت وحدات الأسطول المملوكى المكون من خمسين سفينة فى جده ثم واصل السير إلى سورات فى مقاطعة جوجيرات حيث انضمت إليه السفن البحرية الهندية ، وفاجأ أسطول البرتغاليين وأوقعابه الهزيمة عند شول Chaul وقتل القائد البرتغالى فى المعركة (٢٥٨) .

ولدى وصول أنباء هذا النصر إلى السلطان الغورى فى سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م سرّ سروراً كبيراً وأمر بدق الكوسات لمدة ثلاثة أيام متوالية وأمر بتجهيز ستة مراكب أعزبة كمدد للإسطول المملوكى (٢٥٩)

ومع نجاح العمليات الحربية المملوكية فى مياه الهند إلا أن سفنهم التجارية لم تعد تمارس نشاطها السابق لتجمع سفن الأسطول البرتغالى عند مدخل البحر الأحمر فى الهند وترصدها للسفن المملوكية ، وفى الوقت نفسه أحجم التجار الأجانب عن الوصول لمصر والشام بعد هزيمة

وازدادت الأمور شدة على الغورى حين انتهز البرتغاليون فرصة لجوء الأسطول المملوكى والأسطول المتحالف معه من أمراء الهند إلى جزيرة «ديو» للتموين والإصلاح فهاجموه وأوقعوا به الهزيمة فى معركة رهيبة سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م دمرت فيها معظم السفن المملوكية والهندية وانسحب الأمير حسين الكردى بعد ذلك إلى جدة (٣٦١) وعلى الرغم من ذلك فإن الغورى ظل يصرف كثيراً من الأموال على بلاطه وفخامته ولم يقلع عن هذا الأسلوب حتى فى أحلك الظروف الاقتصادية مما أدى إلى اهتزاز مكانة الدولة المملوكية فى العالم الإسلامى بعد أن كانت صاحبة المكانة الأولى فى الشرق الإسلامى وصاحبة السيادة والنفوذ على كثير من بلدانه حتى سقطت على يد العثمانيين .

الهـوامش

١- د. مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٥٠ .

٢- المعجم الوسيط ج ٢ مادة « ملك » ص ٨٨٦ .

٣- ابن منظور : لسان العرب ج ٦ ص ٤٢٦٧ .

٤- المصدر السابق .

٥- المصدر السابق .

٦- ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الإسلام ص ٧٨ .

ترجمة مكى طاهر ط ١ ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع .

٧- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٦ / ٢٢ ط ١ ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، بيروت - دار الكتب العلمية .

٨- المصدر السابق .

٩- د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص١ ط٢ ١٩٧٦ م دار النهضة العربية - القاهرة

١٠- البلوى : سيرة أحمد بن طولون ٥٢ مكتبة الثقافة الدينية بدون تاريخ - المقريزى : الخطط ١ / ٩٤ دار صادر بيروت - بدون تاريخ .

١١- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٦ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

١٢- المقريزى : اتعاظ الحنفا ١ / ٢٥٦ القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م فيليب حتى : تاريخ العرب ٧٠٧ - ٧٠٩ ط٤ بيروت ١٩٧٤ .

١٣- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥ / ١٨ - ١٩ .

١٤- المقريزى : الخطط ١ / ٩٤ .

١٥- حسين كفافى : محمد على ٢٤ .

١٦- المرجع السابق .

١٧- المرجع السابق

١٨- د. عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ١ / ١٤ - الطبعة الثانية ١٩٧٩ م مكتبة الأنجلو المصرية .

١٩- المقريزى : الخطط ٢ / ٣٠٩ .

٢٠- حسين كفافى : محمد على ٣٦ .

٢١- المرجع السابق .

٢٢- انطوان ضومط : الدولة المملوكية ص ٣٥ .

٢٣- المقريزى : الخطط ٢ / ٣٠٩ .

٢٤- د. عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ١ / ١٨ .

٢٥- د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٦ .

٢٦- المرجع السابق : ص ١٨ .

٢٧- المرجع السابق .

٢٨- د. عبد المنعم ماجد : نظم سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ص ١٤ .

٢٩- د. أنطوان خومط : الدولة المملوكية .

٣٠- المرجع السابق ١١ .

٣١- ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الإسلام ٨٠ ـ ٨١ .

٣٢- لما توفى الملك الكامل الأيوبى فى دمشق سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م كان ابنه العادل الثانى نائباً على مصر فاتفق الأمراء على تولية العادل أبى بكر ليكون سلطاناً على مصر ، وكان عمر العادل لا يتجاوز الثمانية عشر عاماً فى الوقت الذى كان فيه أخوه الصالح نجم الدين أيوب يكبره فى العمر فلما وصل إليه النبأ لم يرض به وسعى لأن يكون هو السلطان وتعرض لشدائد عدة حتى تمكن من دخول مصر بمساعدة المماليك فى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ويذكر ابن خلكان أنه شاهد موكبه بنفسه أثناء وجوده بالقاهرة فى الساعة الثانية من ظهر يوم الأحد ٢٧ من ذى القعدة سنة ٦٣٧ هـ ، ولما دخل الصالح إلى مصر خلع أخاه العادل واعتقله ، وحمل بقية الأمراء وقادة الجند على مبايعته سلطاناً للبلاد .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٨٤ ـ ٨٥ ـ بيبرس المنصورى : مختار الأخبار ص ٦ تحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان ـ ط ١ ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م الدار المصرية اللبنانية ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ٥ / ٢٦٢ ـ ٢٦٥ ـ ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م) .

٣٣- د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٥ .

٣٤- د. سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٩٦ .

٣٥- ابن واصل : مفرج الكروب ٥ / ٢٧٥ .

٣٦- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٤٠ ـ ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .

٣٧- يقول المقريزى : إن الصالح نجم الدين أيوب هو الذى أطلق عليهم اسم « البحرية » لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل (المصدر السابق) .

٣٨- د. انطوان خليل : الدولة المملوكية ٨٧ ـ ٨٩ .
الطبعة الأولى ١٩٨٠ ـ دار الحداثة ـ بيروت .

٣٩- فكر لويس التاسع ملك فرنسا فى مهاجمة مصر لأنها كانت مركز المقاومة الإسلامية للصليبيين وقد فطن إلى ذلك المؤرخ العربى ابن واصل الذى يقول فى كتابه : « إن ملك فرنسا ريد افرانس حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج . . وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية . (ابن واصل : مفرج الكروب ٥ / ٢٦٥

Stanly Lane Poole : History of Egypt in the middle Ages . P . 218 (London 1912)

٤٠- النويرى : نهاية الأرب ٢٩ / ٣٢٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ م ، ابوالفداء : المختصر في أخبار البشر ٣ / ١٧٨ مكتبة المتنبى بالقاهرة - ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ٢ / ٢٥٩ - النجف ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩م - المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٣٣ .

٤١- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦ / ٣٦٤ .

٤٢- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٥٥ - ٣٥٦ .

٤٣- العينى : عقد الجمان ١ / ٢٣ تحقيق د. محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م

٤٤- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦ / ٣٧١ .

٤٥- أورد النويرى نص هذه الوصية التى جاء فيها : « . . والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم ، وارفع منزلتهم ، فهم جناحك الذى تطير به ، وظهرك الذى تركن إليه ، وطيب قلوبهم ، وزيد فى إقطاعهم ، وزيد كل أمير على ما معه من العدّة عشرين فارس ، وأنفق الأموال وطيب قلوب الرجال، يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو ولا تؤاخذ بما جرى فى دمياط فهذا أمر سماوى ما لأحد فى هذا حيلة .

والاخ فخر الدين بن الشيخ ما عندى من أقدم سواه فأكرمه واحترمه كما تحترمني واجعله عندك كالوالد ، واسمع قوله ورأيه ولا تخالفه واجعل له من العدة مائتى فارس .

يا ولدى : الوصية بأم خليل فلها علىّ من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه ، ارع جانبها واحترمها، وارفع منزلتها فهى عندى بمنزلة عظيمة وكنت طيب القلب بصحبتها ، آمناً على نفسى من جهتها فاجعلها لك مثل الوالدة ، واجتهد فى اتصال الراحة إليها » .

(نهاية الأرب ٢٩ /٣٤١ - ٣٥٢) .

٤٦- يتركب لفظ « أيبك » من كلمتين تركيتين هما « آى » ومعناها القمر و« بك » ومعناها الأمير أى الأمير القمر .

(ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ١٩) .

٤٧- سعى عماد الدين زنكى إلي بناء الجبهة الإسلامية الموحدة للتصدى للصليبيين فلما استشهد سار ابنه نور الدين محمود شوطاً طويلاً فى سبيل تحقيق ذلك وجاء من بعده صلاح الدين الأيوبى الذى نجح في توحيد مصر والشام واستكمل بناء الجبهة الإسلامية الموحدة لمواجهة الصليبيين والقضاء عليهم فلما توفى تولى أبناء البيت الأيوبى الحكم فى مصر والشام .

٤٨- د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٣ .

٤٩- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٦٦ .

٥٠- هم جماعة من أعيان الأمراء بالموصل وخلاط وهم أكراد ينسبون إلى قلعة قَيْمُرُ فى الجبال بين الموصل وخلاط ياقوت : معجم البلدان ٤ / ٤٢٤ .

٥١- يذكر المقريزى أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز حين وصل إلى دمشق فتح له الأمراء القيمرية أبواب البلد وكان القائم بذلك من القيمرية الأمير ناصر الدين أبو المعالى حسين بن عزيز ابن أبى

الفوارس لقيمرى الكردى فدخل الناصر صلاح الدين إلى البلد وخلع على الأمراء القيمرية وقبض على عدة من الأمراء المماليك الصالحية وسجنهم (المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٦٧) .

٥٢- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٣ / ١٨٣ .

أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٦ .

٥٣- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٢٨٦ .

٥٤- المصدر السابق ٢٨٧ .

٥٥- د. أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ص ١٢٣ - دار النهضة المصرية العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

٥٦- الجاشنكير : هو الذى يتذوق الطعام والشراب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يُدَسَّ السُّم عليه وهى كلمة فارسية مكونة من قسمين الأول « جاشنا » ومعناه الذوق والثانى « كير » أي المتعاطى فيكون المعنى : الذى يذوق (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ٤ ح١) .

٥٧- المصدر السابق .

٥٨- المصدر السابق .

٥٩- هو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل الأيوبى عاش أبوه بجوار الصالح نجم الدين أيوب الذى شمله برعايته حتى توفى وترك هذا الطفل الصغير= شمله برعايته حتى توفى وترك هذا الطفل الصغير .

(المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٢١٧) .

٦٠- تاريخ ابن الوردى ٢ / ٢١٧ .

٦١- النويرى : نهاية الأرب ٤١٩/٢٩ .

٦٢- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج٢ .

٦٣- د. أحمد العبادى : قيام دولة المماليك ص ١٢٦ .

٦٤- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٧٣ - ٣٧٥ - ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ٨ .

65 - King : Ej : The Knights hospitallers in the Holy Land P 250-251 (London (1931– النويرى : نهاية الأرب ٤٣٦/٢٩

٦٦- المقريزى السلوك ١ / ٢ / ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ١٠ .

٦٧- د. أحمد العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر ص ١٣٠ .

٦٨- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٨٧ ، النويرى : نهاية الأرب ٢٩ / ٤٢٩ .

٦٩- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٨١ - ٣٨٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ١١ ، النويرى : نهاية الأرب ٢٩ / ٤٣٠ .

٧٠- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٩١ .

٧١- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٩٠ - ٣٩٣ .

Mair, W : The Mamluks or slave Dynasty of Egypt P.7-8 (Amesterdam 1968)

٧٢- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٠١ .

٧٣- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦ / ٣٧٦ .

٧٤- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٠٣ .

ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٩١ ـ ٩٢ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦ / ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

٧٥- المصادر السابقة .

٧٦- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦ / ٣٧٦ .

٧٧- المصدر السابق ٧ / ٤٢ ـ ٤٣ . .

٧٨- المصدر السابق ٤٤/٤٥

المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤١١ .

٧٩- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ٥٠ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٢٩٧ .

٨٠- العصامى المكى : سمط النجوم العوالى ٤ / ١٧ المطبعة السلفية ـ بدون تاريخ ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٣٠٢ .

٨١- نلمس هذا الفزع والهلع حين تقرأ حديث المؤرخ الكبير ابن الأثير عن الزحف المغولى على العالم الإسلامى حيث يقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليـه رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً » .

(انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٠ / ٣٩٩) .

٨٢- ابن الأثير : الكامل ١٠ / ٣٩٩ ، العينى : السيف المهند ص ١٧٩ دائرة المعارف الإسلامية ٩ / ٢١٢ ، النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١١ ، عباس إقبال : تاريخ إيران ٢٤٥ برتولدشبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ص ٢٠ ، فامبرى تاريخ بخارى ص ١٦١ ، ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الإسلام ١٨٦ د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص ١١ ، د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٢ / ٤٦٥

Grenard, F : Gengis -Khan, P.8 (Paris , 1935)
Little , A : The far East. P. 184 (oxford, 1905)
Carpini, John of plano , " History of the Mongols " Ed. by ch. Dawson " The Mongol Mission " P : b. (London , and New York 1955)

٨٣- د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٢ / ٤٦٥ .

٨٤- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٤٦ .

٨٥- د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ١٣ .

٨٦- برتولدشبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ٢٠ .

٨٧- جوبى : لفظ مغولى معناه الصحراء الجدباء الخاوية .
(انظر : فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٦١) .

٨٨- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٤٦ .

٨٩- د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ١٥ .

٩٠- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ٣٤٦ .

٩١- د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ١٦ .

٩٢- رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ١ / ٦١
ترجمة د. محمد موسى هنداوى ، د. فؤاد عبد المعطى الصياد
د. محمد محمد القصاص ، ا. محمد صادق نشات
القاهرة ١٩٦٠ .

٩٣- د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ١٧ .

٩٤- جنكيز خان معناه القوى الجبار : وهو الاسم الذى اختاره هذا الزعيم لنفسه عقب انتصاره على القبائل المغولية والقبائل الأخرى المجاورة ويبدو أن اختياره له كى يرهب أعداءه منه ، أما اسمه الحقيقى فتذكره المصادر « بتيمورجى » و« تيموجين » .
(النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١١ ، فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٦٢ ، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ٣٤٨ ستانلى لين بول : طبقا ت سلاطين الإسلام ١٨٧ ، برتولد شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى ٢٢)

٩٥- لقب « خان » ، لقب أطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من الأمبراطورية المغولية وهو يختلف عن لقب « خاقان » الذى أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم ومعناه « الخان الأعظم » وقد استعمل المغول لقب « خان » بمعنى « خاقان » وربما كان ذلك من باب الرغبة فى الاختصار
(المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٣٠٧ حاشية ٤) .

٩٦- هذا الدستور يسمى « الياسا » و« اليساق » وهو يحتوى على مواد تنظم الحياة المدنية ويشدد على مبدأ الملكية الشخصية فعاقب السارق وقاطع الطرق بصرامة وشدة متناهية ومن أهم أحكام هذا القانون قتل الزانى ، وقتل التاجر الذى يخسر فى بضاعته بعد المرة الثالثة وقتل من يأوى أعداء البلاد ومن يتهاون فى معاونة زميله أثناء الحرب وقد حفظ لنا المؤرخ المصرى تقى الدين المقريزى بعض نصوص هذا الدستور وأوردها فى كتابه .
(انظر : المقريزى : الخطط ٢ / ٢٢٠ - ٢٢١ - النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ص ١٢ حاشية ١، برتولدشبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ٢٦)

٩٧- النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ١٢ .

٩٨- المصدر السابق .

٩٩- د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٤٦٧ .

١٠٠- برتولد شبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى ٣٤ ـ ٣٥ .

١٠١- د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٤٧٠ .

١٠٢- المرجع السابق .

١٠٣- عباس إقبال : تاريخ إيران ٤١٢ .

١٠٤- د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٤٧١ .

١٠٥- عباس إقبال : تاريخ إيران ٤١٢ .

١٠٦- المرجع السابق .

١٠٧- د. أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٤٨٠ .

١٠٨- د. عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ١٠٨ .

١٠٩- المرجع السابق ١١٢ .

١١٠- المرجع السابق ١١٦ .

١١١- ابن كثير : البداية والنهاية ٧ / ١٨٦ ـ ١٨٧ .

١١٢- اليونينى : ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٥٩ .

١١٣- ابن كثير : البداية والنهاية ٧ / ٢٠٤ .

١١٤- اليونينى : ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٥١ .

١١٥- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٢٠ .

١١٦- المصدر السابق .

١١٧- أورد كل من المقريزى وابن إياس نص هذا الخطاب الذى جاء فيه : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً ، القائد الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ، ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذى هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم يتنعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك ، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حلَّ به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ، فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال...»

(انظر : المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ، ابن إياس بدائع الزهور ١ / ١ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥)

١١٨- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٢٩ .
١١٩- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرى ٧ / ٧٨ .
١٢٠- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٣٠ .
١٢١- المصدر السابق .
١٢٢- بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين
(ياقوت : معجم البلدان)
١٢٣- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٣٠ .
١٢٤- المصدر السابق ٤٣٢ .
١٢٥- د. أحمد العبادى : قيام دولة المماليك ص ١٧ .
١٢٦- ابن كثير : البداية والنهاية ٧ / ٢٠٩ .
١٢٧- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٣٣ .
١٢٨- المصدر السابق
١٢٩- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية فى الدولة التركية ٤٥ ، مختار الأخبار ١٦ اليونينى : ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٧٠ ، النويرى : نهاية الأرب ٢٩ / ٤٧٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧ / ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٣٠٧ .
١٣٠- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٣٨
١٣١- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ١٠٤ ، ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ ٣١٢
١٣٢- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٤٥
١٣٣- بيبرس المنصورى : مختار الأخبار ٢٢
١٣٤- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٤٦ .
١٣٥- المصدر السابق .
١٣٦- بيبرس المنصورى : مختار الأخبار ٢٣ ـ ٢٤
١٣٧- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٤٦
١٣٨- المصدر السابق .
١٣٩- المصدر السابق ٤٤٧
١٤٠- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ١ / ١ / ٣١٢ بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ٤٧
١٤١- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٥٠ ـ ٤٥١
١٤٢- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٤٧٧ ، بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ٥١ ، اليونينى : ذيل مرآة الزمان ١ / ٥٢٠ .
١٤٣- الملكانيون جمع ملكانى Malkaniy وهى كلمة سريانية وقد أطلق هذا الاسم على المسيحيين العرب الذين انضموا إلى الكنيسة البيزنطية متبعين مذهب الأمبراطور الرسمى .

Concise Encyclopaedia of Arabic civlization P. 361)

١٤٤- د. أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ٢٠٦ .

١٤٥- المرجع السابق

١٤٦- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ٥٣ .

١٤٧- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٥٢٧ .

١٤٨- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ٥٤.

١٤٩- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٥٤٧ .

١٥٠- المصدر السابق ٥٥٠ .

١٥١- ابن تغرى بردى : بدائع الزهور ٧ / ١٤٢ ـ ١٤٣ .

١٥٢- د سعيد عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٩٩ .

١٥٣- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ٧٠ ـ ٧٢

١٥٤- أرمينيا الصغرى : مملكة أسسها الأرمن فى جنوب آسيا الصغرى واتخذوا مدينة سيس عاصمة لها وقد لعبت هذه المملكة المسيحية دوراً خطيراً ضد المسلمين حيث كانت تساعد الإمارات الصليبية فى بلاد الشام وفى نفس الوقت كانت تتحالف مع أعداء الإسلام من المغول حيث قام صاحبها بتحريض هولاكو وأبنه « أباقا » على غزو الشام ومصر بالاضافة إلى ضغطها على دولة المماليك بتحكمها فى آسيا الصغرى التى كانت تصدر منها الأخشاب إلى مصر التى تلزمها فى صناعة أسطولها الحربى . (د . أحمد العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، د . وفاء محمد على : جهود المماليك الحربية ضد الصليبيين ٧٣ ط٢ ١٩٩١ م .)

١٥٥- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٥٥٢

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ١٤٠

أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٣ ـ ٤

١٥٦- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٣٣٩

١٥٧- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ٦٥

١٥٨- د . العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ٢٣١

د . وفاء محمد على : جهود المماليك الحربية ٧٦ .

Muir (W) the Mameluke or slave Dynasty of Egypt (London) P.23.

١٥٩- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٦٢٢ .

١٦٠- المصدر السابق ٥٥٠

١٦١- د . العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ٢٣٢ .

١٦٢- بيبرس المنصورى : مختار الأخبار ٤٩.

١٦٣- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٩ .

١٦٤- د . سعيد عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ٢٠٢ - ٢٠٣ .

١٦٥- المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٦٣٥ .

١٦٦- المصدر السابق ٦٥٥ .

١٦٧- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ١٢ .

١٦٨- هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المظفر قلاوون الصالحى تولى الحكم فى ٢٠ رجب سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م بعد خلع الملك العادل بدر الدين سلامش بن السلطان الملك الظاهر بيبرس .

(ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ١ / ٤٨ ، المقريزى : السلوك ١ / ٢ / ٦٦٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ٢٩٢)

١٦٩- زكاة الدولية هي مال كان يؤخذ من أصحاب الأموال و لايرفع عنهم ؛ بل يؤخذ من ورثتهم أيضاً .

(انظر : بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ٩٢)

١٧٠- المصدر السابق

١٧١- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٣٤٨

١٧٢- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ١٣

١٧٣- د . سعيد عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ٢١٢

١٧٤- اليونينى : ذيل مرآة الزمان ٤ / ١١ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ١ / ٥٢

١٧٥- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٣٤٨

١٧٦- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ٩٣

١٧٧- اليونينى : ذيل مرآة الزمان ٤ / ٤٠ ورحبة مالك بن طوق كما يقول ياقوت بينها وبين دمشق ثمانية أيـام ، ومن حلب خمسة أيام وإلى بغداد مائة فرسخ (انظر : معجم البلدان ٣ / ٣٤)

١٧٨- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ١٣

١٧٩- اليونينى : ذيل مرآة الزمان ٤ / ٤٤

١٨٠- المصدر السابق ٤٦

١٨١- اليونينى : ذيل مرآة الزمان ٤ / ٩٤ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ١ / ٦٢

١٨٢- المَرْقَبُ : اسم الموضع الذى يُرْقَبُ فيه وهو بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بُلُنْياس

(ياقوت : معجم البلدان ٥ / ١٠٨)

١٨٣- أطلق المؤرخون المسلمون هذا الاسم على جمعية فرسان الهسبتاليين Hospitaliers وهى هيئة حربية دينية وكان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير فى تاريخ الإمارات الصليبية بالشام

(المقريزى : السلوك ١ / ١ / ٦٨ ، النويرى : نهاية الأرب ٣٠ / ٤١٧)

١٨٤- أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٢١ - ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٣٥٤

١٨٥- ابن حبيب : تذكرة النبيه ١ / ٩٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٧ / ٣١٧

١٨٦- سعيد عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ٤١٥

١٨٧- المرجع السابق

١٨٨- د . وفاء محمد على : جهود المماليك الحربية ٣٧

١٨٩- النويرى : نهاية الأرب ٣١ / ١٩٥ .

١٩٠- المقريزى : السلوك ١ / ٣ / ٧٦٤ ـ ٧٦٥

ابن كثير : البداية والنهاية ٧ / ٣٣٦

ابن حبيب : تذكرة النبيه ١ / ١٣٧

١٩١- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ١٢٦ ـ ١٢٧

النويرى : نهاية الأرب ٣١ / ١٩٨ .

١٩٢- أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٢٥

١٩٣- رأس النوبة : وظيفة لصاحبها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم ، وفى هذه الوظيفة أربعة من الأمراء واحد مقدم ألف ، وثلاثة طبلخانات ، ولكل أمير من أمراء المئين أو الطبلخاناة رأس نوبة .

(انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ٤ / ١٨ ، ٦٠)

١٩٤- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٣٠

ابن حبيب : تذكرة النبيه ١ / ١٦٧

النويرى : نهاية الأرب ٣١ / ٢٥٩ ـ ٢٦٠

١٩٥- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ١٣٦ ـ ١٣٧ .

النويرى : نهاية الأرب ٣١ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣

١٩٦- أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٣٠

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨ / ٦ ـ ١٧

١٩٧- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٣٠

١٩٨- النويرى : نهاية الأرب ٣١ / ٢٦٧

١٩٩- د . سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ١٠٨

٢٠٠- يعد السلطان زين الدين كتبغا فى الأصل من المغول وقد أسر فى موقعة حمص الأولى سنة ٦٥٩ هـ فاتخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه ثم اعتقه وجعله من جملة مماليكه وترقى حتى صار من أكابر أمرائه وفى عهد كتبغا جاءت طائفة كبيرة من المغول الأويراتية يبلغ عددهم عشرة آلاف مغولى وتثنى فروا من بلادهم خوفاً على أنفسهم من غازان محمود إيلخان مغول فارس الذى اعتنق الإسلام فرحب بهم كتبغا واقطعهم الاقطاعات وأجرى عليهم الارزاق (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨ / ٥٥ ، العينى : عقد الجمان ٣ / ٢٧٨)

٢٠١- أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٣١

٢٠٢- وجد كتبغا نفسه مغلوباً على أمره فقبل ما عرضه عليه لاجين من التنازل عن الحكم والإقامة فى مدينة صرخد من أعمال دمشق .
(د . سعيد عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ٢٢٣)
٢٠٣- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨ / ١٠٣
٢٠٤- العينى : عقد الجمان ٣ / ٤٥٩
٢٠٥- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨ / ١٧٠
٢٠٦- د . سعيد عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ٢٢٦
٢٠٧- هو السلطان غازان خان بن ارغون خان بن اباقاخان بن هولاكو خان بن تولوى خان بن چنكيز خان يعد سابع سلاطين المغول فى إيران ولد سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م ودخل الإسلام سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥م بإشارة نائبه نوروز وعندما حل شهر رمضان صامه وصار يعكف على العبادة مع جماعة الأئمة والمشايخ إلا أنه رغم اعتناقه للإسلام فقد هاجم بلاد المسلمين وقتل الكثير منهم .
(د . فؤاد الصياد : السلطان محمود غازان ٣ ـ ٦)
Brown : EG, A Literary History of persia vol / 3., P 40 (Cambridge 1928)

٢٠٨- العينى : عقد الجمان ٤ / ١٠
٢٠٩- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٤٣ ، ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ٢ / ٣٥٣
٢١٠- ابن حبيب : تذكرة النبيه ١ / ٢٢٠ ـ ٢٢١ ـ ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٤٠٥ ـ ٤٠٦
٢١١- تعرف هذه الموقعة بموقعة « شقحب » و« غباغب » و« مرج راهط » و« مرج الصُّفَّر »
انظر : أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٤٨
ابن حبيب : تذكرة النبيه ١ / ٢٤٦
العينى : عقد الجمان ٤ / ٢٣١
ابن اياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٤١٣
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨ / ١٥٩
٢١٢- ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ٢ / ٣٥٩
٢١٣- د . سعيد عاشور : مصر والشام ٢٢٦
٢١٤- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨ / ١٧٣
٢١٥- المصدر السابق ١٧٤
٢١٦- أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤ / ٥٤
٢١٧- بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ١٩١
٢١٨- د . سعيد عاشور : مصر والشام ٢٢٩
٢١٩- ركَيْن : تصغير يرادبه التحقير لركن الدين بيبرس الجاشنكير

٢٢٠- دقين : يقصدون نائب السلطنة الأمير سلار وكان أجروداً في ذقنه شعيرات قليلة .

٢٢١- الأعرج : يقصدون به الناصر محمد وكان به عرج خفيف

٢٢٢- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٤٢٥

٢٢٣- المصدر السابق

٢٢٤- المصدر السابق

٢٢٥- د . سعيد عاشور : مصر والشام ٢٢٩

٢٢٦- أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ٤ / ٥٧

٢٢٧- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٤٢٩

٢٢٨- د . سعيد عاشور : مصر والشام ٢٣٢

٢٢٩- المقريزي : السلوك ٢ / ٢ / ٥٢٤

٢٣٠- إبن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٤٨١ - ٤٨٢

٢٣١- د . سعيد عاشور : مصر والشام ٢٣٤.

٢٣٢- د . سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ١٤١

٢٣٣- المرجع السابق نقلاً عن

Heyd : Hist du commerce delevant au moyen Age 75/2 . P . 559 (leipzig 1885)

٢٣٤- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ / ٣٦١

٢٣٥- المصدر السابق ٣٦٢

٢٣٦- المقريزي : السلوك ٣ / ٢ / ٤٣٩

٢٣٧- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٣٠٩

٢٣٨- د . سعيد عاشور : العصر المماليكي ١٥٩

٢٣٩- د . سعيد عاشور : مصر والشام ٢٤٨

٢٤٠- هو أبو سعيد برقوق بن آنص الجركسي العثماني اليلبغاوي ، أخذ من بلاد الجركس ، وبيع ببلاد القرم، وجلبه الخواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى مصر فاشتراه الأمير يلْبُغا العُمَري الخاصكي وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجلاب ، وقد ترقى من الجندية إلى إمرة طبلخاناة ثم إلى إمرة مائة حتى صار من الأمراء الكبار وتولى الأتابكية . (المقريزي : السلوك ٣ / ٢ / ٤٧٦ - ٤٧٧ - ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٣١٨)

٢٤١- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٣٢١ - ٣٢٢

٢٤٢- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١١ / ٢٢٩

٢٤٣- المصدر السابق

٢٤٤- المقريزي : السلوك ٣ / ٢ / ٤٩٥ - ٤٩٦

٢٤٥- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١ / ٢٥١

٢٤٦- المقريزى : السلوك ٣ / ٢ / ٥٩٢

٢٤٧- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١ / ٢٦٢

٢٤٨- المصدر السابق ٢٧٥

٢٤٩- المصدر السابق

٢٥٠- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٢٠٤

٢٥١- المصدر السابق ٤٠٩

٢٥٢- المصدر السابق ٤٠٦

٢٥٣- الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ١ / ٢٣١

٢٥٤- المقريزى : السلوك ٣ / ٢ / ٦٤١

٢٥٥- الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ١ / ٢٥٩

٢٥٦- المقريزى : السلوك ٣ / ٢ / ٦٩٤

٢٥٧- المصدر السابق ٧٠٥

٢٥٨- د . سعيد عاشور : مصر والشام ٢٥٠

٢٥٩- بزغ نجم تيمورلنك فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى حين استطاع بذكائه ودهائه أن يصل إلى منصب الوزارة للأمير الجغتائى إلياس بن تغلق صاحب سمرقند ، ولم يلبث أن انقلب عليه وتولى مكانه عرش سمرقند سنة ٧٧١ هـ / ١٣٧٠م بعد أن استولى على بلخ ونشر سلطانه على القسم الغربي من بلاد جغتاى ، ثم ضم إلى ملكه مغولستان وخوارزم ، واقتحم حدود الهند حتى وصل إلى دهلى التى استعصت على المغول من قبل ، ثم استولى على فارس ونفذ من العراق إلى بلاد الكرج والشام ، ولم يرجع عن آسيا الصغرى حتى أوقع فى أسره بايزيد سلطان العثمانيين ، وكان تيمور على جهله بالقراءة والكتابة حفياً وأولاده بأهل العلم وأصحاب الآداب والمعارف وقد مات تيمور سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م فى إحدى حروبه مع جيوش الصين عند اترار.

(د . أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ٢٨٢ ـ ٢٨٣)

٢٦٠- الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ١ / ٣٦٣

٢٦١- المقريزى : السلوك ٣ / ٢ / ٧٩٩

٢٦٢- الصيرفى : نزهة النفوس ١ / ٣٦٢ .

٢٦٣- المصدر السابق ٣٦٧ .

٢٦٤- أورد الصيرفى نسخة كتاب تيمور وقد جاء فيها : « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه ومسلطون على من حلّ عليه غَضبه ، لا نرقّ لشاكي ولانرحم عبرة باكى ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل كل الويل لمن لم يمتثل لأمرنا ولم يكن من حزبنا وجهتنا ، قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد

وأظهرنا فى الأرض الفساد وإذلت لنا أعزتها وملكنا بالشوكة آزمتها . . . » (انظر نزهة النفوس والأبدان ١ / ٣٧٩ ـ ٣٨١)

٢٦٥- المصدر السابق ٣٨٣

٢٦٦- المصدر السابق ٣٨٧

٢٦٧- المصدر السابق ٣٩٠

٢٦٨- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٤٦٩

٢٦٩- المقريزى : السلوك ٣ / ٢ / ٩٣٦

٢٧٠- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٥٣٧

٢٧١- الصيرفى : نزهة النفوس ٢ / ١١

٢٧٢- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٥٥٧ ـ ٥٥٩

٢٧٣- المقريزى : السلوك ٣ / ٣ / ٩٩٣

٢٧٤- المصدر السابق ١٠١٠ ، ١٠١٥

٢٧٥- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٥٩٧ ، ٦٠٠

٢٧٦- المصدر السابق ٦٠٥ ـ ٦٠٧

٢٧٧- الصيرفى : نزهة النفوس ٢ / ٨٤

٢٧٨- المصدر السابق ٩٠

٢٧٩- العينى : عقد الجمان ١١٩

٢٨٠- المشاعلية جمع ومفردها مشاعلى وهو الذى يتولى التشهير بمن تقرر تشهيره حياً أو ميتاً وقد يتولى هذا المشاعلى تنفيذ القتل فيمن يحكم عليهم بذلك (المصدر السابق حاشية ٢)

٢٨١- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٨١٩

٢٨٢- المصدر السابق ٨٢٣ ـ ٨٢٥

٢٨٣- المصدر السابق ٨٢٨

٢٨٤- العينى : عقد الجمان ١٤٤ ـ ١٤٥

٢٨٥- الصيرفى : نزهة النفوس ٢ / ٣٤١ ، ٣٥٣

٢٨٦- المصدر السابق ٢ / ٤٤١

٢٨٧- المصدر السابق ٤٩٤ ـ ٤٩٥

٢٨٨- المقريزى : السلوك ٤ / ٢ / ٥٦٨ ـ ٥٦٩

٢٨٩- المصدر السابق ٥٧٨

٢٩٠- المصدر السابق ٥٨٤

٢٩١- ابن إياس : بدائع الزهور ٢ / ٧٥

٢٩٢- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤ / ٢١١

٢٩٣- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤ / ٢١١ .

٢٩٤- ابن إياس : بدائع الزهور ٢ / ٧٩

٢٩٥- الصيرفى : نزهة النفوس ٣ / ٥

٢٩٦- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤ / ٢٣٥

٢٩٧- كان برسباى أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة الذين احتكروا بعض السلع والغلات الهامة مثل التوابل والبخور مما أدى إلى ارتفاع أثمانها ارتفاعاً فاحشاً مما أنزل الضرر بالتاجر والمستهلك (د . سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ٣٠٧)

٢٩٨- د . سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ١٦٩ ـ ١٧٠

٢٩٩- يذكر ابن تغرى بردى أن سبب تفكير السلطان فى هذه الغزوة هو ما حدث فى هذا العام من أخذ الفرنج لمركبين من مراكب المسلمين قريباً من ميناء دمياط وكان فيها بضائع كثيرة وعدة أناس يزيدون على مائة رجل فغضب السلطان وأخذ يجهز لغزوهم .

(النجوم الزاهرة ١٤ / ٢٦٦)

٣٠٠- الصيرفى : نزهة النفوس ٣ / ٧٧

٣٠١- المصدر السابق

٣٠٢- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤ / ٢٨٠

٣٠٣- د . سعيد عاشور : العصر المماليكى ١٧٥

٣٠٤- المقريزى : السلوك ٤ / ٢ / ٧٢٠

٣٠٥- د سعيد عاشور : مصر والشام ٢٥٦ ـ ٢٥٧

٣٠٦- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٤ / ٣٠٤

٣٠٧- ابن إياس : بدائع الزهور ٢ / ١٨٨

٣٠٨- المصدر السابق

٣٠٩- المقريزى : السلوك ٤ / ٣ / ١٠٨٦

٣١٠- كان الظاهر جقمق جركسي الجنس كبقية سلاطين الدولة المملوكية الثانية وقد جلبة الخواجاكزل فاشتراه منه على بن الأتابكى إينال اليوسفى وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق وعينه خاصكياً ثم ساقياً وفى سلطنه الناصر فرج أصبح أمير عشرة وترقى فى عهد الملك المؤيد شيخ فصار أمير طبلخاناه ، وفى دولة ططر أصبح أمير مائه ومقدم ألف ، ثم عين صاحب الحجاب فى دولة الأشرف برسباى ، ثم تولى منصب أمير آخور أى المشرف على الاسطبلات السلطانية ثم رقى إلى أمير سلاح ثم أتابك العسكر (انظر ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ١٩٩)

٣١١- ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ٢ / ٢٠٨

٣١٢- المقريزى : السلوك ٤ / ٣ / ١٠٩٣ ـ ١١٠٤

٣١٣- ابن إياس : بدائع الزهور ٢ / ٢٠٨

٣١٤- المقريزى : السلوك ٤ / ٣ / ١١١٦

٣١٥- ابن إياس : بدائع الزهور ٢ / ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٩

٣١٦- د . سعيد عاشور : العصر المماليكى ١٧٩ .

٣١٧- الغراب والجمع أغربه وغربان نوع من أنواع السفن الشينى يسير بالقلع والمجاديف ومنه الصغير والكبير وهو مركبة حربية شديدة البأس ولعل تسميتها بذلك لأن مقدمتها تشبه رأس الغراب إلى حد كبير (ابن تغرى بردى : حوادث ١ / ٩١ حاشية)

٣١٨- إبن إياس : بدائع الزهور ٢ / ٢٢٤

٣١٩- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥ / ٣٤١

٣٢٠- المقريزى : السلوك ٤ / ٣ / ١٢١٠

٣٢١- الصيرفى : نزهة النفوس ٤ / ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ١ / ٩٠ ـ ٩٢ ـ ابن إياس: بدائع الزهور ٢ / ٢٣٨

٣٢٢- رأس نوبة النوب : هى الطبقة الثالثة من خمس وعشرين وظيفة يشغلها عسكريون بحضرة السلطان وموضوعها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم
(ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ١ / ٥٤ حاشية ٢)

٣٢٣- السخاوى : التبر المسبوك ٨٨ ـ ٨٩ ، ابن تغرى بردى : النجرم الزاهرة ١٥ / ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

٣٢٤- د . سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ١٨٠

٣٢٥- الصيرفى : نزهة النفوس ٤ / ٨٤٨ ، السخاوى : التبر المسبوك ٩٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٥ / ٣٦٤ .

٣٢٦- ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ١ / ١١٠

٣٢٧- ابن إياس : بدائع الزهور ٢ / ٣٠١

٣٢٨- السخاوى : التبر المسبوك ٤٣٠

٣٢٩- ابن إياس : بدائع الزهور ٢ / ٣٠٧

٣٣٠- ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ٢ / ٤٢٤

٣٣١- ابن إياس : بدائع الزهور ٢ / ٣٦٩

٣٣٢- المصدر السابق ٣٧١

٣٣٣- المصدر السابق ٣٧٨

٣٣٤- المصدر السابق ٤٥٧ ـ ٤٥٨

٣٣٥- المصدر السابق ٤٥٨ ـ ٤٥٩

٣٣٦- المصدر السابق ٤٦٧

٣٣٧- المصدر السابق ٤٧٤

٣٣٨- ابن إياس : بدائع الزهور ٣ / ٧

٢٣٩- المصدر السابق ٣ / ٤

٢٤٠- ابن إياس : بدائع الزهور ٣ / ٦٩ ، ٧٨

٢٤١- عبد الرحمن عبد التواب : قايتباى١١١

٢٤٢- ابن إياس : بدائع الزهور ٣ / ٢٣

٢٤٣- الدوادار لفظة فارسية معربة تعنى من يحمل الدواة للسلطان وكان عمله تبليغ أوامر السلطان إلى من يريد حضوره ، ويحمل إليه البريد .
(القلقشندى : صبح الأعشى ٤ / ١٩ ، ٥ / ٤٦٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ / ٨٤ ، د . عبد المنعم ماجد : نظم سلاطين المماليك ٢ / ٤٦)

٢٤٤- الصيرفى : إنباء الهصر بأبناء العصر ٤٠

٢٤٥- المصدر السابق

٢٤٦- ابن إياس : بدائع الزهور ٣ / ٢٣٦

٢٤٧- المصدر السابق ٣ / ٢٨٨

٢٤٨- ابن إياس : بدائع الزهور ٣ / ٣٢٤

٢٤٩- المصدر السابق ٣ / ٤٠٤ ، ٤٣٨ ، ٤٦٣ ، ٤ / ٣
وانظر : د : سعيد عاشور العصر المماليكى ١٨٤

٢٥٠- ابن إياس : بدائع الزهور ٤ / ٣

٢٥١- المصدر السابق ٤ / ٤

٢٥٢- إبن إياس : بدائع الزهور ٤ / ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣

٢٥٣- هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ٢ / ٢٥٤

٢٥٤- صلاح عيسى : رجال مرج دابق ٤٧

٢٥٥- المرجع السابق

٢٥٦- د . فاروق عثمان : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح ٥٧ ـ ٥٨

٢٥٧- د . نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ٧٧
وانظر كذلك

Lane-Poole, stanly, A History of Egypt in the Middle Ages P . 532 . (London 1936)
Muir, W,. The Mamemluk or slave Dynasty of Egypt P 191 (London 1896)

٢٥٨- د . نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ٨٩
وانظر

Lane Poole , stanly , Medieval india under Mohammedan 712.1764 PP, 176, 177 , (London 1925)

٢٥٩- ابن إياس : بدائع الزهور ٤ / ١٤٢

٢٦٠- د . نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ٩١

٢٦١- المرجع السابق

ثانياً: نشأة الأتراك العثمانيين وتوسعاتهم فى أوربا

تعد الدولة العثمانية إحدى دول الإسلام الكبرى التى تركت بصماتها واضحه فى تاريخ العالم بعامة والإسلام بخاصة وامتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات آسيا وافريقية وأوربا .

وينسب العثمانيون إلى عشيرة « قابى » إحدى قبائل الغز التركية [1] وأقدم زعيم معروف لهذه القبيلة اسمه «سليمان بن قيا آلب » ؛ وقد نشأ بمدينة ماهان بجوار بلخ ولماظهر جنكيزخان فى تلك الجهات سنة ٦١١هـ / ١٢١٤ م عم الخراب والدمار بلاد ما وراء النهر وخراسان [2] وسقطت دولة خوارزم شاه سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م فكانت أول دولة إسلامية تنهار أمام هذا السيل المغولى وبانهيار هذه الدولة فر أهلها وغيرهم يطلبون النجاة من هذاالخطر الداهم وكان فيمن فر سليمان بن قياآلب جد عثمان فسار هو ومن معه إلى أذربيجان ومنها إلى حلب وبعد مده ساوره الحنين فى العودة إلى موطنه السابق فأجمع أمره واتخذ سبيله بمحازاة نهر الفرات وعندما همّ بعبوره زلقت قدم فرسه فهوى به إلى النهر وغرق سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١ م [3] فلما لفظت المياه جسده أخذ ودفن بجوار قلعة جعبر من أعمال حلب [4]

وترددت فروع القبيلة بين العودة لموطنها الأصلى أو الاستمرار فى المغامرة وانقسمت القبيلة فى ذلك وكان لسليمان أولاد أربعة رجع منهم أثنان إلى خراسان بعد غرق أبيهم وبقى أرشدهم « أرطغرل » وأخوه الأصغر دندان حيث قررا السير إلى الأناضول [5] بقيادة أرطغرل الذى أرسل رسولاً إلى السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباذ يلتمس منه موضعاً يقيم فيه [6] فعين له السلطان السلجوقى أرضاً فى جبل طومانيج ليسكنوا بها صيفاً وشتاء [7] وبعد أن أقام فترة بهذا المكان قرر التوجه إلى مكان أكثر خصوبة من المكان الذى يقيم فيه وفى أثناء سيره رأى جيشين يتحاربان دون أن يعرف من أمرهما شيئاً فدفعته النخوة إلى نجدة أضعفهما حتى تمت له الغلبة والنصر وتبين لأرطغرل بعد ذلك أنه إنما انتصر لجيش علاء الدين سلطان سلاجقة الروم [8]

وقد قدر علاء الدين السلجوقي لأرطغرل صنيعه وحسن بلائه كما رأى فيه القوة التى تستطيع أن تشد أزره وتعينه على أعدائه من الروم والمغول فاقطعة جبال قره جة وطو مانيج وأرمنى وسهل سكود ؛ وتقع هذه الأراضى فى الناحية الغربية من الدولة السلجوقية وتحاذى حدود الروم الذين كانوا يسيطرون على بعض المدن فى آسيا الصغرى (٩)

وظهرت شجاعة أرطغرل وبسالته فى قتال أعداء السلاجقة من الروم والمغول مما جعل علاء الدين يزيد فى إقطاعة و يمنحه ألقاب الشرف والتكريم (١٠) وبعد وفاة أرطغرل سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م تولى ابنه عثمان رئاسة العشائر وإدارة أمورها (١١)

سار عثمان سيرة أبيه فى مساعدة السلاجقه وتأييدهم فى حروبهم ففى سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م استولى على قلعة « قره حصار »(١٢) وهى قلعة عظيمة للروم تقع على نهر سقاري(١٣) فزاد علاء الدين السلجوقى فى إكرامه ومنحه نوعاً من الاستقلال وأقطعه كافة الأراضى والقلاع التى فتحها ، وسمح له بصك النقود ، وأن يذكر اسمه فى الخطبة مقروناً باسم السلطان كما منحه لقب بك (١٤)

ويذكر المؤرخ شرف خان البدليسى أنه شاهد بنفسه منشور الإيالة الذى كتب باللغة الفارسية من السلطان علاء الدين السلجوقى لعثمان ، وجاء فيه : « إنه لما لعثمان بك الذى هو من شجعان العصر وأبطال الدهر ، والذى له نسب بأسرتنا الغاليه ، إذ كانت أجداده وأباؤه مرافقين لآبائنا الاولين حينما قدموا من توران الى إيران ، ومنها إلى أخلاط عن طريق أذربيجان ، ومن الإخلاص والولاء لنا ، وصفاء الطوية نحونا ، فقد وجهنا إليه رتبة الامارة ومنصبها ، وجعلناه ممتازاً بين أقرانه وأمثاله بضم ولاية أزنيق وقرة حصار الى إقطاعه طومانج طاغى وسوكو تجوك مع منحه من الخزانة العامرة عتاد أربعمائة نفر ليوزعه على الغزاة والمجاهدين ليبادروا الى جهادالكفار...» (١٥)

كما يذكر المؤرخ « القرمانى» أن عثمان حينما كان موجوداً عند السلطان السلجوقى ضربت الطبول بين يديه فنهض قائماً إجلالاً للسلطان ، وجرت بذلك العادة بين العساكر العثمانية فصاروا عند سماعهم دق الطبول يقفون تعظيماً لسلطانهم(١٦) ولما توفى السلطان السلجوقى علاء الدين سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠١م تمزقت دولة سلاجقة الروم واستقل الولاة بالمقاطعات التى كانوا يحكمونها وجعلوا منها إمارات بلغت عدتها تسعاً وهى : القرمان

وكرميان وقره سى وصار وخان وايدين وقسطموني والحميد ومننشاوتكه ، واستقل عثمان ابن ارطغرل بما كان تحت يده [١٧] وأقام دعائم دولته فى مدينة « يكى شهر » [١٨] وبدأ يتحرك لتوسيع مملكته وقد أدرك منذ البدايه أن التوسع فى اتجاه الغرب والشمال الغربى على حساب الدوله البيزنطية فى آسيا الصغرى والبلقان هو مجاله الحقيقى ، بل هو الطريق الأمثل لتحقيق آماله فى قيام دولة قوية تحظى بتأييد العالم الإسلامى وتنال إعجابه ، فالدولة البيزنطية من ناحية لم تكن فى حالة تسمح لها بالتصدى لتلك القوة الفتيه التى تتصف بالشجاعة وتفيض حماسة للإسلام ، والإمارات السلجوقية من ناحية أخرى لن تترك العثمانيين يتوسعون على حسابها ، وبذلك اتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً أوربياً فى بداية فتوحاتها .

فقد ركز عثمان هدفه على طرد النفوذ البيزنطى من آسيا الصغرى فاستولى سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧ ـ ١٣٠٨ م على كثير من القلاع المجاورة لإمارته مثل كاستل ولفكه وكته [١٩] وآق حصار وقوج حصار [٢٠] حتى صار قريباً من بحر مرمرة مما اضطر الحاكم البيزنطى لتلك المنطقة أن يستنجد بالامبراطور الذى أسرع لمساعدته لكن عثمان استطاع الانتصار عليهم عند بحيرة « دل » [٢١] مما شجعه على مواصلة الزحف في هذا الاتجاه حتى استولى سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م على مجموعة أخرى من القلاع الشهيره [٢٢] ثم توج انتصاراته سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م بفتح قلعة بروسة التى تعد أهم حصن فى آسيا الصغرى كلها وكان قد توقف أمامها طويلاً بعد أن حاصرها من ثلاث جهات وأخذ يضربها ضرباً شديداً حتى تمكن ابنه اورخان من اقتحامها والسيطرة عليها[٢٣] ويبدو أن عثمان كان على صلة بمماليك مصر آنذاك إذ يذكر مؤرخنا تقي الدين المقريزى أن الامبراطور البيزنطى أرسل سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م مستغيثاً بالناصر محمد بن قلاوون يطلب منه أن يستخدم نفوذه لدى عثمان ملك الدوله العثمانية النامية كي يكف عن البيزنطيين [٢٤] وقد ظل عثمان يواصل جهوده الحربية حتى توفى سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م [٢٥] بعد أن بذل جهداً عظيماً فى تدعيم اساس دولته ، وإذا كان أرطغرل والد عثمان هو الذى وضع أساس الدولة العثمانيه ، ودعمها سياسياً باتصاله بعلاء الدين السلجوقى فإن عثمان قد دعم الدولة بروح الجهاد الدينى وبخاصة عندما اتصل بشيخه ووالد زوجته الشيخ « أده بالى » [٢٦] وتحمس عثمان

لعقيدته الدينية واخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين ، وأنشأ فى «قره حصار» مسجداً جامعاً وأتم بناءه [٢٧] ومما يدل على عقيدته الدينيه القوية هذه الوصية التى تركها لابنه أورخان وجاء فيها : « يابنى ! إياك أن تشتغل بشئ لم يأمر به الله رب العالمين ، وإذا واجهتك فى الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

يابنى ! أحط من أطاعك بالإعزاز وأنعم على الجنود ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة .

يابنى ! إنك تعلم أن غايتنا هى ارضاء الله رب العالمين ، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق ، فتحدث مرضاة الله جل جلاله .

يابنى ! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا ، وللإسلام نموت ، وهذا ياولدى ما أنت أهل له » [٢٨] .

ولعل هذه الوصية تبين لنا الطريق الذى رسمه العثمانيون لأنفسهم منذ البداية وهو الجهاد لإعلاء كلمة الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

* لما توفى عثمان سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م واصل ابنه أورخان جهوده فسنّ القوانين وأقام أول جامعة إسلامية فى الدولة العثمانية وأوجد الجند النظامية [٢٩] وأنشأ فرقه «يكى جارى » أى الجيش الجديد والتى يطلق عليها فى العربيه الانكشاريه وهى بمثابة الحرس الخاص ، وقد تكونت فى بادئ الامر من الشباب الصغار الذين يؤسرون فى الحروب ، ويعهد بهم الى من يتولى تربيتهم إسلامياً وعسكرياً وتهيئتهم للخدمة العسكرية [٣٠] وظلت هذه الفرقه تنمو وتكبر وازداد تعدادها إلى مئات الألوف [٣١].

ويعد هذا الجيش فى نظر بعض المؤرخين أول جيش دائم عرفه التاريخ . وقد حاول أورخان التقدم صوب القسطنطينية بغية الاستيلاء عليها فنقل عاصمته إلى بروسه [٣٢] ثم استولى فى السنة الأولى من حكمه على أزميد « نيقوميديا » ثم استولى سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م على أزنيق « نيقيه » ثانية المدن الروميه بعد القسطنطينيه [٣٣] ثم استطاع فى النهاية أن ينقل حدود الدولة إلى أوربا وينازل البيزنطيين فى عقردارهم فقد تمكنت جيوشه من عبور بحر مرمرة إلى سواحل غاليبولى ، واستولى على كثير من المدن والقلاع شمال

الدردنيل ، وفى سنة ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م توفى السلطان أورخان وتولى بعده ابنه السلطان مراد الأول .[٣٤]

مراد والصراع مع الصرب:

لما تولى مراد خلفاً لأبيه كانت رقعة الدولة العثمانية آنذاك ضيقة النطاق تكاد تنحصر فى شاطئ الدردنيل الأسيوى والأوربى والشاطئ الأسيوى من البوسفور وقد زاد مراد سعة هذه الدولة [٣٥] ففى سنة ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١ م استولى على مدينة ادرنه[٣٦] ونقل اليها العاصمه بعد أن كانت فى بورسة ، ثم فتح الأراضى البيزنطيه فى الروملى (البلقان) فصارت القسطنطينيه عاصمه الامبراطورية البيزنطية محاصرة تماماً بالأراضى العثمانية، وأصبح العثمانيون على مقربة من الصرب والبلغار وألبانيا [٣٧] .

وقد أفزعت هذه الانتصارات العثمانية ملوك أوربا الشرقيه ، ولا سيما ملوك البشناق (المجر) والصرب والبوسنة مما جعلهم يتحالفون ضد مراد الأول ويحاولون الهجوم عليه ، وقد بدأ ملك الصرب بمهاجمة أدرنة العاصمه وكان السلطان مشغولاً عنها بمحاصرة قلعة بيغا فارسل السلطان جيشه إليهم فانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً وفرّ الصرب مذعورين[٣٨] وفى سنة ٧٨١هـ / ١٣٧٩ م اتحد لازارجر بلينا نوفتش ملك الصرب الجديد مع سيسمان أمير البلغار على مقاتلة العثمانيين لكنهما هزما واضطرا الى طلب الصلح وكان من شروطه أن يتزوج السلطان ابنة أمير البلغار وأن يدفع الأميران جزية سنوية [٣٩] لكن الملك الصربى لازار نقض الصلح وعقد حلفاً من الدول المسيحية المجاورة لتحطيم قوة العثمانيين ، وامتلأت معسكرات هذا الحلف بجنود من الصربيين والبلغاريين والبولنديين والمجريين والتقى الفريقان فى ميدان قوصوه [٤٠] حيث قاد السلطان جيوش العثمانيين بنفسه ، واشتدت المعركه وحاق بالمتحالفين خسائر فادحه ، وانتصر مراد فى المعركه ، وجعل الصرب تحت طاعته ، وبينما كان يمر بين القتلى نهض جندى صربى يدعى ميلوك كوبولوفتش وطعنه طعنة قاتله قضت عليه سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م وتولى بعده ابنه بايزيد خان الأول [٤١]

العثمانيون والزحف المغولي :

اقتدى بايزيد خان بوالده فى الفتح والغزو حتى لقب بالصاعقة « يلدرم » لحمله على أعدائه في معارك القتال بطريقة خاطفة وسريعة [٤٢] وصارت الدولة فى عهده قوية راسية القواعد فى الأناضول والبلقان [٤٣] فقد قضي نهائياً على مملكه البلغار كما قضى على الصرب الذين اعترفوا بالسيادة العثمانيه وتعهدوا بدفع الجزيه السنوية ، كما استطاع القضاء على بقايا الإمارات التى قامت علي أنقاض دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وفر أمراؤها إلى تيمورلنك يستغيثون به [٤٤] كما عمَّ الفزع والهلع معظم أنحاء اوربا من كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم فى أوربا فقام البابا بونيفاس التاسع Boniface يدعو الأوربيين باسم الدين إلى القضاء على المارد العثمانى ، وخرج لذلك جيش أوربى كبير يقوده « سجسمند » ملك المجر وبين يديه كثير من فرسان فرنسا وألمانيا واتجهوا الى مدينة « نيقوبولس » وهى من أقوى المدن على نهر « الطونه » فلما علم بايزيد بما حدث أسرع مهرولاً للقاء الأوربيين المتحفزين فهزمهم هزيمة منكرة سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م [٤٥].

ولم يجد الأوربيون أمامهم إلا اللجوء لزعيم المغول تيمورلنك فأرسلوا إليه يحرضونه على قتال العثمانيين ، وكتب إليه ملك فرنسا شارل السادس الرسالة تلو الأخرى يحثه علي هذا الأمر [٤٦]

وكان تيمورلنك من جهته قد اتسع ملكه وقويت شوكته فرأي أن يستجيب لدعوة أمراء آسيا الصغرى الفارين الذين لجئوا إليه واحتموا به من بايزيد ، وأن يسارع إلى تلبيه دعوة الأوربيين حتى يكونوا عوناً وسنداً له فى قتاله مع العثمانيين .

وهكذا أصبح بايزيد بين فاتح طموح فى الشرق يسعى إلى القضاء عليه ليستأثر بأملاكه وسلطانه وبين عدو مكلوم موتور فى الغرب يريد هلاكه وتدميره [٤٧] وقد بدأ تيمورلنك الحرب بأن أغار بجيوشه الجرارة على بلاد آسيا الصغرى التابعة للعثمانيين وافتتح مدينة سيواس وقتل أرطغرل بن بايزيد [٤٨] فلما سمع بايزيد هذه الأنباء خرج وهو يتوقد غيظاً وحنقاً لملاقاة تيمور لنك ، وقد دفعه هذا الغضب الجامح الى التهور والاندفاع واعجله عن التبصر والحذر والتروى فى الأمور فلم يحسن اختيار المكان الذى نزل فيه

بجيشه الذى لم يكن يزيد عن مئة وعشرين ألف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمائه ألف ، ومات كثير من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء ، وكان الوقت صيفاً شديد الحرارة [٤٩] وما أن التقى الجيشان فى أنقرة حتى فر جنود المغول الذين كانو فى جيش بايزيد وجنود الإمارات الأسيويه التى فتحها منذ عهد قريب وانضموا جميعاً إلى جيش تيمور لنك [٥٠].

ولم يبق مع السلطان إلا عشرة آلاف جندى من الانكشارية وبعض عساكر الصرب[٥١] وقاتل السلطان العثمانى هو ومن معه قتالاً شديداً ومريراً ، لكن المغول أحاطوا بهم من كل جانب وتكاثروا عليهم بجموعهم الزاخرة ، وهزموهم هزيمة ساحقه ووقع السلطان العثمانى بايزيد فى الأسر ومعه ابنه وبعض كبار رجال جيشه وذلك سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢م ، ولم يصادف تيمورلنك بعد ذلك أية مقاومة تعترض سبيله فاستولى على أزنيق وبروسه ، وغيرهما من المدن والحصون العثمانيه ، ثم دك أسوار أزمير واستولى عليها من يد فرسان رودس ، وأعاد كثيراً من الإمارات الأسيوية إلى أمرائها السابقين الذين دانوا له بالولاء والطاعة [٥٢]

وفى أوربا استعادت الدول المنهزمة كبلغاريا وصربيا والأفلاق والمورة سيادتها واستقلالها ، وبعث ملوك انجلترا وفرنسا وقشتا له وامبراطور القسطنطينية إلى تيمور لنك يهنئونه بهذا النصر العظيم [٥٣] وبات العثمانيون بعد وقعة أنقرة فى وضع مهين ، وكان الخراب والدمار والتمزق الذى خلفه تيمور قد شكل مشكلة خطيرة طويلة الأمد كان على العثمانيين مواجهتها [٥٤]

أما السلطان العثمانى بايزيد فقد وضعه تيمورلنك فى تختروان يحمله حصانان وللتختروان نوافذ بقضبان من الحديد وأغلقه عليه سجيناً مما دعى بعض المؤرخين إلى القول بأنه وضعه فى قفص من الحديد كالوحوش الكاسرة واصطحبه معه فى معاركه حتى توفى بايزيد كمداً وحزناً سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣م [٥٥]

اندمال الجراح و العودة للكفاح :

اعتقدت أوربا أنها قد تخلصت من الخطر العثمانى الذى كان يهددها ، وأن هزيمة تيمورلنك للعثمانيين لن تعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ونسوا أن تيمور قضى على القوة العسكرية للدولة العثمانية لكنه لم يستطع القضاء على القوة الحيوية الكامنة فيها فما لبثت هذه الدولة أن انبعثت من بين الانقاض والأطلال وضمدت جراحها ، وانتعشت وسرى فى عروقها ماء الحياة فاستأنفت سيرها إلى الأمام لمواصلة رسالة الجهاد فى سبيل الله .

وبعد عشر سنين من الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد نجح أصغر ابنائه وهو السلطان محمد جلبى فى أن يتولى أمور البلاد وتفرد بالسلطان وقضى سنوات حكمه الثمانية فى إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها فسالم امبراطور القسطنطينيه وأعاد إليه بعض المدن على شاطىء البحر الأسود وصالح البندقيه بعد هزيمة أسطوله أمام غاليبولى ، وقمع الفتن والثورات فى آسيا وأوربا ، وأخضع بعض الإمارات الأسيوية التى أحياها تيمور لنك [٥٦] وفى سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١ م توفى السلطان محمد فى مدينة أدرنة [٥٧] بعد أن تمكن من إحياء الدولة وربط أجزاءها واستأنف سياسة التوسع من جديد .

وتولى ابنه مراد الثانى (٨٢٤ ـ ٨٥٥ هـ /١٤٢١ ـ ١٤٥١ م) [٥٨] وقد سار على نهج أبيه ، واتبع سياسته لإتمام إحياء الإمبراطورية العثمانية [٥٩] لكنه اصطدم بالمجريين الذين كانوا يخشون إحياء سلطان الأتراك العثمانيين نظراً لتعرض بلادهم لكثير من غاراتهم فدعا المجريون الأوربيين إلى تكوين حلف مسيحى جديد لوقف التوسع العثمانى [٦٠]

ونجح الزعيم المجرى « هونياد » فى إنزال بعض الهزائم بالعثمانيين فى البلقان [٦١]، وواصل سياسته فى تحدى العثمانيين ، لكن مراد نجح فى هزيمته عند مدينة فارنه الواقعة على البحر الأسود فى ٢٨ رجب سنة ٨٤٨ هـ ١٢ نوفمبر سنة ١٤٤٤ م [٦٢] حيث قتل فى المعركة بعض ملوك أوربا وأمرائها ، ونزلت بالمسيحيين هزيمة كبيرة استطاع بعدها السلطان مراد التقدم نحو الصرب والبوسنة حيث اخضعها للسيادة العثمانية وفشل بذلك التحالف الأوربى فى صد أو وقف التوغل العثمانى فى أوربا ، بل إن المجرعجزت بعد هذه المعركة عن القيام بأى جهد حربى لعدة سنين لأنها فقدت آلافاً من زهرة فرسانها ورجالها وضعفت إدارتها الحربيه [٦٣]

فتح القسطنطينية : (٦٤)

فى المحرم من سنة ٨٥٥ هـ /١٤٥١ م توفى السلطان مراد الثانى وتولى الملك بعده ابنه محمد الثانى المعروف بالسلطان محمد الفاتح (٨٥٥ ـ ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ ـ ١٤٨١م) واستمرت عملية إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية على يديه ، وتطلع العثمانيون فى عهده إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطيه وصمموا على الاستيلاء عليها ليأمنوا سلامة المواصلات بين أملاكهم فى أوربا وآسيا ، وليأسسوا عاصمة جديدة لدولتهم الفتية فضلاً عن أنها نهاية الشوط الحربى الذى بدأه العثمانيون فى جوف آسيا الصغرى (٦٥)

وكانت قد جرت عدة محاولات من قبل لفتحها أيام بايزيد الأول ومراد الثانى ، لكن جهودهما باءت بالفشل (٦٦)

وأخذ محمد الثانى يعد العدة العسكرية الضخمه لتنفيذ مهمته ولما انتهى من إعداد القوة اللازمة سعى فى إيجاد سبب لاشعال نار الحرب على الروم البيزنطيين ، ولم يلبث أن وجد هذا السبب حينما تعدى بعض الجنود العثمانيين على قرية من قري الروم فخرج إليهم أهلها وقتلوا بعضاً منهم (٦٧)

فأعلن السلطان محمد الحرب على الامبراطور البيزنطى وأخذ فى حصار القسطنطينيه سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م (٦٨) بجيش جرار يبلغ عدده ٢٥٠ ألف جندى و١٨٠ سفينة حربية و ١٤ بطارية ومجموعة من المدافع قام بصنعها رجل من المجر يدعى « أوربان » وكانت تقذف مقذوفات من الحجارة زنة القطعة منها اثنا عشر قنطاراً إلى مسافة ميل وأثناء هذا الحصار اكتشف العثمانيون قبر الصحابى أبى أيوب الأنصارى الذى استضاف الرسول صلى الله عليه وسلم فى دار الهجرة ، وكان قد توفى سنه ٥٢هـ / ٦٧٢م أثناء حصار القسطنطينية فى مدة خلافة معاوية بن أبى سفيان (٦٩) وقد بنى السلطان محمد مسجداً عقب الفتح فى هذا المكان يتقلد فيه كل سلطان عثمانى عند ولايته سيف السلطان عثمان الغازى الأول (٧٠)

وقد حاول الإمبراطور البيزنطى الاستعانة بالأوربيين فوافته عدة سفن بحرية لكنها لم تجد نفعاً ، وطلب منه السلطان محمد تسليم المدينة طوعاً فأبى فأمر السلطان العثمانى

محمد بالهجوم على المدينة فى انعشرين من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ / مايو سنة ١٤٥٣م ، فزحف نحو ١٥٠ ألف جندى على المدينة وتمكنوا من دخولها بعد قهر القوات البيزنطية ، وقتل الامبراطور البيزنطى قسطنطين [٧١] الذى كان يظن أن مدينته لن تسقط فى يد فاتح مهما أوتى من مهارة وجسارة ولأن كثيراً من الفاتحين حاولوا الاستيلاء عليها ، وارتدوا عنها جميعاً لمنعتها وحصانتها ، وهكذا استطاع محمد الثانى فتح القسطنطينيه التى قاومت المحاولات لفتحها حوالى ثمانية قرون .

وقد أدى سقوط القسطنطينية إلى موجة من الرعب واليأس فى أوربا ، فقد أصبح بقاء المناطق الأوربية التى فتحها العثمانيون فى قبضتهم أمراً مضموناً بعد فتح القسطنطينية التى كانت هى القاعدة الاستراتيجية الوحيدة التي كان يمكن للأوربيين استخدامها ضد العثمانيين [٧٢]

لذا فإن فتح القسطنطينيه يعد أهم نجاح حققه الأتراك العثمانيون وبه أصبحت مملكتهم تعد من الامبراطوريات الإسلامية العظيمة ، إذ حققت ماطمع فيه المسلمون عدة قرون ، وقد أطلق على السلطان محمد الثانى عقب هذا الفتح لقب «محمد الفاتح» [٧٣]

وقد اتخذ العثمانيون من العاصمة البيزنطية المنهارة عاصمة لدولتهم [٧٤] وأطلق السلطان عليها اسم « اسلامبول » أى تخت الإسلام أو مدينة الإسلام [٧٥] وأحيانا تكتب استانبول أو اسطنبول أو استامبول . [٧٦]

وعلينا أن نذكر أن السلطان محمد حين دخل إلى القسطنطينية أمر بالآذان فى كنيسة (أيا صوفيا) التي تحولت إلى مسجد عقب ذلك [٧٧] إلا أنه نادى فى المدينه بعدم المعارضة فى إقامة شعائر الدين المسيحى [٧٨] وجعل المسيحيين يتخذون بطريقا لهم فأختاروا جورج سكولا ريوس وجعله السلطان رئيساً لهم [٧٩] وأمر بالاحتفال بتثبيته فى منصبه الجديد [٨٠] تطميناً لهم مما يدل على سماحة الإسلام والمسلمين .

عقب هذا النصر الكبير الذى رفع من أمجاد العالم الإسلامى آنذاك كتب السلطان محمد عدة رسائل إلى أمراء المسلمين يبشرهم بهذا الفتح العظيم ، وقد ذكر ابن تغرى بردى أن السلطان محمد الفاتح أرسل فى سنه ٨٥٧ هـ رسالة إلى السلطان الملك الأشرف

إينال يهنئه بالسلطنة ويبشره بفتح القسطنطينية وقدم بهدية كبيرة ومعه أسيرين من كبار أهل القسطنطينية سار بهم فى شوارع القاهرة التى زينت لمقدمه (٨١)

وخلاصة القول أنه بسقوط القسطنطينية فى قبضة السلطان محمد الفاتح انتهت الدولة البيزنطية من صفحة التاريخ وحل سلاطين آل عثمان من المسلمين محل قياصرة الرومان فى مدينة الامبراطور قسطنطين ولم يكن فتح القسطنطينيه بالنسبة إلى محمد الفاتح بمثابة النهاية ؛ بل إن هذا الانتصار الذى حققه باسم الإسلام كان بداية لها مابعدها فقد اعتبر هذا السلطان الطموح نفسه مبعوثاً برسالة تستهدف نشر الإسلام والقضاء على الظلم والطغيان فاتجه نحو شبه جزيرة المورة لفتحها ، فاستسلم أميراها « ديمتريوس » و«توماس» وقبلا دفع الجزية صاغرين (٨٢)

وعاد إلى الصرب فتصدى له الزعيم المجرى هونياد إلا أن الصربيين رفضوا مساعدة المجريين وطلبوا الصلح مع السلطان مقابل دفع الجزية فقبل منهم ذلك (٨٣) وتوفى السلطان محمد الفاتح سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م (٨٤)

بعد أن دانت له آسيا الصغرى ، وبلاد اليونان ، ومعظم شبه جزيرة البلقان ، ووضع العثمانيون أقدامهم على جانبى بحر الادرياتيك .

وبوفاة محمد الفاتح توقفت تلك الفترة المزدهرة فى تاريخ الدولة العثمانية نتيجة للصراعات الداخليه التى قامت بين الأخوين بايزيد « وجم » من أجل الوصول إلى عرش السلطنة .

وكان السلطان محمد قد أوصى بالملك لابنه الأصغر « جم » لكن الأبن الاكبر « بايزيد » تغلب على الملك ، فذهب جم إلى بروسه وأعلن نفسه سلطاناً هناك ، وطلب من أخيه الصلح على أن تكون له أملاك الدولة فى آسيا (٨٥)

ومن هنا نشأت فكرة تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين الأول أوربى ويخضع لبايزيد والثانى أسيوى ويخضع لجم فلم يقبل بايزيد فكرة التقسيم ودخل فى حرب مع أخيه «جم » وانتصر عليه فى « ينى شهر » (٨٦) ففر « جم » هارباً إلى مصر ولجأ إلى السلطان المملوكى قايتباى الذى استقبله استقبالاً طيباً وانزله بدار ابن جلود كاتب المماليك (٨٧) ثم ترك القاهرة إلى أوربا وظل يتنقل فى بلدانها حتى توفى سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م . (٨٨)

وفى أخر عهد بايزيد أوصى هذا بالعهد لابنه أحمد لكن ابنه الأصغر سليم طمع فى الملك وذهب إلى أدرنه وأعلن نفسه سلطاناً هناك فارسل إليه أبوه من أحضره إليه مقهوراً ، فالح الانكشارية عليه بالعفو عنه لأنهم كانوا يميلون إليه ويرغبون فى أن يكون هو القائم بأمر الملك ولم يلبثوا أن سألوا السلطان التنازل له عن الملك فتنازل له السلطان عن الملك سنه ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م ثم توفى بعد ذلك [٨٩] وتولى السلطان سليم الأول الحكم (٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ / ١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م) وكانت الدولة قد اتسعت حدودها وامتدت فتوحاتها لتشمل مايعرف الآن بدول رومانيا وبلغاريا والبانيا وصربيا ، وكرواتيا والبوسنة والهرسك والمجر واليونان ، ووقفت الدول الأوربية الأخرى كفرنسا والنمسا وروسيا فى حالة خوف وترقب لما سوف تسفر عنه السياسة العثمانية آنذاك ولم يطل انتظارهم طويلاً إذ بدأت الدولة العثمانية فى زمن سليم الأول تولى وجهها نهائياً نحو الشرق ، فقد أراد سليم الأول تأديب الأسرة الحاكمة الجديدة فى فارس وهى أسرة الصفويين لمساعدتها لأخيه فترة الصراع بينهما ، تلك الأسرة التى كانت تدين بالمذهب الشيعى الذى يخالف مذهب العثمانيين السنى وفى الصفحات التاليه سوف نلقى الضوء على هذه الدولة .

ثالثاً : الدولة الصفوية فى إيران

تعد الدولة الصفوية التى شهد الشرق الإسلامى قيامها فى بلاد فارس (٩٠٨ ـ ١١٤٨ هـ / ١٥٠٢ ـ ١٧٣٦ م) إحدى الدول القوية التى قامت فى العالم الإسلامى آنذاك بجانب المماليك والعثمانيين ويرجع نسب الصفويين إلى إحدى الأسر التى كانت تعيش فى أردبيل [٩٠] هى أسرة [٩١] الشيخ صفى الدين أبو اسحاق الأردبيلى (٦٥٠ ـ ٧٣٥ هـ / ١٢٥٢ ـ ١٣٣٤ م) وقد زعم مؤرخو العصر الصفوى أنه من أحفاد الإمام جعفر الصادق أحد أئمة الشيعة الإمامية [٩٢] إلا أن المؤلفات التى ألفت فى أيام الشاه إسماعيل الصفوى وأجداده لم تذكر هذا النسب [٩٣]

وتعلم الشيخ صفى الدين فى صغره العلوم الدينية والعقلية ثم تصوف وأصبح مرشداً لجماعة من المتصوفه، وأخذ ينشر مذهب الشيعة الاثنا عشرية فى الحلقات الصوفية التى كان يعقدها حيث يقيم فى أردبيل بآذربيجان ، وتجمع حوله كثير من الأنصار والأعوان والمريدين [٩٤] لكنه لم يسع للحصول على نفوذ سياسى أو سلطان عسكرى ، بل قنع بالشهرة التى حصل عليها كولى من الأولياء [٩٥] حتى توفى بأردبيل سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م [٩٦]

وخلفه ابنه صدر الدين موسى الذى بذل مجهوداً كبيراً فى نشر دعوته بين القبائل المجاورة ، حتى كثر عدد أنصاره وذاعت شهرتهم ممادعا حاكم أذربيجان المغولى إلى إلقاء القبض على صدر الدين وإلقائه فى السجن [٩٧]

وفى أواخر أيامه أفرج عنه وعاد إلى المقام مرة أخرى فى أردبيل حيث توفى ، وخلفه فى الدعوة حفيده خوجه على (ت ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م) الذى منحه تيمورلنك منطقة أردبيل ووقفها عليه وعلى أبنائه من بعده [٩٨] ومن ثم أصبحت أردبيل قاعدة الحركة الصفوية ، ثم خطا جنيد أحد أحفاد صفى الدين خطوة سياسية بارعة حينما دعم أواصر الصلة بينه وبين أوزون حسن أمير دولة الشاة البيضاء [٩٩] وصاهره ، وكان لهذا الزواج السياسى أهمية كبيرة فقد امتزجت الدعوة للشيعة بالقوة العسكرية ، وعلا سلطان هذه الحركة نتيجة لذلك على كثير من القبائل وتابع جنيد خططه السياسية بتدعيم عسكرى فجند أعداداً كبيرة

فى مقر أسرته باردبيل ، وأقبل على تدريبهم تدريباً عسكرياً ، واستطاع أن يقيم بهم حكماً مستقلاً هناك ثم توجه إلى شيروان وهاجمها لكنه هزم وقتل سنه ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م (١٠٠)

وتعد هذه الحرب ـ وإن كانت قد انتهت لغير صالح الصفويين ـ بمثابة ظهور للصفويين على مسرح الحياة السياسية والعسكرية كقوة تنافس على عرش فارس (١٠١)

وتولى حيدر بن جنيد رئاسة الصفويين خلفاً لأبيه ، وابتكر لاتباعه معالم تزيد من تعصبهم لمذهب الشيعة الاثنى عشرية وميزهم بأن جعل كل فرد منهم يرتدى قلنسوة حمراء لها اثنتى عشرة ذؤابة تمثل كل منها إماماً من أئمة الشيعة الاثنى عشرية ، وصاروا يعرفون باسم القزلبا شية أى أصحاب الرؤوس الحمراء (١٠٢)

وحاول حيدر الانتقام من حاكم شيروان قاتل أبيه (١٠٣) غير أنه قتل سنه ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م على يد جيش سليمان بك بيرن أوغلى الذي جاء من قبل يعقوب بن أوزون حسن أمير الشاة البيضاء التركمانية وتعاون مع حاكم شيروان (١٠٤)

وكان لحيدر بن جنيد أولاد ثلاثة هم على وإبراهيم وإسماعيل فارسل الأمير يعقوب بن أوزون حسن هؤلاء الثلاثة لحبسهم بقاعة اصطخر بفارس (١٠٥) ومع أن رستم الآق قيونلى الذى خلف الأمير يعقوب أفرج عنهم وساعدهم على العودة إلى أردبيل إلا أنهم اضطروا بعد ذلك إلى الفرار إلى جيلان (١٠٦) حيث قتل على وإبراهيم (١٠٧) وتبقى إسماعيل الذى سعى للمطالبة بثأر أبيه وإرثه (١٠٨) وإحياء القزلبا شية من جديد .

الشاه إسماعيل الصفوى :

يعد الشاه إسماعيل الصفوى أول حاكم صفوى مستقل ، والمؤسس الحقيقى للأسرة الصفوية(١٠٩)

لما بلغ إسماعيل الثالثة عشرة من عمره خرج من جيلان (١١٠) متجهاً إلى أردبيل عن طريق آستارا بمساعدة المريدين الذين كانوا يسلكون طريقة آبائه وقد انتشرت جماعاتهم فى جميع بلاد أذربيجان وآران وأرمنيه والجزيرة تحت ستار التصوف (١١١) وبعد ستة شهور من عام ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م قصد أرزنجان وفيها التف حوله نحو سبعة آلاف شخص من أنصار أبيه وكانوا من الترك لكنهم من طوائف مختلفة مثل الشاملو والاستاجلو

والقاجار والتكلو وذى القادر والأفشار [١١٢] واتجه بهم نحو شيروان سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م حيث استطاع هزيمة جيش حاكم شيروان قاتل أبيه عند قرية « كلستان » التابعة لولاية شما خى [١١٣] وبدت عليه روح القسوة والانتقام من أعدائه فأحرق جسد خصمه «فرخ يسار» حاكم شيروان ، وأقام برجاً من رؤوس القتلى ، وتعدت وحشيته من الأحياء إلى الأموات فنبش مقابر حكام شيروان ومثل برفاتهم ، وكان لهذا أثر كبير فى إرهاب اعدائه .كما كان للغنائم التى استولى عليها فى هذه المعركة أثر كبير أيضاً فى تدعيم قوته الماليه واعتبروه منقذاً لهم من الأسر الحاكمة الدخيلة على فارس [١١٤]

وفى سنة ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م توجه لقتال تركمان الآق قيونلى (الشاة البيضاء) حيث التقى بهم فى بلدة شرور من أعمال نخجوان [١١٥] وانتصر عليهم انتصاراً باهراً ، وقتل منهم نحو ثمانية آلاف [١١٦] والحقيقة أن انتصاره هذا مهد أمامه الطريق إلى تبريز[١١٧] التى دخلها وأعلن فيها قيام دولة جديدة تسمى الدولة الصفوية ـ نسبة إلى جده الأكبر صفى الدين ، واتخذ لنفسة لقب الشاه أى الملك ، كما اتخذ هذه المدينة عاصمة لدولته [١١٨] وسك العملة باسمه [١١٩] ومع أن علماء الشيعة التبريزيين أخبروه بأن ثلثى سكان المدينة على الأقل من أهل السنة [١٢٠] ، إلا أنه أعلن المذهب الشيعى الإمامى مذهباً رسميا للدولة الصفوية[١٢١]

وما إن اتخذ الشاه إسماعيل تبريز عاصمة لملكه حتى شرع فى فتح إيران كلها ، وسرعان ماأخضع ولاة اليتموريين [١٢٢] والأسر الصغيرة الأخرى[١٢٣] وتجاوزت جيوشه فى سنين قليلة خراسان ، وتقدمت حتى بلغت هراة التى خضعت لحكمه أيضا [١٢٤]وغزا العراق سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م بحجة أن هذا الاقليم يضم مقابر الشيعة فى كربلاء والنجف [١٢٥] ودخلت الولايات الجنوبية تحت تصرفه فامتدت دولته من نهر جيحون إلى الخليج العربى ومن الفرات إلى أفغا نستان [١٢٦]وعلى هذا النحو تاخمت الإمبراطورية الصفوية فى حدودها من ناحية العراق الإمبراطورية العثمانية خصوصاً بعد أن قضت كل من الدولتين على الدول التركمانية الصغيرة التى نشأت كنتيجة لانهيار دولة الشاه البيضاء ، ولم تكن هذه الحدود مضبوطة بحيث تمنع الاشتباك بين الدولتين ، كما كان يسكنها عناصر مختلفة

من أكراد وتركمان وعرب وأتراك ، وهؤلاء كانوا يتأرجحون فى ولائهم للدولتين فكانت مشاكل الحدود من العوامل التى لابد وأن تؤدى إلى اشتعال الحرب بينهما (١٢٧) .

وخلاصة القول أن الشرق الإسلامى فى مطلع العصر الحديث قد انتظمته هذه الدول الثلاث (المماليك ـ العثمانيون ـ الصفويون) وقد وصلت العلاقات بينهما إلى مرحلة حرجة نتيجة احتكاك حدودها أولاً ، واختلاف المذاهب والمصالح ثانياً مما أدى إلى حدوث صراع كبير بينهم ، وقد بدأ الصراع فى البداية بين العثمانيين والصفويين ، ثم بين العثمانيين والمماليك حيث تمكن العثمانيون من هزيمتهم والقضاء عليهم ، وبالتالى تغيرت خريطة الشرق الإسلامى بعد أن نجح العثمانيون فى فرض نفوذهم وبسط سيطرتهم على المنطقة وسوف نتناول ذلك فى الصفحات التالية .

أولاً : الصراع العثماني الصفوي

أدى قيام الدولة الصفوية في إيران إلى انقسام العالم الإسلامي إلى معسكرين ، معسكر سني يتزعمه العثمانيون الذين كانوا في أوج قوتهم كما كانوا من القوى العظمى في العالم كله آنذاك ، ومعسكر شيعي يتزعمه الصفويون بقيادة الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية ورافع لواء المذهب الشيعي الإمامي في إيران لأول مرة في تاريخها منذ دخولها إلى الإسلام (١٢٨)

وقد بدأ العداء يظهر واضحاً بين الدولتين عقب وفاة السلطان العثماني محمد الفاتح ، فقد استغل الصفويون الخلافات العثمانية الداخلية لتحقيق مآربهم ؛ اذ انتهز الشاه إسماعيل الصفوي النزاع الذي نشب حول السلطنة بين أبناء البيت العثماني ، وأخذ يبث دعاته في الأناضول معتمداً على الأقليات الصفوية المنتشرة هناك للقيام بثورة ضد الحكم العثماني السني (١٢٩)

وثار الشيعة بالفعل بزعامة رجل يدعي شاه قولي(١٣٠) أو شيطان قولي كما يقول المؤرخ البدليسي (١٣١) واستفحل أمرهم إلى أن قضى عليهم سليم بن بايزيد (١٣٢)

ولم يكتف الشاه إسماعيل الصفوي بذلك ، بل أغرى أمراء الأطراف المجاورين لدولته بالخروج على السلطنة العثمانية ، واحتضن أبناء البيت العثماني الذين اضطروا إلى الفرار من آسيا الصغرى عندما تولى سليم الأول بن بايزيد السلطنة سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢م (١٣٣)

وبدأ سليم حكمه باتباع سياسة تهدف إلى القضاء على أصحاب المذهب الشيعي المقيمين في الدولة العثمانية قبل أن يستفحل خطرهم ففرقهم في الولايات العثمانية الأوربية(١٣٤) وأعدم المتآمرين المعروفين منهم (١٣٥)

ورد الشاه اسماعيل الصفوي على ذلك بإقامة مذابح عامة ضد أهل السنة في بلاده ، وقام بمهاجمة آسيا الصغرى للدفاع عن الشيعة ، والأخذ بالثأر لإخوانه من العثمانيين السنيين (١٣٦)

وساد التوتر العلاقات العثمانية الصفوية ، وعزم السلطان العثماني سليم الأول على

تأديب الشاه اسماعيل الصفوى ، ووضع حد لأطماعه لأنه اعتبر أن دعوته الشيعية خطر على أمن وسلامة دولته ، ولكن كيف يحارب رجلاً مسلماً ، والدولة العثمانية تحمل لواء الجهاد من أجل نشر الإسلام والدفاع عن المسلمين .؟

لذا فإن السلطان العثمانى لم يكن ليفكر فى قتال الصفويين دون فتوى شرعية تبيح له الدخول فى حرب ضد الشاه وأعوانه .

وقد بدأ سليم الأول بالحصول على هذه الفتوى من شيخ الإسلام ، وهو أعلى مرجع دينى فى الدولة ، وقد أخرجت الفتوى الشاه إسماعيل وأتباعه من الجماعة الإسلامية وأجازت قتالهم (١٣٧) فأعد السلطان سليم جيشاً كبيراً وأعلن الحرب على الشاه ، وزحف بقواته للقضاء على الشيعة الصفويين فاستولى على ديار بكر وكردستان ، ثم توغل شرقاً فى إيران حتى التقى بجيش الشاه إسماعيل الصفوى عنـد « جالديران » سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م وأنزل بالشاه هزيمة مدمرة أدت إلى تمريق جيشه وتفريق جنده ، واستولى سليم على أموال الشاه ونسائه ، واضطره إلى الفرار للداخل ، وإخلاء العاصمة تبريز ، فدخلها سليم الأول رغبة فى مطاردة الشاه إسماعيل الصفوى والقضاء عليه ، لكنه لم يتمكن من ذلك (١٣٨) لأن العثمانيين دخلوا عاصمة الصفويين فى فصل الخريف ، وهو فصل انتشار مرض الملاريا فى منطقة أذربيجان ، وهو من الأمراض الخطيرة فى هذه البلاد ، وقد أصيب عدد كبير من جنود العثمانيين بهذا المرض ، ثم حلّ فصل الشتاء (١٣٩) ورفض جند الانكشارية قضاء الشتاء فى ذلك المكان ، فاضطر السلطان سليم الأول إلى الرضوخ وإعطاء إشارة الانسحاب (١٤٠) والعودة إلى استانبول بعد أن لقن الشاه درساً قاسياً ، وأمن حدوده الشرقية باستعادة العراق والمدن التى كان الشاه قد استولى عليها من قبل فى جنوبى آسيا الصغرى (١٤١)

وعلى الرغم من هزيمة الصفويين إلا أنهم عادوا إلى تجميع صفوفهم حول الشاه إسماعيل الصفوى ، ولم يستطع العثمانيون القضاء عليهم (١٤٢)

ولما تولى الشاه عباس الأول الصفوى عرش الصفويين فى عام ٩٩٦ هـ / ١٥٨٧م استعان بالدول الأوربية وتحالف معها ضد العثمانيين ، ومنح بعضها امتيازات تجارية ،

ومن هذه الدول انجلترا التى عقدت حلفاً عسكرياً مع الشاه عباس الصفوى تعهدت فيه بالوقوف إلى جانب الصفويين الشيعة إذا حدث قتال بينهم وبين العثمانيين السنيين (١٤٣).

ولم يظهر خطر التقارب مع الأوربيين الطامعين فى استعمار بلاد المسلمين ، إلا بعد وفاة الشاه عباس الصفوى ، حين ضعفت الدولة الصفوية الشيعية كما ضعفت الدولة العثمانية السنية بينما قويت شوكة الدول الأوربية الصليبية الطامعة فى بلاد المسلمين من الشيعة والسنة على السواء ، وانتهى الأمر بسقوط كثير من البلدان الإسلامية فريسة بين مخالب الأوربيين المستعمرين (١٤٤) .

ثانياً : الصراع العثماني المملوكي :

كانت العلاقات بين العثمانيين والمماليك ودية منذ عهد عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة إذ يذكر المؤرخ المصرى تقى الدين المقريزى أن الامبراطور البيزنطي اندرونيق الثانى باليولوج استعان بالسلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون ليستخدم نفوذه لدى الأمير عثمان كى يكف عن البيزنطيين ، وقداشتدت ضرباته عليهم سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م (١٤٥)

وحينما مرض السلطان العثمانى بايزيد الأول ، أرسل هدية إلى السلطان المملوكى برقوق وطلب منه إرسال طبيب من أطباء القاهرة لعلاجه ، فأرسل له السلطان برقوق الطبيب شمس الدين محمد بن محمد الصغير وأعطاه ما قد يحتاجه السلطان من الأدويه والعقاقير (١٤٦)

وحينما ظهر تيمور لنك وأخذ يهدد الدولة المملوكية فى سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤م بادر السلطان العثمانى بايزيد بارسال مبعوث من قبله للسلطان المملوكى برقوق يحمل رسالة يقول فيها بايزيد : إنه جهز لنصرة السلطان مائتى ألف جندى ، وأنه فى انتظار الرد حتى يرسلهم ، فاستقبل السلطان برقوق المبعوث استقبالاً طيبا وشكر لبايزيد موقفه وأرسل له رداً مطمئناً (١٤٧)

وفى سنة ٨٤٩ / ١٤٤٥ م تنازل السلطان مراد بن محمد بن بايزيد الأول عن العرش لابنه محمد (١٤٨) فأرسل السلطان محمد رسالة إلى السلطان المملوكى جقمق يخبره بذلك ويطلب أن يكون تحت رعاية السلطان (١٤٩)

واستمرت العلاقات الودية بين المماليك والعثمانيين حتى تولى السلطان بايزيد الثانى السلطة ، إذ سرعان ما انقلب الود والوئام إلى تنازع وخصام ويري المؤرخ ابن إياس أن الخلاف بين العثمانيين والمماليك بدا حينما أرسل أحد ملوك الهند هدية حافلة إلى السلطان العثمانى بايزيد مع بعض تجار الهند ، فلما وصل إلى جدة ، قبض عليه نائب جدة وأحضر الهدية إلى السلطان وكان من ضمن الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص ثمينه فطمع السلطان المملوكى فى الهدية وأخذ الخنجر فلما بلغ الخبر السلطان العثمانى غضب لهذا التصرف مما جعل السلطان المملوكى يرسل له الهدية والخنجر ويعتذر عما حدث (١٥٠)

والحقيقة أن الصراع بين العثمانيين والمماليك بدا قبل ذلك ، وبالتحديد منذ امتدت فتوحات الدولة العثمانية حتى آسيا الصغرى واقتربت حدودها من حدود سلطنة المماليك فى أعالى بلاد الشام ، مما مهد السبل للاحتكاك بين الدولتين .

وقد بدأ الاحتكاك عقب الصراعات الداخلية التى قامت بين العثمانيين وتولى السلطان العثمانى بايزيد الثانى أمور السلطنة فى بلاده ، وقد نازعه على السلطنة أخوه جم (جمجمة) ودخل مع بايزيد فى حروب ، لكنه لم يستطع الصمود أمام قوات بايزيد ففرمن الأناضول ، وقدم إلى طرسوس ، وطلب من نائب حلب السماح له بدخول حلب و منها إلى مصر [١٥١] ، فاتصل نائب حلب بالسلطان قايتباى الذى أذن له واستقبله استقبالاً طيباً وخلع عليه وأنزله بدار ابن جلود كاتب المماليك هو ووالدته وأولاده [١٥٢] .

ولم يكن التجاء جم إلى مصر إلا ليستعين بالسلطان المملوكى قايتباى على أخيه، وعلى الرغم من أن قايتباى بالغ فى إكرامه فلم يدر بخلده أن يعاونه بجيش ضد أخيه ، فلما يئس جم من هذه الناحية ورأى أن المماليك لن يقفوا معه فى صراعه مع أخيه فكر فى مغادرة مصر ، وحاول قايتباى أن يثنيه عن السفر لكنه أصرّ إصراراً شديداً على الرحيل ، وغادر مصر على كره من قايتباى والمماليك [١٥٣] ولم يغفر السلطان بايزيد لقايتباى إيواء جم وظن أنه هو الذى سهل لأخيه الخروج من مصر حتى يدبر أموره ويحاربه ، لذلك فقد انتهز فرصة تمرد على دولات شقيق شاه سوار أمير دولقادر [١٥٤] على الدولة المملوكيه وأمده بالجيش والسلاح فالتقى بهم نائب حلب سنة ٨٨٩ هـ /١٤٨٤م لكنه هزم وقتل مع عدد كبير من الجند المملوكى [١٥٥] مما اضطر المماليك إلى معاودة القتال فى العام نفسه مع العثمانيين فانتصر الجند المملوكى انتصاراً ساحقاً [١٥٦] وعقب هذه المعركة التى دارت بين الجند العثمانى والجند المملوكى سعى السلطان قايتباى إلى الصلح مع بايزيد فأرسل له هدية بنحو عشرة آلاف دينار ، كما أرسل الخليفة العباسى إليه تقليداً بتوليته كل ما تحت يده من بلاد ، وما قد يفتحه بعد ذلك ، ومع التقليد رسالة لإزالة هذه الفتنة وعودة الود والصلح بينه وبين السلطان المملوكى [١٥٧] وفى سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م عاد المبعوث المصرى جانى بك حبيب من عند السلطان العثمانى وأخبر المماليك بأن السلطان العثمانى يرفض

الصلح ويتوعد الجند المصرى (١٥٨) فشرع المماليك يستعدون لجولة جديدة مع العثمانيين.

وفى العام التالى وقع الصدام المتوقع بين الجيش المملوكى والجيش العثمانى فهزم العثمانيون هزيمة شديدة وقتل منهم عدد كبير وأسر قائد الجيش العثمانى أحمد بن هرسك، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير (١٥٩) ولم يكن السلطان العثمانى ليقبل بهذه الهزيمة فالتقى جيشه مع الجيش المملوكى سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م ودارت معركه شديدة بين الفريقين قتل فيها عدد كبير من الجانبين ثم دارت الدائرة على الجند العثمانى فانهزم وغنم المصريون منهم أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك (١٦٠) واستمرت المعارك المتقطعة بين الجانبين حتى استقر الرأى بعد مفاوضات متصلة على عقد الصلح بين السلطان العثمانى بايزيد والسلطان المملوكى قايتباى وتم الصلح وتبادل الجانبان الهدايا والمجاملات الوديه (١٦١) .

استمرت العلاقات الوديه بين الجانبين قرابة ربع قرن من الزمان فكانت الوفود الرسمية (القصاد) تتبادل الزيارات بصورة دائمة ، وكان أصحاب الوفود يلقون الترحيب الدائم وحسن الاستقبال والحفاوة ، كما كانوا يحضرون ومعهم الهدايا الثمينه ويعودون بهدايا أثمن (١٦٢) .

فلما توفى بايزيد الثانى سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م وتولى ابنه السلطان سليم الأول تظاهر بالسير على سياسة الصداقة والود بينما كان يخفي أطماعه فى أملاك الدولة المملوكيه ويهيئ نفسه لهذا الأمر وينتظر الأسباب والمبررات التى تدفعه لإعلان الحرب على المماليك (١٦٣) .

وبدأت بوادر النزاع حينما قتل سليم الأول اخاه أحمد (١٦٤) لمنافسته له على الحكم وفر ولداه سليمان وعلاء الي مصر وأحسن السلطان الغورى استقبالهما مما أثار غضب السلطان سليم الأول ، لكنه كظم غيظه إلى الوقت المناسب وحتى يتخلص من الشاه اسماعيل الصفوى (١٦٥) وبدأ يعد العدة للقضاء عليه ورأى أن يعقد تحالفاً مع دولة المماليك السنية للقضاء على الصفويين الشيعة (١٦٦) لكن الغورى رفض هذا العرض ، ولم يكتف

بذلك، بل أرسل نديمه العجمى الشنقجي لعقد تحالف مع الصفويين ضد العثمانيين ويبدو أن أخبار هذا التحالف قد وصلت الى سليم (١٦٧) عقب انتصاره على الصفويين فقام بالاستيلاء علي إمارة ذلقادر ، وهى إمارة صغيرة كانت تتبع الدولة المملوكية ، وتقع على الحدود المشتركة بين الدول الثلاث الصفوية والعثمانية والمملوكية ، ولقد اعتبر المماليك ما فعله السلطان سليم الأول عملاً عدائياً موجهاً ضدهم بعد أن أرسل إليهم برؤوس أمير الإمارة وابنه ووزيره (١٦٨) وقد جعل هذا العمل الصدام بين الدولتين امراً لا مهرب منه (١٦٩) .

والحقيقة أن الخلاف بين المماليك والعثمانيين كان لابد وأن يصل إلى نهايته المحتومه ، فلم تكن المناوشات والحروب منذ أيام السلطان قايتباى والسلطان بايزيد الثانى إلا تمهيداً للمعركة الفاصلة التى وقعت على عهد السلطان سليم الأول ، بعد ان اقتربت حدود الدولة العثمانية من الأطراف الشماليه للدولة المملوكية ، فلا عداء الغورى ، ولا إيوائه الأمراء الفارين ، ولا معاهداته السريه مع الشاه إسماعيل الصفوى كانت سبباً فى النكبة التى حلت بدولة سلاطين المماليك (١٧٠) إنما هى رغبة السلطان سليم الأول الذى كان يرى أن العثمانيين أحق بالمكانة فى العالم الإسلامي من المكانة التى يتمتع بها سلاطين المماليك فى مصر ، وأن ذلك لن يتأتى إلا بنقل مقر الخلافه الإسلامية من القاهرة إلى إستانبول ، والتمتع بحماية الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة ، ولم يكن من الميسور الوصول إلى هذه الغاية الا بالقضاء على دولة المماليك التى بدأ الضعف يتطرق إليها .

نهـايـة الصـراع :

لجأ السلطان سليم الأول فى بداية صراعه مع السلطان الغورى إلى المكر والخداع حتى يأمن جانبه ولا يفكر فى تجميع جنده والاستعداد لملاقاته ، وحتى يسهل أخذه على غره ، فأرسل إليه خطاباً سياسياً مليئاً بعبارات التقدير والمودة والاحترام عقب هجومه على إمارة ذلقادر ، وقد أورد ابن إياس نص هـذا الخطـاب الـذى يقـول فيه : « أنت والدى ، وأسألك الدعاء ، وأنى ما زحفت على بلاد على دولات إلا بإذنك ، وأنه كان باغياً علىّ ، وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى ، حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد فى مملكتكم ، وكان قتله عين الصواب ، وأما ابن سوار الذى ولى مكانه فإن حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه ، أو تولوا غيره فالأمر راجع إليكم فى ذلك ، وأما

التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فإنى ما منعتهم إنما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا من جلب المماليك إليكم ، وإن البلاد الذى أخذتها من على دولات أعيدها لكم ، وجميع ما يرومه السلطان فعلناه » (١٧١)

لكن هذه المحاولة الخادعة لم تؤثر فى رأى السلطان الغورى الذى شعر بما يريده سليم الأول فأمر بالنداء فى الجند ، وأخذ يعد العدة لملاقاة العثمانيين ، وحشد جيشاً ضخماً ، وخرج إلى الشام فى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م ونزل بحلب وعسكر فيها انتظاراً لما سوف يحدث (١٧٢)

فلما علم سليم الأول بذلك أمعن فى المكر والخداع وأرسل إلى الغورى وفداً لطلب الصلح وبعض السكر والحلوى ، ويذكر ابن إياس أن قادة الوفد أخبروا الغورى أن السلطان سليم الأول قال لهم : « مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاورونى » (١٧٣)

ولعل الغورى قد آثر السلامة فاستجاب لمطلب سليم الأول وأرسل له مائة قنطار من السكر بالإضافة إلى كثير من الحلوى وأخذ يهيىء الرأى العام فى حلب لهذا الصلح ، وأمر قاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل أن يخطب فى الجامع الكبير بحلب عن أهمية الصلح مع المسلمين (١٧٤) .

ولما تيقن سليم الأول من استجابة الغورى لرغبته أرسل إليه يقول : « السلطان والدى ، وأسأله الدعاء ، لكن لا يدخل بينى وبين الصوفى ، فإنى ما أرجع عنه حتى أقطع جادرته من على وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا بشىء من أمر الصلح » وأظهر أنه متجه نحو الصفويين لقتالهم حتى ينخدع الغورى بذلك (١٧٥) .

ويبدو أن الغورى خدع آخر الأمر فى ذلك فخلع على الوفد العثمانى الخلع السنية، وأرسلهم وبصحبتهم الأمير مغلباى الدوادار لتقرير الصلح بينه وبين سليم الأول .

وفى سنه ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م حضر الأمير مغلباى رسول السلطان الغورى إلى العثمانيين وهو فى صورة مهينة وأخبر الغورى بأن سليم الأول وضعه فى الحديد ، وحلق لحيته ونكل به وأهانه ، وقال له « قل لأستاذك يلاقينى فى مرج دابق » (١٧٦)

وهكذا فاجأ سليم الأول المماليك بإعلان الحرب وأمر جيشه بالتقدم والاستيلاء على مدن الحدود كملطية وعينتاب ، وعلى الجانب الآخر فإن الغورى أمر جيشه بالخروج إلى مرج دابق والاستعداد للحرب (١٧٧) .

وفى يوم الأربعاء ٢٥ من رجب سنة ٩٢٢ هـ /٢٤ من أغسطس سنة ١٥١٦م التقى الجيشان عند مرج دابق شمالى حلب (١٧٨) ودارت معركة هائلة حيث حارب المماليك بشجاعة نادرة لدرجة أن السلطان سليم الأول راودته فكرة التقهقر لإعادة تنظيم صفوف قواته ، إلا أن نائب حلب الخائن خاير بك أنقذ العثمانيين فى هذه اللحظات الحرجة فأشاع بين صفوف الجند أن السلطان الغورى يأمر مماليكه الأجلاب بالايتقدموا مما جعل بقية طوائف المماليك تنفر من السلطان الغورى وتظن أنه يريد أن يجعلهم وقود المعركة ويحتفظ بمماليكه سلاماً معافين (١٧٩) ولم يكتف بذلك، بل أخذ قواته وانسحب بها من الميدان بعد أن أشاع أن السلطان الغورى سقط قتيلاً (١٨٠) أما جان بردى الغزالى نائب حماه فكان أكثر دهاءً من خاير بك فقد انسحب من مرج دابق متظاهراً بالهزيمة ، ولم يشعر به أحد حتى حضر إلى دمشق وتولى نيابتها باتفاق الأمراء (١٨١) وهكذا تفرقت صفوف المماليك وانهارت قواهم وحاول الغورى أن يوقف ذلك فصاح فى جنده الفارين « يا أغوات الشجاعة صبر ساعة »لكن ذلك لم يجد شيئاً ، ولم يتمكن الغورى من السيطرة على الموقف (١٨٢) برغم ما أبداه فى المعركة من شجاعة وبسالة و دارت الدائرة على المماليك ، ولما رأى الغورى ذلك طلب كوباً من الماء فشرب منه قليلاً ثم سقط عن فرسه ميتاً ، ويذكر ابن إياس أنه حين مات لم يعلم له خبر ولا وقف لـه أحـد علـى أثر ولا ظهرت جثته بين القتلى ، فكـأن الأرض انشقت وبلعته (١٨٣) .

ولعل أصحابه من المماليك الجلبان أخذوه وخرجوا به من ميدان القتال ودفنوه ثم عادوا للانضمام لأقرانهم فقضى عليهم العثمانيون وبالتالى لم يعلم أحد بخبرهم .

ولا شك أن الخيانة فى صفوف المماليك كانت أحد عوامل هزيمتهم فقد استطاع سليم الأول أن يرشو بعض اتباع الغورى مثل خايربك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب حماه كى ينضموا إليه ، ونجح فى ذلك .

وقد استطاع حاكم دمشق سيباى أن يكشف خيانة خايربك وأمسك بتلابيبه وجره بين يدى السلطان الغورى فى حلب وقال له : يامولانا السلطان إذا أردت أن ينصرك الله على عدوك فاقتل هذا الخائن ، وأنقذ خاير من القتل صديقه الخائن الآخر جان بردى الغزالى الذى اقنع الغورى بأن مقتل خاير سيؤدى إلى تفرقة كلمة المماليك فى وقت يواجهون فيه عدواً مشتركاً [١٨٤] وهكذا نجا الخائنان من القتل ونجحا فى إشاعة الذعر والهلع فى ميمنة وميسرة الجيش المملوكى حين أشاعا مقتل السلطان وفرا بجنودهما .

وساعد على هزيمة المماليك أيضاً استخدام الجيش العثمانى للأسلحة النارية ذات المرمى البعيد فى وقت كان المماليك فيه لايزالون يعتمدون على الأسلحة القديمة والبطولة الشخصية [١٨٥] .

الهوامش

١- محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانيه ١٢٢

الطبعه الثانيه - ١٩٩٣ - الهيئه المصريه العامه للكتاب

د . محمد حرب : العثمانيون فى التاريخ والحضارة ١٣

الطبعه الاولى ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م - دار القلم دمشق

٢- البدليسي : شرفنامه ٢/٦ دار احياء الكتب العربيه - عيسى البابلى الحلبى ١٩٦٢ ترجمة محمد على عونى - مراجعة يحيى الخشاب .

٣- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ٢

الطبعة الاولى ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م مكتبه ومطبعه مصطفى البابى الحلبى بمصر

٤- البدليسي : شرفنا مه ٢/٧

٥- ابراهيم حليم : التحفه الحليميه فى تاريخ الدولة العلية ٣١

الطبعة الاولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م مؤسسة الكتب الثقافيه . بيروت

٦- إيرين بيلديسينو : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ١٧ - ١٨

إشراف روبير مانتران - ترجمة بشير السباعى - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٩٣

٧- البدليسي : شرفنامه ٢/ ٨

٨- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانيه ٣٩ - دار الجيل - بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٧٧ م

ابراهيم حليم : التحفه الحليميه فى تاريخ الدوله العليه ٣١

٩- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ٢

١٠- المرجع السابق

١١- البدليسي : شرفنامه ٢ / ٩

١٢- محمد فريد : تاريخ الدوله العليه العثمانيه ٤٠

١٣- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ٢

١٤- محمد فريد : تاريخ الدولة العليه العثمانيه

١٥- البدليسي : شرفنامه ٢/٩ - ١٠

١٦- القرمانى : أخبار الدول وآثار الاول ٢٩٦

١٧- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ٣

١٨- القرمانى : اخبار الدول ٢٩٧

١٩- البدليسي : شرفنامه ٢/ ٢١

٢٠- القرمانى : اخبار الدول ٢٩٧
٢١- البدليسى : شرفنامه ٢ / ٢١
٢٢- المصدر السابق
٢٣- البدليسى ٢ / ٣٦
٢٤- المقريزى : السلوك ٢ / ١ / ٢٥٩
٢٥- القرمانى : أخبار الدول ٢٩٧
٢٦- البدليسى : شوفنا مه ٢/ ١٠
٢٧- المصدر السابق ٢ / ٢٨
٢٨- د . محمد حرب : العثمانيون ١٦
٢٩- المرجع السابق
٣٠- محمد فريد : تاريخ الدوله العليه العثمانيه ٤٢
٣١- المرجع السابق
٣٢- القرمانى : أخبار الدول ٢٩٧
٣٣- إبرين بيلد يسنوا : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٥٢
٣٤- محمد فريد : تاريخ الدوله العلية العثمانيه ٤٤
٣٥- المرجع السابق
٣٦- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ٦
٣٧- القرمانى : أخبار الدول ٢٩٩
٣٨- محمد حرب : العثمانيون ١٨
٣٩- البدليسى : شرفنامه ٢ / ٥٢
٤٠- محمد فريد : تاريخ الدول العليه ٦٤
٤١- المرجع السابق
٤٢- ابراهيم حليم : التحفه الحليمية فى تاريخ الدوله العليه ٤٦
٤٣- محمد حرب : العثمانيون ٢١
٤٤- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ٨
٤٥- ابراهيم حليم : التحفه الحليميه ٧٤
٤٦- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ١٠
٤٧- المرجع السابق
٤٨- محمد فريد : تاريخ الدوله العليه العثمانيه ٥١
٤٩- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ١١
٥٠- المرجع السابق

٥١- محمد فريد : تاريخ الدوله العليه ٥١

٥٢- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ١١

٥٣- المرجع السابق

٥٤- بول كولز : العثمانيون في اوربا ٣٣

٥٥- محمد فريد : تاريخ الدوله العليه ٥١

القرمانى : اخبار الدول ٣٠٢

البدليسى : شرفنامه ٢ / ٦٨

٥٦- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ١٢

٥٧- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٥٤

٥٨- القرمانى : أخبار الدول ٣٠٣ ـ ٣٠٤

٥٩- نيقولافاتان : تاريخ الدولة العثمانية ١٠٩

٦٠- بول كولز : العثمانيون فى أوربا ٣٣

٦١- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٥٦

٦٢- نيقولافاتان : تاريخ الدولة العثمانية ١٠٦

٦٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٥٧ ، البدليسى : شرفنامه ٢ / ٨٧ ، القرمانى : أخبار الدول ٣٠٥ ، . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ١٩.

٦٤- قسم الأمبراطور تيودور عند وفاته سنة ٣٧٥م الامبراطورية الرومانية إلى قسمين إمبراطورية غربية وعاصمتها روما وأخرى شرقية وعاصمتها القسطنطينية ليتفرغ امبراطور كل قسم للدفاع عنه ، ولم تعش الامبراطورية الغربية طويلاً فقد توالت عليها هجمات البرابرة حتى سقطت روما فى أيديهم سنة ٧٤٦ أما الامبراطورية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية فقد ظلت قائمة أكثر من عشرة قرون بفضل مناعة عاصمتها القسطنطينية ، فقد كانت هذه المدينة تحتل موقعاً فريداً بين مدن العالم فهى تقع عند ملتقى القارتين آسيا وأوربا وتحيط بها البحار من ثلاث جهات ، وقد أدرك المسلمون الأوائل أهمية القسطنطينية وخطورة موقعها فقاموا فى زمن الأمويين بالهجوم عليها ومحاصرتها براً وبحراً لكنها استعصت عليهم . (انظر: القرمانى : أخبار الدول ٣٠٨ ، البدليسى : شرفنامه ٢ / ٩٧ ،محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٦١ ، د . سالم الرشيدى :محمد الفاتح ٢٦ ـ ٢٨

٦٥- د . إبراهيم العدوى : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ٨٢ ـ ٨٣ مكتبة الشباب ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩م

٦٦- د . سالم الرشيدى : محمد الفاتح ٢٧

٦٧- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٥٩

٦٨- القرمانى : أخبار الدول ٣٠٨

٦٩- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٥٩

٧٠- المرجع السابق

٧١- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٦١

٧٢- بول كولز : العثمانيون فى أوربا ٣٤.

٧٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٦١

٧٤- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٣١ .

٧٥- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٦١

٧٦- البدليسى : شرفنامه ٢ / ٩٧ ، نيقولا قاتان : تاريخ الدولة العثمانية ١٢٣

٧٧- القرمانى : أخبار الدول ٣٠٨

٧٨- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ٤٣١

٧٩- نيقولا قاتان : تاريخ الدولة العثمانية ١٢٤

٨٠- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٦١

٨١- ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ٢ / ٣٢٥

٨٢- نيقولا قاتان : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٠

٨٣- المرجع السابق ١٣١ .

٨٤- البدليسى : شرفنامه ٢ / ١٠٩

٨٥- نيقولاقاتان : تاريخ الدولة العثمانية ١٥٢

٨٦- المرجع السابق

٨٧- ابن إياس : بدائع الزهور ٣ / ١٨٣

٨٨- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٧٠

٨٩- المرجع السابق ٧٣ ـ ٧٤

٩٠- أردبيل : مدينة تقع فى شرقى إقليم أذربيجان قريباً من بحر قزوين ويرى ياقوت أنها من أشهر مدن أذربيجان (ياقوت : معجم البلدان ١ / ١٤٥ ، د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ٧٠)

٩١- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٣٩

٩٢- المذهب الشيعى الإمامى أو الاثنا عشرى أو الجعفرى هو المذهب القائل بعصمة الإمام الشيعى وبأن الأئمة اثنا عشر إماماً أولهم على بن أبى طالب وآخرهم محمد بن الحسن العسكرى وهو الإمام الغائب أو المهدى المنتظر عند الشيعة الإمامية ويسمى هذا المذهب بالجعفرى نسبة إلى الإمام جعفر الصادق وهو الإمام السادس عندهم وقد كتب الفقه الإسلامى من وجهة نظر الشيعة وسمى مذهبه « الجعفرى » وهو المذهب الرسمى فى إيران منذ قيام الدولة الصفوية إلى الآن (د . عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام ٦٦)

٩٣- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤٠

٩٤- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ٧١ ـ ٧٢

٩٥- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٩٥ .

٩٦- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٣٩ .

٩٧- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٩٥

٩٨- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٠٣ .

٩٩- دولة الشاه البيضاء أو الآق قيونلية أو البايندرية ، كانت فى الأصل عشيرة تركمانية كبيرة هاجرت من تركستان إلى أذربيجان ثم إلى نواحى دياربكر ثم أسكنت فى النهاية الأراضى الواقعة بين آمد والموصل وكونوا دولتهم فى أواخر القرن الثامن الهجرى ، وأشهر حكام هذه الدولة هو حسن بك الملقب بـ« أوزون » أى الطويل وتاريخ جلوسه على العرش غير محدد فهو يتراوح بين سنتى ٨٥٧ و ٨٧١ هـ وربما يرجع هذا الخلاف إلى أن بعض المؤرخين يرون أن تاريخ جلوسه هو تاريخ توليته رئاسة العشيرة الآق قيونلية فى ديار بكر سنة ٨٥٧ هـ بينما يرى البعض الآخر أن بداية سلطنته كانت سنة ٨٧١ هـ حين استولى على اذربيجان واتخذها عاصمة له ، ويرى البعض أن سبب تسميتهم بالشاه البيضاء هو اعلامهم التى تحمل هذا الشعار بينما يرى آخرون أنه لون أغنامهم ، وقد توفى أوزون حسن سنة ٨٨٢ هـ / ١٤٧٨م (انظر : د / أحمد السعيد سليمان تاريخ الدول الإسلامية ٢ / ٥٣٨ ، عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٢٩ ، ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الإسلام ٢٣٦)

١٠٠- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٩٤ .

١٠١- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ٧٣.

١٠٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٩٥ .

١٠٣- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤٠

١٠٤- البدليسى : شرفنامه ٢ / ١١٩

١٠٥- عباس اقبال : تاريخ إيران ٦٤٠

١٠٦- أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٢ / ٥٤٤

١٠٧- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤٠

١٠٨- القرمانى : أخبار الدول ٣٢٤ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٩٦

١٠٩- أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٢ / ٥٤٤ .

١١٠- يقول ياقوت : إن جيلان اسم لقرى كثيرة من وراء بلاد طبرستان وهى قرى فى مروج بين جبال وهى تنطق جيلان والعجم ينطقونها كيلان (معجم البلدان ٢ / ٢٠١)

١١١- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤١

١١٢- المرجع السابق

١١٣- المرجع السابق

١١٤- مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ٧٣

١١٥- البدليسى : شرفنامه ٢ / ١٢٠

١١٦- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤١

١١٧- كارل بروكمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٩٧

١١٨- د . عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام ٦٧

١١٩- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤١ .

١٢٠- كارل بروكمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٩٧

١٢١- د . عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام ٦٧

١٢٢- استولى تيمورلنك على جميع أجزاء إيران وضمها لملكه ولما توفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ هـ كثرت المنازعات والحروب بين أبنائه وأحفاده فاستفادت القبائل التركية المقيمة فى القسم الشمالى الغربى من إيران من هنا التفكك فى البيت التيمورى وأخذت تقتطع أجزاء من ممتلكات الدولة التيمورية فتمكنت قبائل القره قيونلو (أصحاب الخراف السوداء) أو (الشاه السوداء)من الاستيلاء على أذربيجان سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨م واتسع نفوذ هذه القبائل حتى بلغ بغداد كما تمكنت قبائل الآق قيونلو (أصحاب الخراف البيضاء) أو(الشاه البيضاء)من هزيمة « القره قيونلو والاستيلاء على الاقليم الغربى من إيران، بينما كان ابناء تيمور يحكمون الإقليم الشرقى من إيران ، وظلوا يحكمون هذا الاقليم حتى عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م حين استولى عليه الشاه اسماعيل الصفوى . (انظر : د . عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام ٦٠ ـ ٦١ ، د . أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٢ / ٥٣٥ ـ ٥٣٩ ، ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الإسلام ٢٣٥ ـ ٢٤٠ .

١٢٣- ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الإسلام ٢٣٧

١٢٤- د . أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٥٤٥

١٢٥- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤٢ ، د . عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام ٧٢

١٢٦- ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الإسلام ٢٣٨

١٢٧- د . إبراهيم أنيس : الدولة العثمانية ١٠٤ .

١٢٨- د . عبد المنعم حسنين : إيران فى ظل الإسلام ٧٠

١٢٩- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٠٤

١٣٠- المرجع السابق

١٣١- البدليسى : شرفنامه ٢ / ١٣٠

١٣٢- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٠٤

١٣٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٧٣

١٣٤- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٠٤

١٣٥- يذكر المؤرخ الشيعى عباس إقبال أن السلطان سليم الأول « أظهر بغضه للشيعة بأن أمر بقتل كل شيعى يسكن الأناضول فقتل نتيجة تنفيذ هذه النية القبيحة نحو أربعين ألفاً من الأناضول » ويرد عليه المستشرق الفرنسى جان لوى باكى جرامون فيقول : « وليس هناك ما يسمح بتأييد الأسطورة التى

تتحدث عن ذبح ٤٠٠٠٠ مهرطقاً ، والذى قيل إنه حدث فى عام ١٥١٣ أو فى عام ١٥١٤ ، إذ يبدو أنها شديدة التأثر بـ« دوار الأرقام الشرقى » .

(انظر : عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤٥ ، جان لوى باكى جرامون ، تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٢٠٩)

١٣٦- محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٠٤

١٣٧- جان لوى : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٢٠٩

١٣٨- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٧٤

١٣٩- د . عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام ٧٣

١٤٠- جان لوى : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٢١١

١٤١- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٠٥

١٤٢- عباس إقبال : تاريخ إيران ٦٤٦

١٤٣- د . عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام ٧٨

١٤٤- المرجع السابق

١٤٥- المقريزى : السلوك ٢ / ١ / ٢٥٩

١٤٦- المصدر السابق ٣ / ٢ / ٧٩٠

١٤٧- المصدر السابق ٧/ ٨

١٤٨- في سنة ٨٤٨ هـ ١٤٤٤ م توفي اكبر اولاد السلطان مراد بن محمد بن بايزيد واسمه علاء الدين فحزن عليه والد ه حزناً شديداً وسئم الحياة فتنازل عن الملك لابنه محمد البالغ من العمر اربع عشرة سنة وسافر هو الى ولاية آيدين للإقامة فيها

(انظر : محمد فريد : تاريخ الدوله العليه ٥٧)

١٤٩- ابن تغري بردي : حوادث الدهور ١/ ١٢٣

١٥٠- ابن إياس : بدائع الزهور ٣/ ٢١٥

١٥١- محمد احمد دهمان : العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك ١٨١

١٥٢- ابن اياس : بدائع الزهور ٣ / ١٨٥

١٥٣- ابن إياس : بدائع الزهور٣ / ١٩٢

١٥٤- يرد هذا الاسم فى الكتب بصور شتى هى : ذلغادر، دولغدر ذو لقادر - دولقادر - دلقدر - درقدر - طايل قدر وقد حكم ابناء هذه الاسره فى مرعش وألبستان وفيما حولهما وفي ملطيه وخربوت ما يقرب من مائه وتسعين عاماً ، وكانوا يدخلون بحكم موقعهم الجغرافى فى منطقة نفوذ مصر والشام .

(انظر ك د . احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلاميه ٢ / ٤٢٩)

١٥٥- ابن إياس : بدائع الزهور ٣ / ٢١٠

١٥٦- المصدر السابق

١٥٧- المصدر السابق ٢١٣ ، ٢١٥

١٥٨- المصدر السابق ٢٢١

١٥٩- محمد دهمان : العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ١٨٦

١٦٠- ابن إياس : بدائع الزهور ٢٥٦/٢

١٦١- تاريخ البصروى ١٤٧ - ١٤٨

١٦٢- محمد دهمان : العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ٩٩

١٦٣- المرجع السابق

١٦٤- قتل السلطان سليم جميع إخوته حتى لاينافسه أحد منهم على الملك كما قتل على دولات أمير ذو لقادر وهو جده لأمه لانضمامه إلى المماليك فى مصر (المرجع السابق ٢٢٩)

١٦٥- المرجع السابق ٢٣٢

١٦٦- المرجع السابق

١٦٧- ابن اياس : بدائع الزهور ٥٣/٥

١٦٨- المصدر السابق ٤٥٨/٤ ، ٤٦٢

١٦٩- Lane-Pool , Stanly , Turkey , P 158 (London , 1922)- Wiet, G, L'Egypte Arab , Histoire de la Nation Egyptienne, P 632 - 633 . (Paris 1926 - 1937)

١٧٠- د . نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ٣٢ .

١٧١- ابن إياس : بدائع الزهور ٥ / ٤٥

١٧٢- المصدر السابق ٦٠

١٧٣- المصدر السابق

١٧٤- المصدر السابق ٦٢

١٧٥- المصدر السابق ٦٠

١٧٦- المصدر السابق ٦٨

١٧٧- المصدر السابق ٦٤

١٧٨- د . سعيد عاشور : العصر المماليكى ١٩٢

١٧٩- المرجع السابق

١٨٠- محمد دهمان : العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك ٢٦٢

١٨١- المرجع السابق

١٨٢- ابن إياس : بدائع الزهور ٧١/٥

١٨٣- المصدر السابق

١٨٤- د . سعيد عاشور : العصر المماليكى ١٩٢

١٨٥- محمد الدهان : العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك ٢٥٨

Bibliotheca Alexandrina

أولاً: السيطرة على الشام ومصر :

لما رأى السلطان سليم الأول عمق الهزيمة التى أنزلها بالمماليك وسع نطاق الحرب وتساقطت تباعاً فى يده ، وفى غير عناء المدن الكبرى فى الشام ، وبدأ بحلب التى فرّ نائبها « قانصوه الأشرفى » حينما سمع بما حدث فى مرج دابق ، وتوجه إلى دمشق مع جنوده ، وترك أبواب قلعة حلب مفتحة فلما علم سليم الأول بذلك أرسل جندياً أعرج كما يقول ابن إياس فصعد القلعة ولم يجد بها مانعاً يرده فاستولى على القلعة وأخذ مافيها من المال والسلاح و التحف وغيرها [1] وحضر سليم إلى حلب فصلى صلاة الجمعة بها وخطب باسمه ، ودعى له على المنابر فى مدينة حلب وأعمالها [2]

لم يمكث السلطان سليم فى حلب سوى ثمانية عشر يوماً ، نظم فيها جيشه وأعاد ترتيب قواته ثم غادرها عبر وادى بعلبك الخصيب إلى حماه وحمص فاستولى عليهما ثم تقدم نحو دمشق [3] فدخلها بعد مفاوضات قصيرة [4] وأقام فيها قرابة شهرين يرتب شئونها وتسابق إليه الأمراء والأعيان يعلنون ولاءهم للحكم الجديد، بينما كانت فلول الجيش المملوكى تتراجع منهزمة نحو مصر [5] ، ثم خرج من دمشق قاصداً التوجه نحو الديار المصرية فتسلم طرابلس وصفد وغزة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدة بلاد مما حولها ويذكر ابن إياس أنه تسلم هذه الأماكن بالأمان من غير حرب ولا مانع يمنعه مما لم يتفق لأحد من السلاطين قبله [6] ، وتشجع سليم على غزو مصر بعد غزو الشام .

وكان أمراء المماليك فى مصر حينما علموا بخبر هزيمة الجيش المملوكى فى الشام ومقتل السلطان الغورى ، بادروا باختيار طومان باى نائب الغيبة [7] سلطاناً للدولة المملوكيـــة [8] .

فورث طومان باى بذلك تركة مثقلة وتولى السلطنة فى ظروف صعبة لا يحسده عليها حاكم ، لكنه بذل كل ما فى وسعه لتنظيم قواته للدفاع .

ويرى بعض الباحثين أن السلطان العثمانى لم يكن يريد الزحف إلى مصر لأنه كان يأمل أن تؤدى معركة مرج دابق إلى سقوط دولة المماليك نهائياً ، لذا فإنه أرسل إلى طومان

باى عقب تسلمه دفة الأمور فى مصر خلفاً للسلطان الغورى كتاباً شديد اللهجة يهدده فيه ويطلب منه الاعتراف بالسيادة العثمانية [٩] ويقول فيه : « إن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة باسمنا ، وكذلك الخطبة وتكون نائباً عنّا بمصر ولك من غزة إلى مصر ، ولنا من الشام إلى الفرات ، وإن لم تدخل تحت طاعتنا ، أدخل إلى مصر ، وأقتل جميع من بها من الأتراك » [١٠] يقصد المماليك .

والحقيقة أننا نرى أن هذا الخطاب هو محاولة من محاولات سليم الأول الخادعة ، وقد تميز بذلك ، فقد خدع الغورى من قبل ، وبالتالى فهو يريد خداع طومان باى حتى يشيع الاضطراب فى صفوف جنده ، ويضطر إلى الدخول فى طاعة العثمانيين والاعتراف بسلطانهم ثم يقوم بالإجهاز عليه .

وقد أدرك طومان باى مغزى خطاب سليم الأول فأخذ يحشد قواته استعداداً للمعركة رافضاً عرض السلطان العثمانى ، وقام بشراء قدر من البنادق والمدافع من مدينة البندقية ليسلح بها جنده ، وأقام خط دفاع عند الصالحية ليعوق تقدم الجيش العثمانى [١١] .

ولما رأى سليم الأول أن طومان باى يرفض الاستسلام زحف بجيوشه من الشام تجاه حدود مصر فاستولى على غزة ، وتجنب خط دفاع الصالحية وانحرف جنوبياً مخترقاً صحراء سيناء ودخل الدلتا حتى بلبيس و فوجىء طومان باى بسليم الأول وجنوده عند الريدانية (بين المطرية والجبل الأحمر) [١٢] فى التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة٩٢٢هـ الموافق الثانى والعشرين من يناير سنة ١٥١٧م [١٣] ونشب القتال بين الطرفين ، وأظهر طومان باى شجاعة وبسالة منقطعة النظير وقتل من العثمانيين عدد كبير على رأسهم سنان باشا الوزير العثمانى [١٤] ، ورغم هذه الشجاعة فإن فرداً واحداً مهماً بلغت قوة إرادته وشجاعته لا يستطيع أن يتغلب على جيش متماسك كبير فحلت الهزيمة بالمماليك وتغلب عليهم سليم الأول بمدافعه ومدافعهم التى استولى عليها وقت الحرب [١٥] وفر طومان باى بعد ثمانية أيام من القتال من أمام العثمانيين الذين دخلوا مدينة القاهرة فى ٨ محرم سنة ٩٢٣ هـ رغماً عن مقاومة المماليك الذين حاربوهم من شارع لآخر ومن منزل إلى لآخر حتى قتل منهم ومن أهالى البلد عدد كبير واشتركت النساء مع الرجال فى القتال حتى قيل

إن نساء مصر كانت ترميهم بالأحجار والحدايد والمثقلات من الشبابيك (١٦) ، ولم يقطع طومان باى الأمل فى انتصاره على العثمانيين فنقل مقر قيادته من القاهرة إلى الجيزة ليواصل الحرب من هناك والتف حوله بعض القبائل فى الصعيد ، وجمع جيشاً كبيراً واشتد بأسه هناك (١٧) حتى أن سليم الأول حاول استمالته مرة أخرى فعرض عليه وقف القتال على أن يحكم الصعيد تحت السيادة العثمانية ، لكن طومان باى رفض العرض(١٨) واستمر القتال شديداً بين الطرفين ، وهناك ظهرت عوامل الخيانة مرة أخرى إذ فوجىء طومان باى أثناء جهوده القوية على ضفاف النيل بالجيزة بهجوم البدو والأعراب على مؤخرته مما اضطره إلى التقهقر بالقرب من وردان حيث دارت معركة بين جيشه الصغير والعثمانيين ، فانتصر العثمانيون عليه (١٩) ففر إلى أحد مشايخ الأعراب بمديرية البحيرة ، ويدعى حسن مرعى طالباً حمايته لكن هذا الشيخ نسى ما كان لطومان باى من فضل سابق عليه ، إذ كان قد أخرجه من السجن أيام الغورى ، فتنكر له وسلمه للعثمانيين (٢٠) .

ولما وقع طومان باى فى قبضة السلطان العثمانى سليم الأول ، فرح السلطان العثمانى، وصاح « الآن ملكنا مصر » (٢١) .

ويرجع قوله هذا إلى ما أبداه طومان باى من الشجاعة والاستبسال فى مقاومة أعدائه.

ويبدو أن سليم الأول أعجب بشجاعة طومان باى فأراد الابقاء على حياته ، لولا أن الخائنين خايربك ، وجان بردى الغزالى أوغرا صدره عليه فأمر بشنقه (٢٢) فاستقبل أمر إعدامه بشجاعة منقطعة النظير وقد وصف المؤرخ ابن إياس ما حدث لطومان باى بأبرع وصف وأدق تصوير ، فقال :«فلما بلغ ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باى فحنق من ذلك ، وعدّى به فلما طلع من بولاق شق من المقس وقدامه نحو اربعمائة عثمانى ورماة بالنفط ، فطلع من على سوق مرجوش وشقّ من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويله ، وهو لا يدرى ما يصنع به ، فلما أتى إلى باب زويله أنزلوه من على الفرس ، وأرخو له الحبال ، ووقفت حوله العثمانية بالسيوف ، فلما تحقق أن يشنق ، وقف على أقدامه على باب زويله وقال للناس الذين حوله : اقرأوا لى

سورة الفاتحة ثلاث مرات فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلي : اعمل شغلك ، فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به ، فسقط على عتبة باب زويله ، وقيل انقطع به الحبل مرتين ، وهو يقع إلى الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس » (٢٣) .

ويبين ابن إياس مدى حب الشعب له وحزنه عليه ، فيقول : « فلما شنق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل، سنه نحو أربع وأربعين سنة ، وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان ، وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى وكسرهم ثلاث مرات » (٢٤) .

وبمقتل طومان باى انتهت المقاومة المملوكية ، وزالت دولة المماليك ، وصارت مصر ولاية إياله ـ عثمانية تتبع السلطان العثمانى فى استانبول .

ثانيا : السيادة العثمانية على الحجاز :

حينما قامت الدولة المملوكية فى مصر ، اهتم المماليك ببسط نفوذهم على الحجاز نظراً للصلات الوطيدة بين البلدين ، والتى تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ نتيجة القرب الجغرافى بينهما ، فقد كانت ـ ومازالت ـ أنظار ساكنى مصر تهفو دائماً تجاه الحرمين الشريفين وقلوبهم تمتلىء حباً لهما ورغبة فى القرب منهما حيث مهبط الوحى وموطن الرسالة والنبوة

ويرجع اهتمام المماليك بالحجاز إلى زمن الظاهر بيبرس البندقدارى الذى ساعدته الظروف السياسية فى الحجاز آنذاك على السيطرة وفرض النفوذ المملوكى هناك بسبب النزاع الدائم بين الأشراف مما جعل بعضهم يلجأ إلى المماليك طلباً لعونهم ومساعدتهم ، ففى سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨م وقع خلاف بين الشريف أبى نمى (٢٥) وعمه إدريس بن قتاده(٢٦) وقد استطاع أبو نمى هزيمة عمه أدريس ، وأخرجه من مكة وانفرد بالإمارة وخطب لبيبرس حتى يضمن مساندته له (٢٧) وكان هذا إيذاناً بتدخل بيبرس فى شئون الحجاز ، فعين نائباً له بالحجاز (٢٨) ليرجع إليه أشراف الحجاز عند حدوث خلافات بينهم ويكون الحل والعقد على يده (٢٩) .

وقد استمرت علاقات الدولة المملوكية الأولى طيبة بأشراف الحجاز بالرغم من بعض الخلافات اليسيرة (٣٠).

وحينما قامت دولة المماليك الثانية بمصر ظل الحجاز تابعاً لها ولقب السلطان برقوق بلقب سلطان مصر والحجاز واستمر الأشراف يتبعون سلاطين المماليك الجراكسة الذين تمكنوا من فرض نفوذهم على الأشراف فكانوا يولون إمرة مكه للشريف الذين يدين لهم بالولاء ، فإذا ثبت مخالفته لأوامرهم قرروا عزله واستبداله بشريف آخر يطيع أوامرهم(٣١) .

فلما سقطت دولة المماليك فى يد العثمانيين كان من الطبيعى أن يتبع ذلك سقوط الحجاز ، ومما ساعد على ذلك أن العلاقات بين مصر والحجاز قد اتسمت بشئ من الحدة فى نهاية الدولة المملوكية مما جعل السلطان الغورى يقبض على بعض القضاة ورجال العلم من أهل الحجاز ويعتقلهم بتهمة إثارة الفتنة ضد المماليك فى الحجاز فلما دخل سليم الأول إلى مصر أطلق سراح جميع المعتقلين الحجازيين (٣٢) وعلى رأسهم قاضى مكة المكرمة صلاح الدين بن أبى مسعود الذى أشار عليه بأن يكتب إلى شريف مكة المكرمة الشريف بركات يدعوه إلى الدخول فى طاعة العثمانيين « لأن الرجل خلوق ومسالم وحكيم » (٣٣) ، واستجاب الشريف بركات للدعوة التى تلقاها من السلطان سليم وأرسل إليه ابنه ويسمى الشريف أبى نمى إلى القاهرة على رأس وفد حجازى يهنئه بانتصاره على المماليك ، ويعلن الدخول فى طاعته وأرسل مع ابنه بعض الهدايا للسلطان العثمانى بالإضافة إلى مفاتيح الحرمين الشريفين رمزاً لطاعته وتأكيداً لولائه (٣٤) .

وقد أحسن السلطان سليم الأول استقبال الوفد الحجازى لأنه كان يسعى من أجل الفوز بلقب «خادم الحرمين الشريفين » حتى تكون له المنزلة السامية بين المسلمين واستمر أعضاء الوفد فى مصر فترة ثم قرروا العودة إلى بلادهم فأعادهم السلطان فى موكب مهيب وصفه ابن إياس فقال : « خرج إلى السفر ابن السيد شريف بركات أمير مكة فتوجه إلى وطاقة بالريدانية فكان له موكب حفل ، واخلع عليه قفطان تماسيح مذهباً وقدامه الرماة بالنفط ، وخرج صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وأشيع أن السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضاً عن الباش الذى كان بها ، وجعله هو المتصرف فى أمر مكة قاطبة ، وأضاف له نظر الحسبة بمكة أيضاً

وأنصفه غاية الإنصاف فتزايدت عظمة الشريف بركات إلى الغاية وأكرم ولده غاية الإكرام[٣٥] .

وهكذا دخل الحجاز في طاعة العثمانيين دخولاً سلمياً واحتفظ بنظام الشرافة كما كان أيام المماليك مع إنشاء صنجقية عثمانية في جدة يتولاها أحد الأمراء العثمانيين [٣٦]

ويبدو أن الشريف بركات وجد في انضمامه للعثمانيين الفرصة لتقوية نفوذه ، ومركزه أمام الأشراف الطامعين في منصبه وبخاصة أن الأمر لا يعدو أن يكون تغييراً شكلياً تنتقل فيه السيادة من المماليك إلى العثمانيين دون أن يترتب على ذلك أى تغيير داخلي .

وكان من أبرز نتائج السيادة العثمانية على الحجاز هو ظهور العثمانيين في البحر الأحمر ، ومحاولتهم السيطرة عليه ودفع الخطر البرتغالي عنه ؛ بل إنهم فرضوا تقليداً جديداً يقضي بمنع دخول المراكب المسيحية في البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز ، وهو التقليد الذي ظلت الدولة العثمانية متمسكة به لفترة طويلة [٣٧]

وقد أفاد هذا التقليد أقطار الوطن العربي ، ومنع الدول الاستعمارية الأوربية من تحقيق أطماعها في العالم العربي حتى القرن التاسع عشر [٣٨]

ثالثاً : النفوذ العثماني في اليمن :

سار العثمانيون في البحر الأحمر على نفس السياسة الحربية التي سار عليها المماليك وهي اتخاذ اليمن بصفة عامه ، وعدن بصفة خاصة قاعدة ارتكاز ضد البرتغاليين في المحيط الهندي وحماية البحر الأحمر من تهديدهم ، ومحاولة إدخال النفوذ العثماني في الخليج العربي من قاعدة اليمن لتوجيه الضربات من هناك إلى إيران نفسها [٣٩] وقد خاض العثمانيون صراعاً طويلاً وعنيفاً من أجل السيطرة على اليمن وإخضاعه لنفوذهم ، واضطر إلى إعادة فتحه أكثر من مرة ، ويرجع ذلك إلى الطبيعة الجبلية القاسية التي يتميز بها اليمن ، وإلى النظام القبلي بها ، بالإضافة إلى أن أغلب اليمنيين من الشيعة الزيدية ، والعثمانيون من السنة المتشددة .

ولم يخضع من اليمن بصفه شبه دائمة سوى بعض المناطق الساحلية التي اتخذها العثمانيون مراكز للسيطرة على البحر الأحمر من الجنوب ، ومنع دخول البرتغاليين فيه أو تقدمهم إليه [٤٠].

والحقيقة أن دخول العثمانيين إلى اليمن فى بادىء الأمر كان سلمياً كالحجاز فقد وجد القائد المملوكى اسكندر محمد الجركسى ومعه معظم المماليك أنه من الأجدى إعلان الولاء للسلطان العثمانى حتى يظل للمماليك فى اليمن كيان واضح [٤١] فأعلن طاعته للسلطان سليم ، وخطب باسمه على منابر صنعاء ، وسمى باسكندر المخضرم لأنه تولى فى عهدين متلاحقين ، عهد الجراكسة المماليك وعهد العثمانيين [٤٢]

وعقب رجوع اسكندر إلى زبيد اشتعلت الصراعات القبلية بين اليمنيين لفترة طويلة واكتفى العثمانيون فى هذه الفترة بفرض سلطانهم على بعض المناطق الشمالية ، وبخاصة مدينة زبيد ، وميناء الحديدة [٤٣].

ولما ساءت الأمور فى اليمن بسبب الصراعات الداخلية ، رأى العثمانيون إرسال حملة إلى اليمن للقضاء على الصراعات الداخلية فيه ، وحمايته من الأطماع الخارجية ، فتحركت حملة بحرية من ميناء السويس إلى اليمن سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨م وكانت هذه الحملة بقيادة سليمان باشا الخادم الذى خرج على رأس أسطول يتألف من ٨٠ سفينة و ١٢٠ ألف جندى، فكانت هذه الحملة أول حملة رئيسية إلى اليمن ، وهى تعد بداية المجهود العثمانى الحقيقى فى هذا الميدان [٤٤].

وقد نجحت هذه الحملة فى فرض السيطرة العثمانية على سواحل اليمن الغربية الجنوبية بأساليب الحيلة والغدر ، إذ بمجرد وصول سليمان باشا إلى عدن استقبله عامرين داود الطاهرى وأحسن استقباله ، وفتح أبواب المدينة أمامه ، لكنه قبض عليه وأمر بشنقه ، ثم أمر بقتل من بقى من آل طاهر بحجة خيانتهم للمسلمين وتعاونهم مع البرتغاليين [٤٥].

ويعد عامرين داود آخر الحكام الطاهريين ، وبموته انتهى حكم هذه الأسرة من اليمن ، تم للعثمانيين الاستيلاء على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم ، وقامت الحملة بتحصينها وتقويتها بالمدافع لتكون خط الدفاع الأول عن البحر الأحمر ، وعين سليمان أميراً عثمانياً عليها هو الأمير بهرام ومعه حاميه من ٥٠٠ جندى [٤٦].

وتلى سقوط عدن فى يد العثمانيين أن خرج سليمان باشا الخادم بأسطوله إلى الهند لمساعدة المسلمين هناك فاستولى على عدد كبير من السفن البرتغالية فى الطريق واستطاع

بالتعاون مع القوات الإسلامية فى الهند أن يضرب الحصار على قلعة « ديو » وكادت القلعة أن تسقط فى يد العثمانيين لولا وصول أسطول برتغالى شد من أزر البرتغاليين المحاصرين ، ويقال : إن الهنود هم الذين أوهموهم بوصول هذا الأسطول ليتخلصوا منهم ، وكانت قد وصلتهم أنباء غدر سليمان باشا وخيانته فى عدن فخافوا أن يغدر بهم إذا تم له النصر فتخلوا عنه (٤٧)

وعاد سليمان باشا إلى اليمن يجر أذيال الخيبة ، وتفرغ بعد ذلك لفتح بقية الموانىء اليمنية كالشحر والمخاوزبيد ، وقتل حاكم زبيد المملوكى وعين قائداً عثمانياً مكانه (٤٨) .

وكان القضاء على الطاهريين والمماليك يعنى بداية المواجهة المباشرة مع الزيديين وهم القوة الباقية فى اليمن فحاول سليمان باشا أن يستدرج الإمام شرف الدين من مقر مركز الإمامية الزيدية ، ولكنه فشل فعاد إلى مصر(٤٩) وكانت أهم نتائج حملة سليمان باشا هى الاستيلاء على السواحل اليمنية من جيزان شمالاً إلى الشجر جنوباً ، أما الجهات الداخلية فظلت فى أيدى الزيديين كما أنها قضت نهائياً على كل من المماليك والطاهريين إلا أنها فشلت فى الهند ، وبالتالى لم يفكر العثمانيون فى سياسة هجومية ضد البرتغاليين ، وظلت سياستهم دفاعية عن البحر الأحمر ومحاولة إغلاقه فى وجه البحرية البرتغالية (٥٠) .

وفشل العثمانيون أيضاً فى مقاومة الوجود البرتغالى فى الخليج العربى الذى أقام له مراكز استعمارية هناك ، وتحالف مع الصفويين فى بلاد فارس ، كما قضت حملة سليمان باشا على كل أمل فى قيام تحالف بين العثمانيين وبين القوى الإسلامية فى المحيط الهندى مما جعلهم يعجزون عن ضرب السيطرة البرتغالية فى البحار الشرقية (٥١)

وقامت عدة حملات أخرى على اليمن ، لكنها فشلت فى تدعيم النفوذ العثمانى داخل البلاد (٥٢) .

وخلاصة القول إن النفوذ العثمانى لم يتغلغل فى اليمن ، وإنما اكتفى باتخاذ نقاط ارتكاز له على سواحل البحر الأحمر ، وبداخلة حتى يستطيع أن يوقف التقدم البرتغالى فيه، وأن يحمى الأماكن المقدسة فى الحجاز من تهديده .

رابعاً : ضم العراق :

عندما استولى الشاه إسماعيل الصفوى على العراق أعمل السيف فى زعامات السنة

فى العراق فاستغاثوا بالسلطان العثمانى سليم الأول فكان ذلك من العوامل التى دفعت السلطان سليم إلى شن الحرب على الفرس لكنه اكتفى عقب معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م بإعلان حاكم بغداد الولاء له ، ويضم دياربكر والموصل إلى دولته [٥٣] .

أما العراق الأوسط والجنوبى فقد ظل فى يد الايرانيين [٥٤] ومن ثم كان لابد للعثمانيين من مواصلة سياستهم لضم العراق كله ، وإبعاد النفوذ الإيرانى منه نهائياً ، لكن الصفويين وقفوا لهم بالمرصاد ، ودارت بين الدولتين معارك متعددة حاولت كل منها أن تجذب العراق إليها لتستأثر به وتحمى مصالحها فيه [٥٥]

ولقد بدأ النفوذ العثمانى فى التغلغل داخل العراق عقب تولى ذو الفقار الحكم وثورته على خان العراق من قبل الشاه الصفوى ، ولكى يؤمن جانبه من انتقام الشاه فقد أرسل إلى السلطان العثمانى سليمان يرجوه فى قبول تبعيته ، ومنحه الحماية سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م مما اضطر الشاه إلى تدبير مؤامرة لقتل ذو الفقار ، ونجحت المؤامرة ، واقتحمت جيوش الشاه بغداد ، وقتل ذو الفقار ، وانتهت مدة حكمه القصيرة ، وسلمت مدينة بغداد إلى محمد خان لحساب الصفويين [٥٦]

ولم يقبل العثمانيون عودة العراق إلى النفوذ العثمانى فجهز السلطان سليمان القانونى حملة عسكرية ضخمه سنه ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م [٥٧] استطاع أن يستولى بها على المناطق الكردية ، ودخل تبريز وأخضعها لسلطة العثمانيين ثم دخل بغداد دون مقاومة ومكث بها أربعة أشهر يرتب أمورها ، ويعمل على استتباب الحكم فيها ، وقد انتهج فى خلال تلك الفترة سياسة حكيمة أنصف فيها كلاً من الشيعة والسنة لأن العراق موزع توزيعاً يكاد يكون متساوياً بين السنة والشيعة [٥٨] .

وهكذا دان العراق كله للسيطرة العثمانية ، وأتاح لهم الإشراف على الخليج من الشمال والغرب .

وقبل مغادرة السلطان سليمان القانونى العراق أسرع الشيخ العربى راشد بن مغامس الذى كان يحكم البصرة فأعلن خضوعه للعثمانيين ، فالحقت البصره بالممتلكات العثمانية ، وأصبحت إياله (ولاية) عثمانية [٥٩] .

ولم ينه الفتح العثمانى للعراق زمن السلطان سليمان القانونى النزاع العثمانى حول هذه البلاد (٦٠) إذ سرعان ما سقط العراق فى يد الصفويين سنة ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٣م وبقوا به لمدة خمس سنوات ، إلى أن قاد السلطان العثمانى مراد حملة عسكرية سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م استولى بها على العراق وأعاده إلى حظيرة الدولة العثمانية (٦١) .

ولم تكن حملة مراد على العراق آخر مراحل الصراع بين الايرانيين والعثمانيين ، إذ أنه عقب سقوط الصفويين فى إيران على يد نادر شاه سنة ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣م ، حاول هذا الحاكم الجديد الاستيلاء على العراق أكثر من مرة ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة بين إيران وتركيا حددت الحدود التقليدية بين الدولتين على أن يدخل العراق فى حوزة الدولة العثمانية ، وبهذه المعاهدة انتهت فترة الصراع الطويلة بين الايرانيين والعثمانيين على العراق (٦٢) .

نتائج السيطرة العثمانية على المشرق الإسلامى

بدأت دراسة الدولة العثمانية فى معاهد الاستشراق والجامعات الأوربية فى القرن السادس عشر الميلادى ، للتعرف على هذا العدو العملاق الذى تقدم تقدماً كبيراً فى أوربا بصورة لم تحدث من قبل ، فكانت هذه الدراسة عدائية للإسلام وبالتالى للعثمانيين ، ولما وفد الطلاب من العالم الإسلامى إلى الجامعات الأوربية فحصلوا ضمن ماحصلوا تاريخ وحضارة العثمانيين بوجهة النظر الأوربية ، وعادوا إلى بلادهم ليدرسوا تاريخ العثمانيين بهذه الصورة العدائية ، وتناقلت عدة أجيال هذا التاريخ وهذا العداء [٦٣] الذى يتجاهل تلك الصفحات المشرقة من تاريخ الأمة الإسلامية ، فتاريخ الدولة العثمانية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ الإسلامى ، وحينما نتجاهل هذا التاريخ ، فكأننا نتجاهل النظام الإسلامى الذى كان يحكم البشرية على امتداد فترات طويلة من تاريخها ، وهو جزء من التجربة الناجحة للأمة المسلمة التى كان فى يدها قياد البشرية ، وثبت صلاحية هذا النظام لكل زمان ومكان ولتوجيه الحياة فى جنباتها العقدية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية [٦٤]

والحقيقة أن الدولة العثمانية أعادت لمنطقة الشرق الإسلامى وحدتها السياسية المفقودة منذ نهاية العصر العباسى الأول وأعادت إلى الأذهان تاريخ الدول الإسلامية الكبرى ، كالدولة الأموية ، والعباسية حيث كان العالم الإسلامى يتجمع فى إطار نطاق سياسى واحد لدولة واحدة تتحقق منها الوحدة الإسلامية [٦٥] فقد امتدت الحدود السياسية للدولة العثمانية لتشمل أحياناً إيران والعراق وأذربيجان وأرمينيا ، وشبه الجزيرة العربية وسورية وفلسطين ومصر وتونس والجزائر حتى حدود المغرب وشبه جزيرة الاناضول ، وجزيرة البلقان ، وأوربا الشرقية حتى جنوب فيينا ، وأبواب لينيجراد بما فى ذلك بلجراد وصربيا والجبل الأسود وكوسوفو والسنجق والبوسنة والهرسك ، أى أن حدودها السياسية امتدت فى افريقيا وآسيا وأوربا من إيران شرقاً إلى أسوار فيينا غرباً ومن الحبشة جنوباً إلى المجر شمالاً .[٦٦]

ونستطيع أن نقول إن العثمانيين قد استفادوا أيضاً من بسط سيادتهم على منطقة الشرق فقد أصبحت بلادهم امبراطورية مترامية الأطراف تمتد حدودها الجنوبية إلى المحيط الهندى والبحر العربى ، وتخضع لها مياه البحر الأحمر والبحر المتوسط والخليج العربى ، حيث أضحى كل هذا خاضعاً للبحرية العثمانية ، كما أضافت لها ممتلكاتها فى أفريقية وآسيا عمقاً استراتيجياً واقتصادياً جعلها تصمد للدسائس الأوربية التى كانت تدبر لها وبخاصة بعد التقدم الأوربى فى المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية. (٦٧)

ولأن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية فإنها حملت راية الخلافة الإسلامية بعد سقوط الدولة المملوكية وتنازل الخليفة العباسى « محمد المتوكل » عن الخلافة للسلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وصارت الدولة العثمانية هى المسئولة عن حماية العالم الإسلامى (٦٨) واستطاعت أن تحفظ منطقة الشرق الإسلامى من زحف الاستعمار البرتغالى الذى كان يتقدم بخطا سريعة لتثبيت أقدامه فى المناطق الجنوبية على الساحل الأسيوى والأفريقى ، والتقدم من المداخل البحرية إلى عمق الدول العربية ، وبالتالى تأخر سقوط الدول العربية فى قبضة الاستعمار الأوربى الحديث ما يقرب من أربعة قرون من بداية القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر (٦٩)

ولقد خلص العثمانيون العرب المسلمين من الاستبداد والظلم والعنت الذى كان يلحقهم على أيد أمراء وقواد وجند المماليك الذين كانوا يتفننون فى ابتكار الأساليب لارغام الناس على دفع الأتاوات والضرائب لهم (٧٠)

واستطاع العثمانيون السنيون الوقوف كسد منيع أمام انتشار المذهب الشيعى الصفوى فى العالم العربى فحفظوا له سيادة المذهب السنى ، باستثناء بعض الجيوب الشيعية الضعيفة فى العراق والشام واليمن وإمارات الخليج العربى ، ولم تكن لهذه الجيوب أية تطلعات خارج حدودها بالإضافة إلى وجود خلافات بينها وبين الشيعة فى إيران (٧١)

ومما لاشك فيه أن الحكم العثمانى قد ساعد على تأكيد الحياة الدينية لسكان الشرق الإسلامى بتمسكه بأحكام ومبادىء الشريعة الإسلامية وإن كانت هناك القوانين الوضعية التى كانت تتعلق بالتفصيلات دون المبادىء (٧٢)

واهتم العثمانيون باللغة العربية فجعلوها لغة أولى فى جميع المعاهد التعلمية ودرسوا بها كافة العلوم ، فصارت هى لغة الثقافة والأدب والعلوم ، وكتبوا بها كتب الفقة كما كتبوا بها كتب التراجم مثل الشقائق النعمانية لطاشكيرى زاده ، وكتب التاريخ مثل جامع الدول لمنجم باشا أحمد دده ، وتاريخ (العليم الزاخر فى علوم الأوائل والأواخر) للعالم التركى جنابى ، وكتبوا بها المقامات مثل مقامات عيدى ، واشتقوا من العربية اصطلاحات علمية كثيرة ، وهناك فى تركيا الآن تنشط حركة تنقية اللغة التركية من الكلمات والمصطلحات العربية ، فالأتراك المحدثون يتهمون العثمانيين بأنهم أهملوا اللغة التركية على حساب اللغة العربية وبأن العثمانيين أسهموا فى إثراء الثقافة العربية وكان الأولى أن يهتموا بتطوير الثقافة التركية [٧٣]

وكان العثمانيون لا يفرقون بين مسلم وآخر مهما كان انتماؤه العرقى والقومى وصار العرب شركاء للأتراك العثمانيين فى الحكم ومما يدل على ذلك أن السلطان سليم الأول وهو فى دمشق استقبل وفداً من أمراء لبنان على رأسه فخر الدين المعنى الأول من أهل الشوف وجمال الدين التنوخى من الغرب وعساف التركمانى من كسروان فثبتهم فى إقطاعاتهم ، وترك لهم الامتيازات التى كانوا ينعمون بها فى عهد المماليك [٧٤] وأشراف الحجاز الذين ترك لهم سليم الأول الحرية فى إدارة أمور البلاد كما بينا فيما سبق ، ولا ننسى السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى الذى دفع حياته ثمناً لمقاومته الباسلة للحملة الفرنسية على مصر [٧٥]

ولم يرهق العثمانيون رعاياهم فى الشرق الإسلامى بالضرائب الباهظة ؛ بل كان التشريع الضرائبى العثمانى بسيطاً وفى صالح كل من الحكام والمحكومين فإذا قورنت الضرائب التى دفعها الفلاحون والتجار فى مصر والشام أيام المماليك ، وفى العراق أيام الصفويين بما دفعوه أيام الحكم العثمانى لوجدنا أن الضرائب فى زمن العثمانيين كانت أخف وطأه ، فلم يكن العثمانيون يسعون إلى إرهاق الطوائف المنتجة من الفلاحين والتجار بالضرائب أو المغارم كما كان يحدث من قبل [٧٦]

ضعف الدولة العثمانية

حين استكملت الدولة العثمانية عناصر قوتها ومجدها ، بدأت تدخل دور التدهور والضعف ، وتدهور الدولة وضعفها يرجع في المحل الأول إلى عدة عوامل داخلية أهمها يلي :

أولا : ضعف السلاطين :

صار السلاطين العثمانيون بعد سليمان القانوني سلسلة من الحكام الضعاف الذين يفتقرون إلى دراية لاحتياجات الامبراطورية الجديدة ، [٧٧] وانغمسوا في حياة اللهو والترف الذي نجم عن ازدياد الثروة ، وتكدسها في خرائن السلطان نتيجة للفتوحات المتتالية ، وتدفق الأموال من الولايات المختلفة ، وكان السلطان سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م) إبن السلطان سليمان القانوني مثالاً سيئاً لهذه الحالة التي انغمس فيها السلاطين من بعده ، ولذلك لقب بالمجنون ، وقد حذا الجيش حذوه فأفرط الجند في الشراب وأهملوا واجباتهم العسكرية .

وحينما تولى مراد الثالث (٩٨٤ - ١٠٠٣هـ / ١٥٧٦ - ١٥٩٤م) الحكم خلفاً لأبية سار على نهجة واتبع طريقته ، ووقع تحت تأثير رجال حاشيته وندمائه [٧٨]

ولعبت النساء دوراً كبيراً في تشكيل سياسة الدولة على عهدة [٧٩] وعهد مراد الرابع الذي تسلطت عليه جارية بندقية كانت تدعى « بافو » استغلت مكانتها لدى السلطان وساعدت بلادها عسكرياً وسياسياً ضد مصلحة الدولة العثمانية ، وهكذا كان الزواج من الاجنبيات والركون إليهن سبباً من أسباب ضعف الدولة وانهيارها نتيجة تضارب الولاء وتضارب المصالح [٨٠]

ثانيا : انحراف الإنكشارية :

بدأ التفكير في إنشاء جند الإنكشارية زمن السلطان أورخان الأول (٧٢٦ - ٧٦١هـ ١٣٢٠ - ١٣٦٠م) فقد أشار خير الدين باشا على السلطان العثماني بأن يجمع أسرى الحرب من الشباب وأن يعزلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم ، ويعمل على تربيتهم

تربية إسلامية عثمانية صحيحة بحيث لا يعرفون لهم أبا إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد فى سبيل الله فأعجب السلطان أورخان هذا الرأى ، وأمر بتنفيذه ، وسمى هذا الجيش بالتركية (يكيجارى) أى الجيش الجديد ، ثم حرف فى العربية فصار انكشارى (٨١)

وقد ارتقى هذا الجيش فى النظام وزاد عدده حتى صار لا يعول إلا عليه فى الحروب ، وكان هو من أكبر وأهم عوامل امتداد سلطة الدولة العثمانية ، ثم انهم خرجوا فيما بعد عن حدودهم ، وتعدوا واستبدوا مما جعلهم سبباً من أسباب تأخر الدولة وتقهقرها (٨٢)

والحقيقة إن الانكشارية لعبوا دوراً مؤثراً فى تحقيق المجد الحربى للدولة العثمانية زمن السلاطين العظام مما جعلهم يحاولون فرض كلمتهم سواء فى المجال العسكرى أو السياسى ، وعندما كان السلاطين أقوياء كانوا يقفون لهم بالمرصاد ، ففى أثناء صراع السلطان سليم الأول مع الشاه إسماعيل الصفوى امتنعت الانكشارية عن مطاردة الشاه داخل صحراء إيران فاضطر السلطان سليم إلى الرضوخ لهم (٨٣) ، وعاد إلى البلاد حيث أنزل بهم أشد العقاب وقبض على كثير من قادة الجند الانكشارية الذين كانوا سبباً فى الامتناع عن التقدم ، وقتلهم خشية انتشار الفساد (٨٤)

وفى عهد السلطان سليمان القانونى تذمر الانكشارية وأعلنوا العصيان سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٥م ونهبوا سراى إبراهيم باشا الصدر الاعظم وعدة أماكن أخرى من منازل الأعيان فأسرع السلطان بالسيطرة على الأمور وكفهم عن السلب والنهب ، والتعدى على ممتلكات الناس وقبض على رؤسائهم الذين كانوا سبباً فى هذه الفتنة وقتلهم (٨٥)

وقد لعبت الانكشارية دوراً رئيسياً فى مقتل مصطفى بن السلطان سليمان وكان صاحب شخصية قوية وولو بدلاً منه سلطاناً ضعيفاً هو السلطان سليم الثانى الذى توقفت فى عهده الفتوحات العثمانية فى أوربا (٨٦)

ولما ضعف السلاطين وأصبحت إدارة الامبراطورية نهباً موزعاً بين مختلف القوى الحاكمة ، وجد الانكشارية فرصتهم لإملاء كلمتهم فقد رفضوا أوامر السلطان مراد الثالث بتحريم الخمر ومنعهم من تعاطيه (٨٧) ، ثم ثاروا عليه عندما علموا أنه يعمل على تسوية نزاع الحدود مع الدولة الصفوية سنة ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥م مفضلين أن تظل الحدود على

مافى عليه حتى تكون فرصة مواتية لهم كلما حدث احتكاك بين الدولتين للسلب والنهب (٨٨)

وقد تدخلت الانكشارية فى تولية الوزراء وعزلهم فقد حاولوا الضغط على السلطان مراد الرابع لكى يخلع حافظ باشا عن الوزارة ويعيد خسرو باشا الذى عزله السلطان عقب فشله فى بغداد سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠م وقتلوا حافظ باشا بالرغم من دفاع السلطان عنه وقد تكرر هذا الموقف مرة أخرى سنة ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م عندما أجبروا السلطان أحمد الثالث على تسليم الوزير قبودان قائد البحرية إليهم حيث قتل والقيت جثته فى البحر ، ثم عزلوا السلطان نفسه فى ذلك اليوم (٨٩)

ولقد حاول جند الانكشارية منع استخدام الوسائل الحديثة فى التدريب أو الاعتماد على الأسلحة المتطورة ووقفوا ضد كل جديد متطور مما مكن أوربا من هزيمة العثمانيين والتغلب على محاولاتهم للاستيلاء على « فيينا » وبسبب التخلف الحربى للانكشارية فقدت الدولة الكثير فى عهد السلطان محمد الرابع ومن بعده السلطان سليمان الثانى حيث استولت النمسا على عدد من القلاع والحصون ، كما استولت المجر على بعض المدن ، وضاعت أجزاء كثيرة من البلقان فى اليونان والصرب ، وبعض السواحل والممتلكات الأوربية الشهيرة ، ولم يستطع السلطان مصطفى الثانى بعد ذلك أن يستعيد شيئاً مما فقدته الدولة واضطر إلى توقيع معاهده « كارلوفيتز » ١١١٠هـ / ١٦٩٩م (٩٠)

وتنازلت الدولة العثمانية بمقتضاها عن بلاد المجر كلها واقليم ترنسلفانيا للنمسا ، ومدينة أزاق وميناءها البحرى لروسيا ، كما تنازلت لبولونيا عن مدينة كامينك واقليمى بودوليا واوكروين و للبندقية عن جزيرة مورا إلى نهر هكساميلون واقليم دلماسيا على البحر الادرياتيكى وبهذه المعاهدة فقدت الدولة جزءاً غير قليل من أملاكها فى أوربا وزادت أطماع الأعداء فيها (٩١)

وقد أدرك السلاطين الخطر المحدق بهم من قبل الانكشارية لكنهم لم يستطيعوا القضاء عليهم إلى أن تمكن السلطان محمود الثانى (١٢٢٣ - ١٢٥٥هـ / ١٨٠٨ - ١٨٣٩م) من القضاء عليهم حيث صبّ عليهم نيران الأسطول والمدفعية إلى أن أجهز عليهم تماماً (٩٢)، ولكن بعد أن أشرفت الدولة على الانهيار .

ثالثاً: فساد الإدارة المركزية والمحلية:

أسرف الولاه وكبار الموظفين العثمانيين فى سوء السيرة ، وانتشر الفساد ، وأصبحت الرشوة عملاً طبيعياً لا يلام عليه أحد ، ومن أغرب صور الرشوة ما تقاضاه الصدر الأعظم « بلطة جى محمد باشا » من الروس أعدء الدولة ليهيىء للامبراطور الروسى بطرس الأكبر وجيشة أن يفلتوا من أسر كاد يكون أمراً لا مفرّ منه فى المعارك التى جرت بين الروس والعثمانيين سنة ١١٢٣ هـ / ١٧١١م [٩٣]

والحقيقة أن ازدياد نفوذ الصدر الاعظم كان نتيجة طبيعية لضعف السلطة ، فالصدر الأعظم كان يتصرف فى كل التعيينات فى وظائف الجيش والإدارة المركزية وإدارة الولايات مما دعاهم إلى الاستبداد بالسلطة واساءة استغلال النفوذ ، ومما جعل الأمور تتفاقم ويتزايد خطرها أن الانكشارية وقفت خلف الصدور العظام وأيدتهم فى مسلكهم ، بل فرضتهم أحياناً بالقوة على السلطان ، ومع أن نمو هذه الفئة كان نتيجة طبيعية لضعف السلاطين ؛ إلا أن هؤلاء الصدور العظام لم يستطيعوا سد الفراغ الذى تركه ذهاب السلاطين العظام [٩٤].

ولقد أثرت هذه المفاسد السياسية والإدارية التى ملأت أرجاء العاصمة فى كثير من ولايات الدولة المختلفة فاستبد الولاه بالحكم واتسعت دائرة اختصاصاتهم ففرضوا الضرائب الباهظة على المواطنين لاسترداد ما قدموه من هدايا ورشاو للوزراء وكبار المسئولين ، ثم كان تزايد نفوذ الحاميات العثمانية وصراعها مع الولاه سبباً آخر من أسباب الفوضى والفساد . كما أن الولاه أنفسهم بدأوا يفكرون فى مطامعهم الشخصية وتوسيع نفوذهم علي حساب جيرانهم ، واستعانت الدولة ببعضهم ضد البعض الآخر ، وتغاضت عن مخالفتهم ، مما أدى إلى ظهور الشخصيات القوية التى حاولت الانفراد بالحكم وتمردت على الدولة العثمانية فكان هذا مظهراً آخر من مظاهر ضعف الدولة [٩٥]

رابعا : حركات التمرد والدعوة للإنفصال :

استعانت الدولة العثمانية ببعض العناص المحلية في شئون حكم الولايات ، واتخذت منهم ادوات تحفظ التوازن بين السلطات العثمانية المختلفة لتضمن عدم انفراد اى سلطة منها بالحكم ، غير ان هذا الهدف أتى بعكس المراد منه لانه ادى الى ازدياد نفوذ هذه العناصر ، فى الوقت الذي ضعفت فيه الدولة العثمانية نتيجة الحروب الخارجية ، وضعفت شخصية الولاة الذين انغمسوا فى الفساد وأهملوا أمور البلاد وشئون العباد ، وانصرفت الحاميات العثمانية الى تحقيق منافعها الخاصة [٩٦] مما ادى الى ظهور حركات التمرد والدعوة للانفصال ، ومن هذه الحركات :

أ- حركة على بك الكبير فى مصر:

لما سقطت دولة المماليك تحولت مصر الى ولاية عثمانية فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ، ووضع سليم الأول نظاماً لحكم البلاد يهدف الى بقاء مصر تابعة للسلطة العثمانية فقام بتوزيع السلطة داخل مصر بين ثلاث هيئات ، هى الوالى العثمانى الذي يحكم البلاد بصفته نائبا عن السلطان ، ثم الديوان الذى يضم الضباط العثمانيين ، وكبار الموظفين ، والعلماء والأعيان ، ثم المماليك الذين ترك لهم العثمانيون حكم الأقاليم[٩٧] .

وخلال القرن الثانى عشر الهجرى ، القرن الثامن عشر الميلادى حدث تغير فى هذا النظام اختلف به توزيع السلطات بين تلك الهيئات ، فبينما كان الوالى يعد صاحب النفوذ الأول فى البلاد لانه يمثل السلطان العثمانى وينوب عنه ، ويرمز بوجوده الى العلاقة القائمة بين الدولة والولاية ، اذ به يفقد سلطته تدريجياً ، حتى تضاءل نفوذه وتقلص ، ولم تعد اختصاصاته تتجاوز الإشراف على جمع الضرائب وتصديرها الى الاستانة [٩٨] ثم تبليغ الأوامر أوالمراسيم التى ترد من السلطان ، وأخذت السلطة الفعلية تنتقل إلى أيدى المماليك الذين اشتدت شوكتهم وصاروا قوة يخشى بأسها ، ونمت شخصية الزعيم الذى يختارونه أو الذى يفرض نفسه عليهم بالقوة حتى حلت محل شخصية الوالى[٩٩] الذى صارت سلطته اسمية ، والحكام الحقيقيون هم المماليك وأصبح زعيمهم يلقب بشيخ البلد [١٠٠] . ومن هؤلاء المماليك الذين وصلوا الى منصب شيخ البلد « على بك الكبير » الذي استغل انشغال الدولة

العثمانية بحروبهامع الامبروطورية الروسية ، وأعلن تمرده على السلطة العثمانية ، وقام بطرد الوالى العثمانى ، وأعلن استقلاله عن الدولة العثمانية ، ولم يكتف بهذا ، بل أخذ يبعث قواده للتعمق فى بلاد الدولة العثمانية [(١٠١)]

فمن هو على بك الكبير ؟ ومن أين أتى ؟ وماذا فعل للاستقلال بمصر ؟ كان على بك الكبير احد المماليك الذين جلبهم تجار الرقيق من منطقة القوقاز جنوبى البحر الأسود إلى الاسكندرية حيث اشتراه مدير الجمرك بها وقدمه هدية إلى ابراهيم كتخدا [(١٠٢)] الامير المملوكى الذي ثار على الوالى العثمانى وتولى الأمو ردونه ، ولم يعد للوالى معه أى نفوذ [(١٠٣)]

ويصف الجبرتى على بك الكبير بانه « كان قوى المراس ، شديد الشكيمة ، عظيم الهمة لا يميل لسوى الجد ولا يحب اللهو ولا المزاح ولا الهزل ، ويحب معالى الأمور من صغره[(١٠٤)] وقد اهتم الامير ابراهيم كتخدا بمملوكه فقربه منه واعتقه ، وما زال يرقيه حتى وصل الى رتبه « بك » وصار فى الطبقه الأولى من مماليك مصر [(١٠٥)]

فلما مات ابراهيم كتخدا عام ١١٦٨هـ / ١٧٥٤ ـ ١٧٥٥م [(١٠٦)] وتولى بعده ابنه عبد الرحمن تظاهر على بحبه والاخلاص له ، فاعتز به عبد الرحمن ، وركن إليه وجمع عليه قلوب الأمراء ، وقد استطاع على بك أن يصل بدهائه الى منصب شيخ البلد سنه ١١٧٧هـ/١٧٦٣ م [(١٠٧)] بفضل عبد الرحمن كتخدا الذى جمع أمراء المماليك وقال لهم : «أيها الأمراء من أنا ؟ فأجابه الجميع بقولهم : أنت أستاذنا وابن أستاذنا وصاحب ولائنا ، قال : إذا أمرت فيكم بأمر تنفذوه وتطيعوه ؟ قالوا : نعم . قال : على بك هذا يكون أميرنا وشيخ بلدنا » [(١٠٨)]

ويبدوا أن اختيار عبد الرحمن كتخدا لعلى بك ناتج عن استفحال أمره ، وازدياد قوته بأعوانه وأنصاره فأسلم له القياد وتركه يتولى الأمور دونه فاستقرت المشيخة لعلى بك منذ ذلك الوقت .

وقد بدأ على بك نضاله لتدعيم الأمور لنفسه ، ولتحقيق حلمه فى الاستقلال بالبلاد ، فأوقع بقطاع الطرق والمفسدين وقضى عليهم ، ثم اتجه إلى الموظفين الذين يقبلون الرشاوى

فانزل بهم أقصى العقاب ، وأخذ يضرب العابثين والمستهترين والخارجين على الأمن بيد لا ترحم ، كما نجح على بك خلال السنوات الخمس الأولى من المشيخة فى القضاء على زعماء قبائل العربان فى الوجهين البحرى والقبلى ، فقد نجح فى القضاء على شوكة عرب الحبايبه وزعيمهم سويلم بن حبيب المسيطرين على البلاد فى إقليمى الشرقيه والقليوبيه ، كما كسر شوكه عرب الهنادى بالبحيره، وبذلك تفرق الهنادى وعرب الجزيره والصوالحة وغيرهم (١٠٨)

وقد اكثر على بك من شراء المماليك وتربيتهم حتى أصبح له بهم جاه عظيم ، وكان فى قمتهم مملوكه الكبير محمد أبو الذهب ، ولم يكتف بذلك بل اتصل بقائد الأسطول الروسى بالبحر المتوسط ليمده بالأسلحة والذخائر حتي يتم استقلال مصر فساعده القائد الروسى(١١٠)

وأصبح من السهل أمام على بك التخلص من منافسيه ومعارضيه والقوى المختلفه التى تعوق طموحه في الاستقلال بحكم مصر فبدأ بسيده وابن سيده عبد الرحمن كتخدا فاوقع به ونفاه الى الحجاز ثم اتجه الى بقية المماليك وأخذ يتخلص منهم (١١١) سواء بالقتل أو النفى أو المطارده مع المصادرة حتى وصف أنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال منذ ظهر واقتدى به من أتى بعده (١١٢) .

ولكى يحكم على بك قبضته على البلاد شمالها وجنوبها اتجه للقضاء على زعامة محليه فى الصعيد تمثلت فى همام بن يوسف الهوارى الذى اتخذ من فر شوط مقرا له ، وأخذ يرسل الحملات العسكرية إليه بقياده مملوكه محمد أبى الذهب الذى تمكن من كسر شوكه عرب الهواره حتى مات همام بن يوسف كمداً وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد (١١٣)

دانت بذلك البلاد لعلى بك من أسوان الى الإسكندريه وأصبح هو الحاكم المنفذ على جميع أقاليم الوجهين القبلى والبحرى ، ولم يعد فى مصر من ينافسه (١١٤)

وشرع على بك فى إعداد جيش كبير يحقق له طموحاته فى الانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال بأمر مصر فلجأ الى استخدام جند مرتزقة من النوبيين والبدو إلى جانب شراء المماليك الذين اكثر منهم ولم يكتف بما أخذه من السلاح الروسي ، بل

جهزجيشه بقوة من المدفعيه لا بأس بها وأشرف عليها يونانيون ، وقد لعبت هذه المدفعيه دوراً كبيراً فى حملته على سوريا (١١٥)

أصبح على بك حاكماً مطلقاً على مصر رغم وجود الوالى العثمانى الذى لم يعد له سلطان ولا نفوذ ، مما أغضب الدولة العثمانية التى سعت للتخلص من على بك بأن أصدرت امراً الى واليها في القاهرة ليقتل على بك ، ويبدو أن هذا الرجل كان له أعوان يقظون فى استانبول ، فأبلغوه نبأ الرساله التى أرسلت الى الوالى العثمانى فى القاهرة بقتله ، فلما أوشك حامل الرسالة أن يصل إلى القاهرة ، كان رجال على بك يتربصون به ويترصدون له الطريق فلما رأوه قتلوه ؛ وجمع على بك المماليك فأخبرهم أن الدولة العثمانية أرسلت تطلب من الوالى قتل جميع المماليك فثارت حميتهم وأعلنوا خلع الوالى محمد باشا الأورفلى وأخرجوه من مصر وأعلن على بك استقلال مصر سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م (١١٦) ودعم هذا الإعلان بعدة قرارات تعد من مظاهر السيادة ، فقد رفض أن يسمح بوجود وال عثمانى فى القاهرة (١١٧) فلم ترسل الدولة أحداً منهم على مدى أربع سنوات ، (١١٨) أى حتى وفاه على بك ، ورفض أن يرسل الإيرادات المالية المعتادة الى استانبول ، وسك نقوداً حملت اسمه الى جانب اسم السلطان (١١٩) ثم نظر بعد ذلك الى دواوين الحكومة والى المناصب الكبيرة فأخرج منها من يعرف ميلهم الى العثمانيين، أما من لا يطمئن اليهم من المماليك فانه أمر الا يقتنى الواحد منهم أكثر من مملوك أو مملوكين ، بينما بلغ عدد مماليكه هو سته آلاف مملوك (١٢٠)

واستمر على بك في خطواته لتحقيق الانفصال ، وقد سار في طريق العداء للدولة العثمانية شوطاً بعيداً فعقد معاهدة تجارية بين مصر وانجلترا بعيدا عن العثمانيين ، كما عقد معاهدة سلمية مع البندقية بوسطه أحد تجارها ويدعى كارلوروستى carlo Ro-setti (١٢١) ، كما عقد معاهدة دفاعية مع روسيا (١٢٢) كى تقف بجانبه ضد العثمانيين .

ولم يكتف على بك بأن بسط سلطانه علي مصر كلها بل وجه أنظاره صوب الحجاز ليجعل منها مركزاً للتجارة مع الهند ، ولمراقبه الملاحة فى البحر الأحمر ، وواتته الفرصة حين وقع نزاع حول الشرافة فى الحجاز بين الشريف أحمد القائم فى الحكم وابن عمه

الشريف عبد الله الذى خرج عليه [١٢٣] وكان هذا دأب الأشراف في ذلك العهد ، فهم دائمو التطاحن والتنازع على الرياسة رغم ما بينهم من أواصر القربى [١٢٤]

فلما حضر الشريف عبد الله إلى مصر واستنجد بعلى بك طالباً عونه [١٢٥] أعد على بك حملة كبيرة بقيادة « محمد بك أبو الذهب » أحد كبار مماليكه ، وخرجت الحملة من مصر سنة ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م ومعها مايلزم من المدافع ومعدات القتال ، واتجهت صوب بلاد الحجاز ، فوصلت الى « ينبع » وعند وصولهم دارت معركة هائلة بين جنود الحملة وبين قبائل العرب والأشراف ، انتصرت فيها الجنود المصرية ، وقتل والى ينبع المعين من قبل أمير مكة ، ثمّ استمر قائد الحملة محمد بك أبو الذهب فى سيره حتى وصل مكة فدخلها منتصراً ، وفر الشريف أحمد هارباً من أمامه فاستولى على متاعه وأملاكه وولى ابن عمه الشريف عبد الله مكانه ، ثم أرسل أحد أتباعه من المماليك فاستولى على جده وعزل واليها العثمانى ، وقد عرف هذا المملوك فيما بعد بحسن بك الجداوى [١٢٦] وهكذا أصبح أشراف الحجاز يتبعون مصر كما كان الحال زمن الدولة المملوكية وقبل مقدم العثمانيين .

لما نجح على بك فى بسط نفوذه على الحجاز ، بدأ يفكر فى ضم بلاد الشام الى مصر وكانه أراد ان يعيد الوحدة بين مصر وبلاد الشام كما كانت زمن سلاطين المماليك ، وكان معجباً بهم [١٢٧]

وفى منتصف رجب سنة ١١٨٤ هـ الموافق ٤ نوفمبر ١٧٧٠ م بدأت الاستعدادات فى مصر لخروج حملة عسكرية إلى بلاد الشام [١٢٨] كان دافعها فى الظاهر هو تأديب والى دمشق « عثمان باشا الصادق » أو « الكرجى » المنتمى إلى آل العظم لأنه آوى المصريين الذين لجأوا إليه فراراً من على بك ، وامتنع عن تسليمهم [١٢٩] وشرع على بك فى عقد تحالف مع الشيخ ظاهر العمر حاكم صفد وعكا الذى ثار هو الأخر على العثمانيين وتعرضت إمارته للضغط من جانب الجيوش العثمانية ثم بدأ على بك فى إرسال حملات تمهيدية بعضها من طريق البر والبعض الأخر من طريق البحر عند دمياط [١٣٠] واستطاعت هذه الحملات أن تحقق بعض الانتصار ، مما دفعه الى إرسال حملة كبيرة بقيادة قائده محمد بك أبو الذهب الذى استطاع بمعاونه الشيخ ظاهر العمر أن ينتصر انتصاراً

ساحقاً على العثمانيين وأن يسيطر على كل من غزة ويافا ونابلس واللد والرملة وصيدا ثم دخل دمشق عنوة سنة ١١٨٥هـ/ ١٧٧١ (١٣١)

ويبدو أن الدولة العثمانية يئست من استخدام القوة ضد على بك فلجأت الى سياسة المكر والخديعة فأغرت قائد جيشه محمد أبو الذهب بولاية مصر كي ينقلب على سيده (١٣٢)

واستجاب محمد أبو الذهب للاغراءات والوعود العثمانية فانسحب من الشام وتوجه نحو مصر ودخل مع سيده فى صراع طويل انتهى بالمعركة الفاصلة فى الصالحية أوائل شهر صفر سنة ١١٨٧ هـ \ ١٧٧٣م حيث هزم على بك وسقط عن جواده جريحاً فأسره محمد بك أبو الذهب ، ولم يلبث أن توفى على بك الكبير ودفن بترية استاذه إبراهيم كتخدا بالقرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعى (١٣٣)

ويموت على بك الكبير عادت مصر إلى وضعها السابق داخل الدولة العثمانية ، ولكن بدرجة معقولة من الاستقلال ، ومنح محمد بك أبو الذهب لقب «شيخ البلد» (١٣٤) وأتى الوالى العثمانى إلى مصر ولم يكن له من الولاية سوى الاسم والتوقيع على الأوراق أما السلطة الفعلية فكانت بيد محمد بك (١٣٥) الذى اتبع سياسة سيده على بك الكبير مع نوع من المراعاة والمداراه تجعلها مقبولة من العثمانيين (١٣٦) الذين كانوا يدركون الهدف من هذه السياسة وينتظرون الوقت المناسب للقضاء عليه هو الآخر (١٣٧)

ويجدر بنا فى نهاية حديثنا عن حركة على بك الكبير أن نشير إلى أن الباحثين قد اختلفوا فى آرائهم حول طبيعة هذه الحركة (١٣٨) فمنهم من يرى أن مصر حققت استقلالها عن دولة الخلافة وعن كل تبعية أخرى قبل أن يتولى محمد على حكمها بنحو أربعين سنة ، وكان ذلك على يد على بك الكبير ، ولولا خيانة مملوكه (١٣٩) محمد أبوالذهب، ودسائس الدولة العثمانية لما فقدت مصر استقلالها .

ويرى البعض الآخر أنه كان يريد إعادة الدولة المملوكية إلى الوجود مرة أخرى (١٤٠)

والحقيقة أن حركة على بك الكبير تشبه الحركات الانفصالية التى كانت تحدث فى مصر زمن العباسيين كحركة الطولونيين والاخشيديين ، فأصحاب هذه الحركات كانوا يستقلون بمصر ويتبعون الخلافة من الناحية الاسمية (١٤١)

ونحن نرى أنه استقل بمصر استقلالاً فعلياً وإن ظل يتبع الدولة العثمانية من الناحية الاسمية فهو لم يتخذ لنفسه لقب سلطان طوال فترة حكمه لمصر وكان يرفض أن يذكر اسمه على المنابر والدليل على ذلك ماروواه الجبرتي في حوادث عام ١١٨٣ هـ حين قال : «ومما اتفق أن على بك صلى الجمعة في أوائل شهر رمضان بجامع الدوادية فخطب الشيخ عبدريه ودعا للسلطان ثم دعا لعلي بك ، فلما انقضت الصلاة ، وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلاً من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح ، فقال له : من أمرك بالدعاء باسمي على المنبر أقيل لك أني سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان ، وأنا أدعو لك ، فأظهر الغيظ وأمر بضربه » (١٤٢)

ومما يدل على تبعيته الاسمية للدولة العثمانية سكة للنقود التي كانت تحمل اسمه إلى جانب اسم السلطان العثماني (١٤٣) ، بل إن ذهابه إلى الحجاز لفض نزاع الاشراف هناك كان بالتماس من السلطان العثماني (١٤٤) الذي ظل الدعاء له على منابر مصر طوال سنوات حكم على بك الكبير (١٤٥) .

٢ - الأسر الدرزية (١٤٦) في لبنان :

في جبل لبنان تمردت الأسر المعنية الدرزية على الحكم العثماني وظهر من بينهم الأمير فخر الدين المعني الأول الذي توفي سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤م في بلاط الوالي العثماني بدمشق ، وابنه الأمير قرقماس الذي لقي مصرعه أثناء صراعه مع العثمانيين سنة ٩٩٤هـ/١٥٨٥م (١٤٧)

واشتهر من أفراد هذه الأسرة الأمير فخر الدين المعني الثاني الذي أعلن الثورة على العثمانيين منذ سنة ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م ولم يتعرض له العثمانيون آنذاك لانشغالهم في صراعات أخرى ، وتركوا له حكم بيروت وصيدا لقاء جزية سنوية يدفعها (١٤٨) لكنه عمل على توسيع قاعدة ملكه فاستولى على بعلبك سنة ١٠١٩هـ / ١٦١٠م وحاول احتلال دمشق فاضطرت الدولة إلى إرسال حملة بحرية للقضاء عليه ففر هارباً إلى إيطاليا (١٤٩) وأمضى هناك قرابة خمس سنوات أشاع فيها أن الدروز هم أعقاب لبعض الصليبيين الذين تاهوا في جبال لبنان ، وأن اسم الدروز مشتق من اسم كونت يدعى Dreux (١٥٠) ولعله أراد بذلك

أن يحصل على تأييد أوربا لحركته ضد العثمانيين ، إذ يذكر « فيليب حتى» أن مساعيه من أجل العودة بحملة من الدول الأوربية والبابا قد ذهبت سدى [١٥١] لأن الظروف الدولية لم تكن تسمح آنذاك بمثل ذلك .

وفى سنة ١٠٢٧هـ / ١٦١٨م عاد الأمير فخر الدين المعنى الثانى إلى لبنان بعد أن عفا عنه السلطان العثمانى الجديد عثمان الثانى ، وبدأ فى تنظيم شئون إمارته [١٥٢] واندفع فى العمل على فرنجة بلادة وأخذ يعمل على تطوير اقتصادياتها [١٥٣] فاستقدم من إيطاليا مهندسين مدنيين ومهندسين للرى وخبراء زراعيين استخدمهم فى مشاريعه العامة والخاصة ، وأرسل فى طلب الماشية لتحسين الاصناف المحلية ، وشجع هجرة المسيحيين من شمالي لبنان إلى جنوبه رغبة منه فى تنشيط الزراعة ، وأبدى عطفاً كبيراً على المسيحيين فى لبنان ، وقرب منه الارساليات الأوربية والتجار والقناصل ، ويرى بعض الباحثين أنه وسائر قومه من المعنيين قد اعتنقوا الإسلام فى الظاهر أمام أصحاب السلطة العثمانية ، ولكنهم احتفظوا ضمناً بالدرزية ومارسوها مع أبناء قومهم [١٥٤] والدليل على ذلك أن هذا الأمير لم يعرف عنه أنه كان يصلي ولا رآه أحد فى مسجد [١٥٥]

والحقيقة أن هذا الرجل ظل معادياً للعثمانيين طوال فترات حكمه ففى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١ أعلن ثورته على العثمانيين وزحف بجنوده إلى أن استولى على الساحل السورى حتى مدينة انطاكية ، ورفض السماح لجيش من جيوش السلطان العثمانى حشد لحرب فارس أن يقضى فصل الشتاء فى دياره وطرد هذا الجيش بقوه السلاح [١٥٦] لكن العثمانيين كانوا له بالمرصاد ، واستطاعوا القضاء عليه ، وجز رأسه في استانبول سنة ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م [١٥٧] وقضى العثمانيون على هذه الأسرة التى حاولت الانفصال عن الدولة وخرج أفرادها عن طاعتها .

وقد تسلمت أسرة درزية أخرى حكم لبنان خلفاً للأسرة المعنية وكانت هذه الأسرة تسمى بالأسرة الشهابية ، ومن أبرز زعماء هذه الأسرة الأمير بشير الشهابى الثاني الذى عمل على إصلاح الأحوال فى لبنان ووضع السلطة الكاملة فى يده ، واستطاع بالخديعة حيناً وبالحرب حيناً وبالمهادنة حيناً آخر أن يستقطب القوى المتنافرة فى لبنان ، فمع أنه

كان درزياً بصفة رسمية إلا أن هذا لم يمنعه أن يُظهر أمام الموارنة بأنه مسيحى حتى يضمن ولاء الموارنة وخضوعهم له فى ظل وحدة لبنان [158]

وقد استمر لبنان يعيش جواً من الانقسامات الطائفية حتى ثارت فتنة دينية سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م بين الدروز والموارنة واتسعت لتشمل المسيحيين والمسلمين ، وكان لقنصل فرنسا فى بيروت دور كبير فى إثارة هذه الفتنة [159] التى راح ضحيتها الكثير[160]

ونتيجة لهذه المذابح وتداخل الدول الأوربية فى أمور لبنان ، فقد وضعت لجنة دولية نظاماً أساسياً جديداً سنة ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م لحكم لبنان ، جعل بمقتضاه جبل لبنان منطقة تحكم حكماً ذاتياً تحت رئاسة حاكم عام مسيحى[161] يعرف بالمتصرف ويعينه السلطان العثمانى بعد موافقة اللجنة الدولية المكونة من انجلترا وروسيا وإستراليا وإيطاليا [162]

وكان يساعد هذا المتصرف مجلس إدارى مكون من اثنى عشر عضواً عن الطوائف الدينية الكبيرة فى لبنان وهى : الدروز والموارنة والسنة والشيعة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك [163]

٣ - حركة الشيخ ظاهر العمر فى فلسطين :

ينتمى الشيخ ظاهر العمر إلى أسرة بنى زيدان من العرب القيسية ، وكانوا يجبون قرب بحيرة طبرية [164] واشتهر منهم عمر والد ظاهر الذى كان شيخاً على بلاد صفد [165]

وقد ولد الشيخ ظاهر حوالى سنة ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م وتأدب بالآداب العربية والإسلامية ، وقد استطاع بشخصيته القوية وكفاءته الإدارية أن يتقرب من والي صيدا الذى أعطاه التزام طبرية فحكمها منذ عام ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ م ثم أخذ يوسع التزامه بضم البلاد التى حولها تدريجياً بموافقة الوالى العثمانى الذى لم يكن يرفض طلبات ظاهر المدعمة بالهدايا [166] ولذلك أخذ ظاهر جميع البلاد التى حول طبرية ، وفرح به أهل تلك البلاد لما اشتهر به من العدل والرحمة [167]

وفى سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م استطاع ظاهر الاستيلاء على عكا واتخذها قاعدة لحكمه ، وشرع فى تجديد بنائها وتحصين أسوارها ، ووطد نفوذه بها [168]

ونتيجة لصفات ظاهر الحسنة فقد ذاع صيته بين عرب فلسطين وأخذت وفود البلاد المختلفة تأتى إليه وتطلب منه ولايته عليهم فامتد سلطانه حتى شمل أكثر أقاليم فلسطين وجزءاً من أراضى لبنان ، فكان فى حوزته صيدا ، وعكا ، وحيفا ، ونابلس ، واربد ، وصفد، ويافا ، والرمله ، كما كان فى يده أكثر القلاع والأماكن الحصينة فى شمال فلسطين[١٦٩] .

وكانت الدولة العثمانية أنذاك مشغولة بنزاع مرير مع روسيا فتركت ظاهر آل عمر حتى تنتهى الحرب[١٧٠]

وعلم ظاهر أن الدولة العثمانية تكن له العداء وتسعى للتخلص منه ، ومن ثم بحث عن حليف قوى يناصره ، ويشد من أزره فاتجه ببصره نحو مصر حيث كان على بك الكبير يسيطر على الأمور هناك فأرسل إليه يطلب نجدة مصرية للوقوف أمام محاولات عثمان باشا العظم والى دمشق للقضاء على ظاهر وإمارته فأرسل إليه على بك جيشاً بقيادة ، مملوكه « محمد بك أبو الذهب » استطاع هذا الجيش مساندة جيش طاهر وألحقا الهزيمة بعثمان باشا وطرد من دمشق[١٧١]

ولما تآمر محمد بك أبو الذهب على سيده على بك الكبير ، وعاد إلى مصر لجأ ظاهر إلى الأسطول الروسى فى البحر المتوسط كى يسانده ضد العثمانيين[١٧٢] ونجح بمساعدة هذا الاسطول فى الاستيلاء علي بيروت ، وطرد حاكمها من قبل العثمانيين[١٧٣]

فلجأت الدولة العثمانية إلي سياسة المكر والخداع واتصلت بمحمد بك أبى الذهب الذى ثار على سيده على بك وقضى على حكمه فى مصر ، ولوحت له بولاية الشام بالإضافة إلي حكم مصر فاستجاب محمد بك أبو الذهب إلى هذه الاغراءات ، وأسرع يحشد قواته ، واتجه نحو الشام للقضاء على ظاهر العمر ، وتمكن من دخول عكا بعد أن فرّ منها ظاهر .

ولم يمهل القدر محمد بك كى يجنى ثمار انتصاره ، إذ توفى بعد دخوله عكا مباشرة سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م[١٧٤] فاضطرت الدولة العثمانية إلى إرسال حملة بحرية بقيادة القبطان حسن باشا الجزايرلى لمهاجمة ظاهر من البحر ، وحاصر عكا ثم كاتب والى دمشق محمد باشا العظم وأحمد باشا الجزار محافظ السواحل الشامية وأمرهما

بالاستعداد لتطويق ظاهر من جهة البر ، وبعث الجواسيس الذين انتشروا بين عسكر ظاهر يرشونهم بالأموال ويقنعونهم بعدم شرعية مقاتلة السلطان (١٧٥) ومن ناحية أخرى أرسل إلى ظاهر يطالبه بدفع الجزية المتأخرة عليه منذ سبع سنوات فاستشار ظاهر خازنه إبراهيم الصباغ وكان يهودياً وأموال ظاهر كلها تحت يده فأشار عليه بالامتناع عن دفع الجزية فأمر قائد الأسطول بضرب عكا وظلت مراكبه تضربها أربعة أيام و تخلى جند ظاهر عنه ، فأراد الرحيل عن عكا ، لكن أحد جنده من المغاربة تمكن من قتله أثناء فراره (١٧٦) وانتهى دور ظاهر العمر فى محاولة الاستقلال بمنطقة نفوذه فى بلاد الشام .

وعقب مقتله منح السلطان العثماني ولاية عكا إلى أحمد باشا الجزار بالإضافة إلى ولايتى دمشق وطرابلس ، وصار الحاكم الفعلي على كل سوريا ، واتخذ من عكا مركزاً لأملاكه ، ومنها واجه حملة نابليون بونابرت على الشام (١٧٧)

٤ ـ المماليك فى العراق:

فى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م عين السلطان العثمانى والياً على العراق يدعى حسن باشا ، فبذل مجهودات كبيرة للسيطرة على العراق بأسره (١٧٨) واستمر فى الحكم متخذاً من بغداد مقراً له حتى توفى سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م وخلفه ابنه أحمد فى ولاية العراق (١٧٩)

وكان حسن باشا وابنه أحمد من بعد قد نجحا فى البقاء على رأس الحكم بسبب تكوينهم لقوة عسكرية من المماليك أتى بهم حسن باشا من القوقاز ووضعهم فى مدارس أعدت خصيصاً لهم(١٨٠) كانوا يتعلمون فيها القراءة والكتابة والتدريب والعسكرى والرياضي، وكانوا ينقسمون إلى جماعات ، لكل جماعة استاذها ، فبعضها كان يجرى تربيته لتولى المناصب المدنية والعسكرية العليا ، وبعضها كان يعد للدخول فى حرس الباشا، وعند انتهاء تعليمهم كانوا يوزعون على الخدمات الرئيسة فى الدولة (١٨١)

وكان لهؤلاء المماليك منزلة كبيرة عند حسن باشا ومن بعده ابنه أحمد فقد استطاع هؤلاء المماليك التصدى للقوات الفارسية التى حاولت غزو العراق تحت قيادة نادر شاه ، ولم تمكنه من دخول العراق (١٨٢) كما نجحوا فى القضاء على الثورات المستمرة للقبائل العربيه (١٨٣) مما دفع أحمد باشا إلى تعيين سليمان أغا قائد الفرقة المملوكية نائباً له ، وزوجه من ابنته .(١٨٤)

وعندما توفى أحمد باشا سنة ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م حاول العثمانيون إنهاء حكم هذه الأسرة فأصدر السلطان العثمانى فرماناً بتعيين وال جديد (١٨٥) فلم يستطع هذا الوالى التصدى للجند المملوكى بقيادة سليمان أغا الذى زحف على بغداد ، وأعلن أنه الباشا الشرعى ، وطلب من السلطان العثمانى إصدار فرمان بذلك (١٨٦). فاضطر العثمانيون إلى تثبيته فى الحكم كما جرت العادة إزاء المتغلبين على الولايات آنذاك (١٨٧)

وما أن صدر الفرمان من السلطان العثمانى بولاية سليمان أغا سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٩م حتى بدأت سلسلة الباشوات المماليك فى العراق والتى استمرت حتى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م(١٨٨)

وقد استمر حكم سليمان أغا (١١٦٢ ـ ١١٧٦ هـ / ١٧٤٩ ـ ١٧٦٢ م) ما يقرب من ثلاث عشرة سنة استطاع فيها تأمين النظام الداخلى ، وأجبر القبائل العربية على الطاعة ونال احترام وتقدير العثمانيين ، وأكثر من شراء المماليك حتى يكونوا سنداً له وقوة تقف فى وجه أعداء البلاد (١٨٩)

وعقب وفاة سليمان أغا تولى على أغا (١١٧٦ـ١١٧٨هـ/ ١٧٦٢ ـ ١٧٦٤م) الذى لم يمكث فى الولاية سوى سنتين ثم تولى عمر باشا (١١٧٨ ـ ١١٨٩ هـ / ١٧٦٤ ـ ١٧٧٥ م) لمدة أحد عشر عاماً (١٩٠) ثم تعرضت العراق لغزو فارسى ، لم يلبث أن رحل عن البلاد بعد مقاومة شديدة ، كان للمماليك فيها الدور المؤثر بقيادة القائد المملوكى سليمان الكبير (١٩١) فقرر السلطان العثمانى تعيينه والياً على بغداد سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٧٩ م (١٩٢) وقد بذل سليمان الكبير مجهوداً مضنياً فى سبيل تقوية الحكم المملوكى ، كما استطاع القضاء على التمردات العشائرية العنيفة التى واجهته خلال ثلاث وعشرين سنة من حكم البلاد (١١٨٣ـ١٢١٧هـ/ ١٧٦٩ ـ١٨٠٢م) ونظراً لأن الدولة العثمانية كانت مشغولة خلال هذه الفترة بمشكلاتها المعقدة مع الدول الأوربية ، فإنها لم تتدخل فى أمور الحكم المملوكى بالعراق(١٩٣)

أما سليمان الكبير فإنه استطاع أن ينشر العدل فى البلاد ، وأن يحول دون ارتكاب المماليك لأعمال الظلم أو الاستبداد ، مما حبب فيه أفراد رعيته (١٩٤)

وكان آخر الولاة المماليك للعراق داود باشا (١٢٣٢ ـ ١٢٤٧ هـ / ١٨١٧ ـ ١٨٣١ م)

الذى حكم العراق حكماً مطلقاً لمدة أربعة عشر عاماً ، وكان يعاصر محمد على فى مصر وقد قلده فى سياسته القائمة على تركيز السلطة فى يده ، مما أدى به إلى خوض معارك عديدة ضد القبائل العربية ، وضد أكراد شمال العراق الذين كانوا يعتدون على الإيرانيين ، فدخل داود فى صراع عنيف مع الإيرانيين انتهى بتوقيع صلح أرضروم سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م [١٩٥]

واستمر داود يسيطر على الأمور فى العراق إلى أن هزم العثمانيون فى حربهم ضد روسيا سنتى ١٢٤٤ هـ - ١٨٢٨ م / ١٢٤٥ هـ - ١٨٢٩ م وفرضت عليهم غرامة مالية كبرية يدفعونها للروس [١٩٦]

فأرسل السلطان العثمانى محمود الثانى إلى داودباشا يطلب مساهمته فى هذه الغرامة بدفع ستة آلاف كيس فرفض داود باشا دفع أية أموال .

فقرر السلطان العثمانى عزله وإنهاء حكم المماليك فى العراق وأرسل مبعوثاً إلى بغداد لإبلاغ داود بقرار العزل ، وليتسلم منه أمور الولاية [١٩٧] فقتل داود المبعوث التركى الذى وصل إلى بغداد سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م مما جعل العثمانيون يعلنون تمرده ويعدون حملة عسكرية للقضاء عليه ، وفى العام التالى تأتى قوة عسكرية كبيرة تتمكن من دخول العراق الذى كان قد انتشر به مرض الطاعون ، وضعف الجند به ، ولم يستطع داود باشا المقاومة فاستسلم للقوة العثمانية فأصدر السلطان العثمانى أمراً بنفيه إلى الجزيرة العربية حيث عمل شيخاً للحرم النبوى فى المدينة المنورة إلى أن مات هناك ، وانتهى بنفيه الحكم المملوكى فى العراق ليعود تحت السيطرة العثمانية [١٩٨]

ومما لا شك فيه أن حركات التمرد والانفصال التى قامت فى الشرق الإسلامى قد نالت من الدولة العثمانية واضعفت من قوتها لأنها جعلتها توجه جانباً من نشاطها للتصدى لهذه الحركات والوقوف فى وجهها والقضاء عليها مما جعل الفرصة مهيأة أكثر من ذى قبل لتزايد التهديد الأوربى للدولة العثمانية وتحالف الدول الأوربية للوقوف ضدها ومحاولة الإجهاز عليها .

الهــوامــش

١- ابن إياس : بدائع الزهور ٥ / ٧٥

٢- المصدر السابق ٧٦

٣- صلاح عيسى : رجال مرج دابق ٨٥

٤- د. سعيد عاشور : مصر والشام ٢٨٠

٥- محمد دهمان : العراك بين المماليك والعثمانيين والأتراك ٢٥٨

٦- ابن إياس : بدائع الزهور ٥ / ١٥٢

٧- كان للسلطان المملوكي نائبان الأول النائب الكافل أو نائب الحضرة وكان ينوب عن السلطان أثناء وجوده في مصر والثاني نائب الغيبة وكان ينوب عن السلطان أثناء غيبته عن البلاد (القلقشندي : صبح الأعشى ٤ / ١٧ ـ ١٨ ، د. عبد المنعم ماجد . نظم دولة سلاطين المماليك ١ / ٤٣)

٨- ابن إياس : بدائع الزهور ٥ / ١٠٢ ـ ١٠٣

٩- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية ١١٠

١٠- ابن إياس : بدائع الزهور ٥ / ١٢٥

١١- د. محمد أنيس : الدولة العثمانية ١١٠

١٢- المرجع السابق

١٣- ابن إياس : بدائع الزهور ٥ / ١٤٤

١٤- المصدر السابق

١٥- المصدر السابق

١٦- المصدر السابق ١٥٤

١٧- المصدر السابق ١٦٦ ـ ١٦٧

١٨- المصدر السابق ١٧٣

١٩- المصدر السابق

٢٠- المصدر السابق ١٧٥

٢١- د. سعيد عاشور : العصر المماليكي ١٩٨

٢٢- المرجع السابق ١٩٩

٢٣- ابن إياس : بدائع الزهور ٥ / ١٧٦

٢٤- المصدر السابق

٢٥- أبو نمي هو محمد بن حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني ، ولي إمرة مكة نحو خمسين سنة وشاركه عمه إدريس بن قتادة في بعضها وقد توفي سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١ م

= (انظر : الفاسى : العقد الثمين ١ / ٤٥٦ ـ ٤٦١)

٢٦- هو إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسنى ، ولى إمرة مكة نحو سبع عشرة سنة شريكاً لابن أخيه أبى نمى وجرت بينهما عدة خلافات كان من نتيجتها مقتل إدريس سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م .
(عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ١ / ٦٤٠ ـ ٦٤٢)

٢٧- الفاسى : العقد الثمين ١ / ٤٥٦

٢٨- المصدر السابق ١٧٧

٢٩- ابن فهد : اتحاف الورى ٣ / ٩٨

٣٠- من هذه الخلافات ما حدث سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م حينما خطب الشريف أبو نمى للملك المظفر صاحب اليمن، وقطع خطبة الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، ولم تستمر القطيعة سوى عام واحد حيث عاد الشريف أبو نمى وخطب للأشرف خليل ونقش السكة أيضاً باسمه ، ومنها ماحدث سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م حينما أمر الناصر محمد بن قلاوون بالا يتقدم فى الحرم إمام زيدى ، وأن يمنع من الأذان بحى على خير العمل ، واضطر أشراف مكة إلى الاستجابة له خوفاً من غضبه ، ومنها ماحدث سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م حينما غضب الملك الناصر على شريفى مكة حميضة ورميثه وقرر عزلهما وولى مكانهما عطيفة بن أبى نمى وجهز معه عسكراً كبيراً لمساندته ، وكانت قد جرت العادة أن يولى السلطان المملوكى أميراً على مكة من أهلها وله حق عزله إذا ثبت مخالفته لأوامره (انظر : الفاسى : العقد الثمين ١ / ٤٦٣ ، ٦ / ٩٦ ، ابن فهد : اتحاف الورى ٣ / ١٢٣ ، ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٦٣ ، والمقريزى: السلوك ١ / ٣ / ٧٨٦)

٣١- ابن فهد : اتحاف الورى ٣ / ٤٧١

٣٢- د. فائق الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ٣٩ .

٣٣- د. محمد عبد اللطيف هريدى : شئون الحرمين الشريفين فى العهد العثمانى ١٥

٣٤- د. فائق الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ٣٩ .

٣٥- ابن إياس : بدائع الزهور ٥ / ١٩٣

٣٦- د. فائق الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ٤٠

٣٧- د. محد أنيس : الدولة العثمانية ١٢٨

٣٨- د. رأفت غنيمى : تاريخ العرب الحديث ٢٣

٣٩- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٢٩

٤٠- د . محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى ٧٨

٤١- د . عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٥٦

٤٢- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ٢٩

٤٣- د . محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى ٧٨

٤٤- محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٣٠

٤٥- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ١٠٦

٤٦- المرجع السابق

٤٧- محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٣١

٤٨- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ١٠٧

٤٩- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٣١

٥٠- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ١٠٨

٥١- المرجع السابق ١٠٥ ، ١٠٨

٥٢- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٣٢ .

٥٣- عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٧٧

٥٤- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٣٣

٥٥- المرجع السابق

٥٦- المرجع السابق

٥٧- د . عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٧٧

٥٨- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٣٥

٥٩- د . عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٧٧

٦٠- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٣٧

٦١- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٦٤

٦٢- المرجع السابق

٦٣- د . عبدالله جمال الدين : من تاريخ الشرق الإسلامى ١٧٩

٦٤- د . جمال عبد الهادى : الدولة العثمانية ١١

٦٥- د . محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى ٨٧

٦٦- د . جمال عبد الهادى : الدولة العثمانية ٢

٦٧- د . عبدالله جمال الدين : من تاريخ الشرق الإسلامى ١٧٩

٦٨- د . جمال عبد الهادى : الدولة العثمانية ٢ ، ٥٧

٦٩- د . عبدالله جمال الدين : من تاريخ الشرق الإسلامى ١٨٠

٧٠- زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ٩٣

٧١- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى ١١٠

٧٢- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٤٣

٧٣- د . محمد حرب : العثمانيون والحضارة ٤٢٤ ـ ٤٢٥

٧٤- د . فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ / ٣١٠

قسطنطين بازيلى : سورية وفلسطين تحت الحكم العثمانى ٢٨

٧٥- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٢ / ٢٧٩
٧٦- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٤٣
هاملتون جب : المجتمع الإسلامى والغرب ١ / ١٠١
٧٧- محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٦٥
٧٨- محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى ١١٠
٧٩- جان جرامون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٢٣٣
٨٠- د . عبدالله جمال الدين : فى تاريخ الشرق الإسلامى ٢٧٠
٨١- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٤٢
٨٢- المرجع السابق
٨٣- جان جرامون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٢١١
٨٤- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٧٥
٨٥- المرجع السابق ٨٣ـ ٨٤
٨٦- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ٧٧
٨٧- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ١١٣
٨٨- المرجع السابق ١١٦
٨٩- المرجع السابق ١٢٦
٩٠- د . عبدالله جمال الدين : من تاريخ الشرق الإسلامى ٢٧٣
٩١- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ١٤١
٩٢- المرجع السابق ٢٢٠
٩٣- المرجع السابق ١٤٤
٩٤- محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى ١١٩
٩٥- د . عبدالله جمال الدين : من تاريخ الشرق الإسلامى ٢٧٨
٩٦- المرجع السابق
٩٧- حسين كفافى : محمد على ٣٤ ، ٣٦
٩٨- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ٢٢ ـ ٢٣
٩٩- المرجع السابق
١٠٠- المرجع السابق ٢٥
١٠١- حسين كفافى : محمد على ٣٤
١٠٢- د . محمد عامر: تاريخ الشرق الإسلامى ١٢٥ ، د . عبدالله جمال الدين : فى تاريخ الشرق الإسلامى٢٨٠
١٠٣- كريسيليوس : جذور مصر الحديثة ٩٦ ـ ٩٧ .

١٠٤- عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار ١ / ٤٣٠

١٠٥- اندريه ريمون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٦٠٨

١٠٦- عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار ١ / ٢٨٤

١٠٧- محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ١ / ٦٨

١٠٨- المصدر السابق ٤٣٠ ـ ٤٣١

١٠٩- عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار ١ / ٤٣٣ ، د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق الإسلامي ٣٢ ـ ٣٣

١١٠- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ١٥٩

١١١- محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ٢ / ٦٩

١١٢- د . رأفت غنيمي : في تاريخ العرب الحديث ١٤٩

١١٣- المرجع السابق ١٥١

١١٤- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربي ٣٣

١١٥- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ١٥٩

١١٦- محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ٢ / ٧٠

١١٧- كريسيليوس : جذور مصر الحديثة ١٠١

١١٨- محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ٢ / ٧٠

١١٩- كريسيليوس : جذور مصر الحديثة ١٠١

١٢٠- محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ٢ / ٧٠

١٢١- كارلوروسيتي ، إيطالي من البندقية أتى إلى مصر في زمن علي بك الكبير وكلفه علي بك بتنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الدولية وقد أشار هذا الرجل على المصريين بقيادة علي بك أن يضموا الحجاز إلى مصر حتى يستطيعوا تحويل تجارة الشرق الاقصى إلى البحر الأحمر فالسويس بدلاً من مرورها عن طريق رأس الرجاء الصالح .

١٢٢- (محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ٢ / ٧١ ، د . رأفت غنيمي : في تاريخ العرب الحديث ١٥٥)

١٢٣- د . رأفت غنيمي : في تاريخ العرب الحديث ١٥٥

١٢٤- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربي ٢٤

١٢٥- د . رأفت غنيمي : في تاريخ العرب الحديث ١٥٥

١٢٦- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربي ٣٥

١٢٧- يذكر الجبرتي أن علي بك الكبير كان يقول لخاصته : « إن ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك الأكراد مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة ، وهم مماليك بني قلاوون إلى آخرهم كانوا كذلك ، وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب »

انظر : عجائب الآثار ١ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣

١٢٨- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ١٥٧

١٢٩- د . ضياء الدين الريس : الشرق العربى ٣٥

١٣٠- المرجع السابق

١٣١- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ١٥٨

١٣٢- اندرية ريمون : الدولة العثمانية ٦١٠

١٣٣- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ١ / ٣٣٤

١٣٤- اندريه ريمون : الدولة العثمانية ٦١١

١٣٥- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ١٦٠

١٣٦- اندريه ريمون : الدولة العثمانية ٦١١

١٣٧- د . ضياء الدين الريس : الشرق العربى ٤٢ ـ ٤٣

١٣٨- د . محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى ١٣٢

١٣٩- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٧٠

١٤٠- اندريه ريمون : الدولة العثمانية ١ / ٦١٠

١٤١- انظر تاريخ مصر السياسى والحضارى د . صبحى عبد المنعم ٦٧ ، ٧٢

١٤٢- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ١ / ٣٧٨ ـ ٣٧٩

١٤٣- كريسيليوس : جذور مصر الحديثة ١٠١

١٤٤- اندريه ريمون : الدولة العثمانية ١ / ٦١٠

١٤٥- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٦٧٠

١٤٦- ينسب الدروز إلى داع تركى من دعاة الباطنية اسمه محمد بن اسماعيل الدرزى ، وكان أول من جهر بتقديس الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ولما لم يجد فى مصر آذاناً صاغية لدعوته رحل إلى وادى التيم عند سفح جبل الشيخ فى لبنان فاستجاب له بعض أبناء الريف الذين كانوا قد استجابوا لبعض الآراء الشيعية المتطرفة فلما قتل محمد بن اسماعيل هناك سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩م خلفه منافسه حمزة بن علي الزوزني الذى جعل من الدروز جماعة شديدة التماسك وامرهم بالتحلل من فرائض الإسلام الكبرى كالصوم والحج (انظر فيليب حتى : تاريخ . سوريا ولبنان وفلسطين ٢ / ٢١٨ ،
SILVESTRE DE SACY , EXPOSE DE LA RELIGION DES , DRUZES , VOL , I , P . 83 (PARIS , 1838) .

١٤٧- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٥٢ ـ ٥٣

١٤٨- فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ / ٣٢٧

١٤٩- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٥٤

١٥٠- قسطنطين بازيلى : سوريا وفلسطين تحت الحكم العثمانى ٣١

١٥١- فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢ / ٣٢٩
١٥٢- قسطنطين بازيلى : سوريا وفلسطين تحت الحكم العثمانى ٣٢
١٥٣- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٥٥
١٥٤- فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ / ٢٣١
١٥٥- المرجع السابق
١٥٦- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٥١٤
١٥٧- قسطنطين بازيلى : سورية وفلسطين تحت الحكم العثمانى ٣٥
١٥٨- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٥٨
١٥٩- المرجع السابق
١٦٠- Colonel Churchill, The Drzes and the Maronites under the Turkish Rule from 1840 to 1860.P 219
١٦١- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٥٩
١٦٢- Thomas E. Holland , The European Concert in the Eastern Question , PP . 210 ` 218 (Oxford , 1885)
١٦٣- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٥٩
١٦٤- اندريه ريمون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٥٧٤ ـ ٥٧٥ .
١٦٥- فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ / ٢٣٦ .
١٦٦- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ١٢٨ .
١٦٧- المرجع السابق .
١٦٨- المرجع السابق .
١٦٩- د. ضياء الدين الريس : الشرق العربى ٤١ .
١٧٠- فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ / ١٣٧ .
١٧١- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ١٣٤ .
١٧٢- فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢ / ٢٣٧ .
١٧٣- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ١٣٤ .
١٧٤- اندريه ريمون : تاريخ الدولة العثمانية ٢ / ٥٧٧ ، فيليب حتى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ٢ / ٢٣٧ ، وقسطنطين بازيلى : سورية وفلسطين تحت الحكم العثمانى ٦٥ ، دانيال كريسيليوس : جذور مصر الحديثة ٢٦٠ .
١٧٥- د. ضياء الدين الريس : الشرق العربى ٤٦ .
١٧٦- المرجع السابق .

١٧٧- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ١٤٠ .

١٧٨- د. عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٩٧ .

١٧٩- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٦٥ .

١٨٠- د. عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٩٨ .

١٨١- اندريه ريمون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٥٩٨ .

١٨٢- د. عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٩٨ .

١٨٣- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٦٥ .

١٨٤- المرجع السابق .

١٨٥- اندريه ريمون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٥٩٩ .

١٨٦- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٦٦ .

١٨٧- د. عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٩٨ .

١٨٨- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٦٦ .

١٨٩- اندريه ريمون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٦٠٠ .

١٩٠- المرجع السابق .

١٩١- د. عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٩٩ .

١٩٢- اندريه ريمون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٦٠٠ .

١٩٣- د. عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ٩٩ .

١٩٤- اندريه ريمون : تاريخ الدولة العثمانية ١ / ٦٠١ .

١٩٥- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٦٧ .

١٩٦- المرجع السابق ٦٨ .

١٩٧- د. عبد العزيز سليمان : تاريخ العرب الحديث ١ / ١٠٨ .

١٩٨- د. رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٦٨ .

التحالف الأوربى وظهور المسألة الشرقية

وصلت الدولة العثمانية فى فتوحاتها إلى مدى واسع فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فقد استطاعت أن تسيطر على معظم دول جنوب شرقى أوربا ، وصارت أملاكها تشمل القسطنطينية وبقية أملاك الدولة البيزنطية وأملاك امبرطورية الصرب ، وامبراطورية البلغار فى البلقان كما استولت على ولايتى الأفلاق والبغدان (رومانيا الحالية والقرم) فأصبح البحر الأسود بحيرة تركية ، واستولت كذلك على دولة المجر ، وهددت مدينة فيينا عاصمة النمسا أكثر من مرة (١)

وقد كان لهذا الزحف أثر كبير فى تنبيه بقية دول أوربا إلى المارد العثمانى الذى يوشك أن يحتاجهم ، ويبسط السيطرة الإسلامية عليهم جميعاً ، ومن ثم أخذت هذه الدول تحاول أن تكون أحلافاً للتصدى للعثمانيين وأبرز مثال على ذلك تحالف أسبانيا مع البندقية والبابا على محاربة الدولة العمثانية ، وقد تمكن أصحاب هذه التحالف من الانتصار على العثمانيين وتدمير الأسطول العثمانى فى خليج « ليبانتو » سنة ٩٧٩هـ / ١٥٧١م والاستيلاء على ١٣٠ سفينة عثمانية ، وإحراق ٩٤ ، كما غنموا ٣٠٠ مدفعاً وأسروا ثلاثين ألف جندى عثمانى (٢)

ومع أن الأهمية الحربية لهذه الموقعة لم تكن كبيرة إذ سرعان ما أعادت الدولة العثمانية بناء الأسطول وأخذ يبث الذعر فى نفوس الأوربيين من جديد إلا أنها أحيت الأمل فى نفوس الأوربيين وجعلتهم يشعرون أن بإمكانهم التصدى للعثمانيين والوقوف فى وجه التقدم الإسلامى الذين يحملون رايته (٣)

وحين استأنف الأتراك العثمانيون توسعهم فى وادى الدانوب فى منتصف القرن السابع عشر (٤) كانت النمسا تراقب بعين الفزع هذا التقدم الحربى العثمانى ، خاصة عندما سقطت فى ايديهم بلاد المجر ، وتحققت مخاوف النمسا مرة أخرى من العثمانيين حين توغلوا فى الأرض النمساوية وعسكروا فى سهل نويهوزال (٥)

وبدأ السلطان العثمانى محمد الرابع (١٠٥٨ - ١٠٩٩هـ / ١٦٤٨ - ١٦٨٧م) مع وزيره أحمد باشا كوبريلى زاده يعدان العدة لفتح النمسا ، وسار الجيش العثمانى جنوب فيينا[٦]

وهنا فزعت أوربا وأسرع ملوكها لشذ أزر النمسا بكل السبل ، فبادر لويس الرابع عشر ملك فرنسا بإرسال ستة آلاف جندى فرنسى من خيرة مشاته وأشار عليه البعض القيام بغزو مصر التابعة للعثمانيين [٧] غير أنه اكتفى بضرب تونس والجزائر بالمدافع [٨]

وتدفقت النجدات على النمسا من البلدان الأوربية الأخرى ، والتقى العثمانيون بجيوش التحالف الأوربى عند « سان جوتار » وهى كنيسة قديمة حدثت الحرب بالقرب منها ، ولم يستطع العثمانيون تحقيق الانتصار على جيوش التحالف فاضطروا لعقد الصلح الذى تم بمقتضاه تقسيم بلاد المجر بين الدولتين بأن يكون للنمسا ثلاث ولايات ، وللعثمانيين أربع ولايات [٩]

ولم يقبل العثمانيون بهذه الهزيمة ففكروا مرة أخرى فى غزو النمسا سنة ١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م بقيادة الوزير العثمانى قره مصطفى باشا لكن هذه المحاولة فشلت فشلاً ذريعاً وبدد شمل الجيش العثمانى وعاد مصطفى باشا إلى البلاد مهزوماً حيث أصدر السلطان العثمانى أمراً بإعدامه [١٠] ونشط الأوربيون وعملوا ما يسمى بالحلف المقدس بين كل من النمسا وبولونيا والبندقية ومالطة والبابا وروسيا ، ومما يدل على أن هذا التحالف كان دينياً محضاً هو تسميته المقدس [١١] للقضاء على العثمانيين واشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا وأعوانها ، وكانت مناطق وسط أوربا وحوض الدانوب والبحر الأسود ميادين لتلك الحروب بينهم وبدأت الهزائم المتتالية تلحق بالعثمانيين ، حتى اضطرت الدولة إلى أن تسعى لطلب الصلح فعقدت معاهدة « كارلوفتز » فى ٢٤ رجب سنة ١١١٠ هـ/ ٢٦ يناير١٦٩٩م [١٢] وهى معاهدة مهمة ، كان لها اثر كبير فى تاريخ الدولة العثمانية، ففيها رضيت الدولة العثمانية لأول مرة بالتنازل عن مناطق واسعة من أراضيها وأقرت على نفسها بالهزيمة ، واعترفت بالأمر الواقع [١٣]

اذ يذكر المؤرخ محمد فريد أن الدولة العثمانية تركت بلاد المجر كلها وإقليم ترنسلفانيا

للنمسا ، وتنازلت عن مدينة أزاق وميناءها لروسيا فصار لها بذلك سيطرة على البحر الأسود ، وردت لبولونيا مدينة كاميتك واقليمى بودوليا واكروين وتنازلت للبنادقة عن جزيرة المورة إلى نهر هكساميلون وإقليم دلماسيا على البحر الادرياتيكى (١٤)

غير أن هزيمة العثمانيين أمام النمسا كانت فاتحة لسلسلة أخرى من الهزائم أصابت الدولة العثمانية على يد روسيا القيصرية التى بدأ الصراع بينها وبين العثمانيين فى عهد بطرس الأكبر المؤسس الحقيقى لروسيا الحديثة (١٥) واستمرت الحروب بين روسيا والدولة العثمانية فى عهد خلفاء بطرس ، ومن أشهرهم الامبراطورة كاترين(١٦)

وشغلت الدولة أثناء حروبها مع روسيا باضطرابات داخلية خطيرة ، إذ وجد دعاة الانفصال فى الحرب فرصة سانحة لتنفيذ خططهم فى الاستقلال عن الدولة فظهر فى مصر « على بك الكبير » وفى فلسطين « الشيخ ظاهر العمر » الذى استنجد بالأسطول الروسى فأتى واحتل ميناء عكا وضرب بقنابله مدينتى صيدا وبيروت سنة ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م وكان العراق قد أصبح شبه ولاية مستقلة فى يد المماليك وظهرت الدعوة الوهابية وصارت قوة فى بلاد العرب ، كل هذه الأمور كانت من عوامل ضعف الدولة فاضطرت لعقد معاهدة صلح مع روسيا تسمى معاهدة «كُتشك ـ قينارجه » (١٧) التى تم الاتفاق عليها فى ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤م (١٨)

وقد تكونت هذه المعاهدة من ثمانية وعشرين بنداً (١٩) أهمها :

- استقلال تتار القرم (٢٠) مع احتفاظ الدولة العثمانية بالاشراف الدينى عليهم
- منح المراكب الروسية حرية الملاحة والتجارة فى كل موانىء الدولة العثمانية
- بناء كنيسة فى ضاحية بيرا باستانبول
- حرية رهبان روسيا وسائر رعاياها فى زيارة القدس وسائر الأماكن التى تستحق الزيارة (٢١)
- لروسيا حق حماية المسيحيين الأرثوذكس فى الدولة العثمانية ويعد هذا البند من أخطر البنود لأنه أعطى للمعاهدة قيمتها التاريخية وجعل لها أثراً بعيد المدى ، وهو تسليم

الدولة العثمانية لروسيا بأن لها الحق فى حماية المسيحيين الأرثوذكس من رعاياها ، فكأنها بذلك قد تنازلت عن جزء من سيادتها كدولة حينما تركت لدولة أجنبية حق الإشراف على ماهو من أخص شئونها الداخلية ، ووضعت روسيا أيضاً فى موضع كبير بالنسبة إلى بلاد البلقان التى كان معظم شعوبها من المسيحيين فنظر هؤلاء إلى روسيا على أنها البطل والمحامي المدافع عن حقوقهم (٢٢)

ولذلك ينظر كثير من المؤرخين إلى تلك المعاهدة على أنها بداية ما عرف طوال القرنين التاليين بالمسألة الشرقية (٢٣) .

ويمكن القول أن الاتفاق تم منذ ذلك التاريخ بين جميع الدول الأوربية إن لم يكن صراحة فضمناً على الوقوف أمام تقدم الدولة العثمانية أولاً ثم تقسيم بلادها بينهم شيئاً فشيئاً وهو ما يسمونه فى عرف السياسة العالمية بالمسألة الشرقية المبنية على الخوف من انتشار الدين الإسلامى وحلوله محل الدين المسيحى (٢٤)

والحقيقة أن المسألة الشرقية بمعناها الأول قد وجدت أو قاربت بين وجهات النظر الأوربية للوقوف فى وجه القوة الشرقية الزاحفة بدينها الإسلامى وعاداتها على أوربا ، لكنها بمعناها الثانى أثارت ألواناً من الخلافات والحروب والمؤامرات بين دول أوربا بعضها والبعض الآخر لأن لكل منها أطماع تتعارض مع أطماع الأخرى .

وقد فطن إلى ذلك المستشرق الفرنسى « روبيرمانتران » عند حديثه عن المسألة الشرقية فهو يقول : « يتطابق ما نسميه « المسألة الشرقية » مع جملة من الوقائع التى تدور بين عامى ١٧٧٤ (معاهدة كتشك قينارجة) و ١٩٢٣ (معاهدة لوزان) وتتلخص السمتان الأساسيتان لهذه الوقائع فى التمزق التدريجى للامبراطورية العثمانية ، وتنافس الدول العظمى بهدف فرض سيطرتها أو نفوذها على أوربا البلقانية والبلدان الواقعة على الجانب الشرقى للبحر المتوسط (حتى الخليج الفارسى والمحيط الهندى) وعلى ضفافه الجنوبية فالروس متذرعين بحماية الارثوذكس والسلاف يرمون إلى مد سيطرتهم على البلقان ، وإلى الوصول إلى البحر المتوسط والانجليز يسعون إلى حماية طريق الهند ، ومن ثم إلى

السيطرة على الممر الذى يفصل البحر المتوسط عن المحيط الهندى ، ومن هنا الاهتمام الذى يبدونه بالبلدان العربية فى تلك المنطقة ، والفرنسيون يريدون الدفاع عن مواقعهم التجارية والثقافية لدى مسيحيى المشرق ويجدون أنفسهم فى تعارض بحسب الظروف مع الروس أو مع الانجليز ، والنمساويون الخائفون من توسع النفوذ الروسى فى البلقان يحاولون إقامة سد هناك خاصة فى البوسنة والهرسك » (٢٥)

ومما لاشك فيه أن هذه الخلافات التى أشار إليها روبيرمانتران بين الدول الأوربية قد أدت إلى إطالة عمر الرجل المريض(٢٦) حتى سقطت الدولة العثمانية نهائياً فى الحرب العالمية الأولى . (٢٧)

طلائع الزحف الأوربى على الشرق الإسلامى
الحملة الفرنسية على مصر و الشام

مدخــل :

عندما اندلعت الثورة الفرنسية سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م [٢٨] ، سارعت كل من انجلترا والنمسا وايطاليا وإسبانيا والبابا فى روما بتكوين تحالف دولى ضد الفرنسيين [٢٩] وكانت أسباب تكون هذا التحالف هى خطورة المبادىء التى أتت بها الثورة ، ومعارضتها للأسس التى قامت عليها أنظمة الحكم فى هذه الدول ، ثم إعلان فرنسا الحرب على النمسا سنة ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢م ، ثم ما قرره المؤتمر الوطنى الفرنسى من الغاء الملكية ، وإقامة النظام الجمهورى ، واحتلال جيوش الثورة للأراضى المنخفضة « بلجيكا » على أثر انتصارها فى موقعة جماب سنة ١٧٩٢م وكانت انجلترا لا تسمح أبداً بأن تحتل دولة معادية هذه البلاد لأنها تعتبرها خط دفاعها الأول ولأهميتها التجارية الكبيرة أيضاً ، وأخيراً محاكمة الملك الفرنسى لويس السادس عشر وإعدامه فى ٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٠٨هـ / ٢١ يناير سنة ١٧٩٣م [٣٠] فكانت هذه هى الأسباب التى دعت إلى تكوين التحالف الدولى ضد الفرنسيين ، وقد آلت دول التحالف على نفسها أن تحطم قوة فرنسا ، وتقضى على الثورة ، وكان الأمل عندها كبيراً فى أنها ستصل إلى تحقيق ذلك [٣١]

دار صراع بين انجلترا وحلفائها من جانب والجمهورية الفرنسية الوليدة من جانب آخر ، وعندما انتصر الفرنسيون على جيوش التحالف الدولى ، أيقنوا أن عدوهم الرئيسى هو انجلترا ، وأصبح ميدان الحرب مفتوحاً بين الدولتين وبينهما خصومة وتنازع يرجع عهدهما إلى نحو قرنين من الزمان قبل ذلك ، نتيجة التنافس على الاستعمار والتسابق فى امتلاك أسواق التجارة وتكوين الامبراطوريات وكانت انجلترا قد انتزعت من فرنسا فى أواسط القرن الثامن عشر مستعمراتها فى كندا وأمريكا والهند ، واعترضت خط مواصلاتها إلى بلاد الشرق الأقصى عن طريق رأس الرجاء الصالح[٣٢]

لذا أخذ رجال « حكومة الإدارة » فى فرنسا يفكرون كيف السبيل إلى منازلة انجلترا وتحطيم شوكتها [٣٣]

وكان هناك قائد عسكرى شاب يدعى « نابليون بونابرت » استطاع أن يلعب دوراً حاسماً فى ضرب التحركات المعادية للثورة وأن يحقق انتصارات كبيرة ضد قوى التحالف. مما جعل رجال الثورة أنفسهم يخشونه ، وقد رأى هذا القائد الشاب أن ضرب انجلترا لا يأتى إلا عن طريق فرض حصار بحرى عليها ، ويدأ يعد بالفعل جيشاً جراراً للقيام بهذه المهمة ، إلا أن حسابات « حكومة الإدارة » فى فرنسا كانت مخالفة لحساباته ، لأنهم كانوا يريدون التخلص منه بأى طريقة ، فقد أصبح هذا القائد الشاب بعد انتصارته الساحقة فى إيطاليا رمزاً لقوة الثورة الفرنسية ، وأصبح طموحه السياسى خطراً على مستقبل هؤلاء[٣٤]

لذا قرروا إرساله فى حملة إلى مصر بقصد القضاء على امبراطورية انجلترا فى الهند[٣٥]

وكان مشروع الحملة الفرنسية على مصر هو أيضاً حلم شخصى لنابليون [٣٦] القائد الطموح الذى كان يريد أن يكسب من الانتصارات الرائعة ما يضيفه إلى صحائف مجده ؛ وما يجعله فى نظر العالم كأنه يعيد سيرة « يوليوس قيصر » أو « الإسكندر الأكبر » أو غيرهما من الغزاة الفاتحين [٣٧]

ويمكن القول إن هدفه من التفكير فى غزو مصر هو أن ينشئ مستعمرة فرنسية تضاهى مستعمرة الهند التى استولت عليها انجلترا ، ويشرف على البحر المتوسط فيجعل لدولته السيادة عليه ، ويوجد طريقاً للتجارة بينها وبين بلاد الشرق الأقصى بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح الذى لم تعد تستطيع الانتفاع به ، ويقعد لانجلترا على طريق الهند فيكون أقرب إليها منها ، ويضم أقطار الشرق العربى إلى فرنسا ثم يواصل الفتح حتى يصل إلى الهند ، وكانت الهند فى هذا الوقت تعنى حياة انجلترا لأنها كانت الامبراطورية التى أخذت تحل محل مستعمراتها التى فقدتها فى أمريكا على إثر حرب الاستقلال ، فهذه هى الأهداف التى كان يسعى إليها نابليون بونابرت [٣٨] وبدأ يعد نفسه وجنوده لغزو مصر

الغزو الفرنسي لمصر :

كانت الاسكندرية أول مدينة قصدتها قوات الغزو الفرنسي ، وقد توقع أهلها زحف الفرنسيين قبل مجيئهم بأيام ، وتأكدت أنباء هذا العدوان المتوقع حين حضر الأسطول الانجليزي بقيادة الإميرال « نلسن » إلى مياه الاسكندرية في شهر المحرم سنة ١٢١٣هـ/يونية ١٧٩٨م يبحث عن الأسطول الفرنسي في انحاء البحر المتوسط [٣٩].

وقد أرسل قائد الأسطول الانجليزي إلى السيد محمد كريم حاكم المدينة الوطني ينبهه إلى إحتمال حضور الأسطول الفرنسي ويطلب منه الإذن في دخول الميناء كي يتزود الأسطول بما يحتاجه من المؤونة والماء العذب ، لكن السيد محمد كريم رفض طلبه وأساء الظن في مقاصده ، فأقلع الأميرال الانجليزي بأسطوله متجهاً صوب شواطئ الأناضول[٤٠]

وفي السابع عشر من المحرم سنة ١٢١٣ هـ / أول يولية سنة ١٧٩٨ م وصل نابليون بونابرت على ظهر البارجة « أورينت » أي « الشرق » وهي إحدى بوارج الأسطول الفرنسي المكون من ٥٥ سفينة حربية يقودها الأميرال برويس وتحرس ثلاثمائة سفينة أخرى تقل نحو ٣٦,٠٠٠ مقاتل من خيرة جنود فرنسا المدربين في ميادين الحرب بإيطاليا [٤١]

ونزلت القوات الأولى من جيش الغزو بجهة العجمي غرب الاسكندرية بنحو اثني عشر كيلو متراً ، وظل نزول الجنود إلى الشاطئ مستمراً ليلاً ، وفي الصباح الباكريوم الثاني من يولية زحفت قوات العدو على الاسكندرية فوصلت تجاه أسوار المدينة عند شروق الشمس[٤٢] وبدأت تهاجمها في نحو العاشرة من صباح هذا اليوم[٤٣]

ولقد كان نزول الفرنسيين بأرض مصر بمثابة الشرارة التي ألهبت شعبنا وكشفت عن الروح الثورية العارمة التي تكمن فيه فبدأت مقاومة الشعب للغزاة الفرنسيين منذ اللحظة الأولى التي هبطت فيها أقدامهم ثغر الاسكندرية فحصن المواطنون أسوار المدينة ، ونصبوا المدافع القديمة عليها ، وزودوا القلاع بالإمدادات والذخائر واحتشد القادرون على حمل السلاح من أبناء الشعب على الأسوار ، وقابلوا الجنود المهاجمين بكل بسالة[٤٤] وشجاعة حتى نفدت ذخيرتهم ، فاقتحم الفرنسيون الأسوار ودخلوا المدينة وهاجموا الناس في بيوتهم فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص على جنود العدو من المنازل ، وكاد نابليون بونابرت أن يصاب برصاصة قاتلة صوبها عليه رجل وامرأته من إحدى

النوافذ أما الجنرال كليبر فقد أصيب بعيار نارى فى جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر اسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة ، كما أصيب وقتل غير هؤلاء عدد من الضباط والجنود (٤٥) وقد قدر نابليون خسائر جيشه بثلثمائة مقاتل بين قتيل وجريح وخسائر أهل الإسكندرية ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة قتيل وجريح .

لذا فإنه أمر جنوده بالكف عن القتال واستدعى إدريس بك قائد السفينة العثمانية التى كانت راسية بالميناء وطلب منه إقناع أهل المدينة بالكف عن المقارمة وإبلاغهم أن الفرنسيين جاءوا لمحاربة المماليك فابلغهم إدريس بك الرسالة فكف الأهالى عن المقاومة .

أما السيد محمد كريم فإنه استمر يقاوم الفرنسيين من طابية قايتباى حتى كلت قواه ، ورأى أن المقاومة عبث لا يجدى فكفّ يده ، وسلّم القلعة فتلقاه نابليون لقاءاً كريماً ، وأبقاه حاكماً للإسكندرية (٤٦)

ولما تسلم نابليون مدينة الاسكندرية أصدر منشوراً أراد به خداع المصريين ، وتهدئة خواطرهم ، وقد كتبه أحد المستشرقين الذين صاحبوه بلغة ركيكه ، وادعى فيه أشياء لا يصدقها الإنسان العاقل (٤٧) وكان مما قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله، لا ولد له ، ولا شريك فى ملكه ».

من طرف الجمهور الفرنساوى المبنى على أساس الحرية والتسوية : السر عسكر الكبير بونابرت أمير الجيوش الفرنساوية يعرّف أهل مصر جميعهم أنه منذ زمان مديد السناجق (٤٨) الذين يتسلطنون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص (٤٩) والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، واحسرتا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبون من بلاد الأبازا (٥٠) الكرجستان (٥١) يفسدون فى الإقليم الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها ، فأما رب العالمين القادر علي كل شئ فقد حكم على انقضاء دولتهم يا أيها « المصريين » قد يقولون لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقونه وقولوا للمفترين : إننى ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص دينكم وحقكم من يد الظالمين ، وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم محمداً والقرآن العظيم » (٥٢)

وقد حاول نابليون فى هذا المنشور أن يبين للمصريين أنه صديق السلطان العثمانى وأنه جاء ليحقق لهم العدل والمساواة والحرية وأن جنده سيخلصونهم من المماليك الذين بغوا فى كل واد وأنه أتى ليجعل من المصريين حكاماً للبلاد ، والفرنساوية مسلمون مؤمنون ، ونزلوا روما وحطموا كرسى البابوية هناك لأن البابا يحرض النصارى لمحاربة المسلمين والإسلام ، والفرنساوية أعداء المماليك أعداء السلطان وتوعد فى منشوره كل من يساندهم بالويل بعد ما لعنهم وختم المنشور بالدعاء للسلطان والعسكر الفرنسى (٥٣)

وقد أطلق المؤرخون الفرنسيون على هذا المنشور بأنه كان دجلاً نابليونيا ، واعترف نابليون نفسه بهذا ، إلا أن الحرب خدعة .

وهذا المنشور كان قد طبعه باللغة العربية وهى نسخة مختلفة ، تماماً عن النسخة الفرنسية والانجليزية ، ومن الواضح أن نابليون قد صاغة بعناية بعد دراسته للأحوال السياسية فى مصر دراسة مستفيضة ، فلهذا ركز هجومه على المماليك لأن المصريين يكرهونهم وحافظ فيه على هيبة السلطان العثمانى لأنه خليفة المسلمين (٥٤)

لكن هذا المنشور لم يفلح فى خداع المصريين الذى تصدوا للفرنسيين فى كل مكان ، فعندما غادر نابليون مدينة الاسكندرية (٥٥) وأخذ يعبر الصحراء بجنوده قاصداً القاهرة تعرض لضربات عديدة من جانب البدو والأهالى الذين أتلفوا الآبار التى تقع فى طريق الفرنسيين حتى لا يشربوا منها ، وقام أهالى قرية « بركة غطاس » يسد مجرى الماء في ترعة الاسكندرية التى كان الماء لا ينساب فيها إلا فى زمن الفيضان وكان من نتيجة ذلك أن لقى الفرنسيون أثناء زحفهم إلى القاهرة الشدائد والأهوال ، وزاد من متاعب جند الأعداء أن المجاهدين من الأهالى والبدو ظلوا يتعقبونهم فيقتلون الجنود المتخلفين ويستولون على ما يحملونه من أسلحة وعتاد (٥٦)

وعلى الرغم من هذه الشدائد والمصاعب ، فقد واصل الغزاة الفرنسيون زحفهم وكانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسى فى زحفه إلى القاهرة ، وبلغ الفرنسيون الرحمانية على شاطئ النيل يوم ١٠ يولية سنة ١٧٩٨ م ووصلت إليها عن طريق رشيد حملة نيلية يقلها أسطول من السفن الفرنسية الحفيفة ، ولما علم مراد بك (٥٧) وهو فى العاصمة بأنباء زحف الجيش الفرنسى تقدم بجيشه وأسطوله ليصد الزحف الفرنسى (٥٨)

والتقى الجيشان فى شبراخيت يوم ١٣ يولية سنة ١٧٩٨ م فى معركة لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما ظهر فيها تفوق المدفعية الفرنسية على فرسان المماليك ، واحترق أسطول مراد بقذيفة أصابت مستودع الذخائر وقتل القبطان « خليل الكريدلى » فقرر مراد بك الانسحاب إلى القاهرة ثم تابع الجيش الفرنسى زحفه نحو القاهرة على الجانب الغربى للنيل ، والجنود ينهبون القرى والمدن فى طريقهم والعرب والأهالى المسلحين يتابعونهم فيقضون على من تخلف منهم حتى وصل الجيش بالقرب من « إمبابة » فترك نابليون جنده يأخذون قسطاً من الراحة استعداداً للموقعة الفاصلة التى كانت ستنشب فى الغد (٥٩)

موقعة إمبابة وسقوط المماليك :

بعد أن فرّ مراد بك من شبراخيت وتراجع الى القاهرة ، أخذ يستعد للقتال فى إمبابه بالشاطئ الغربى للنيل ، وأقام المتاريس والاستحكامات بين امبابة وبشتيل ، وهى قرية تقع شمال غرب امبابة ، وكانت قواته ممتدة من هذه المنطقة حتى الاهرام ، واتخذ الاسطول المصرى موقعة على ساحل امبابة ، وكان مؤلفاً من السفن الراسية تجاه بولاق وما انضم إليها من المراكب الحربية التى قدمت من دار صناعة الجيزة (٦٠)

أما إبراهيم بك فقد عسكر فى بولاق على الشاطئ الشرقى للنيل ، وتفاوض مع الوالى والعلماء فى إعداد معدات الدفاع فاجمعوا رأيهم على إقامة المتاريس من بولاق إلى شبرا(٦١)

وكان فى هذا الوضع تشتيتاً للقوى وتوزيعاً للمجهود ، ولم يدرك المماليك ذلك ، وبلغ بهم الخوف والارتباك إلى حد أنهم لم يرسلوا طلائع من عندهم لتخبرهم هل الجيش الفرنسى سيأتى من طريق البر الغربى أم البر الشرقى ؟ ويبدو أنهم ظنوه قادماً من البرين، بدليل أنهم وضعوا خطتهم على هذا النحو لكن العدو الفرنسى لم يأت إلا عن طريق البر الغربى فالتقى بمراد بك الذى تلقى الصدمة ، وتحمل عبء القتال وحده (٦٢)

وفى صباح يوم السبت ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ م تحركت فرق الجيش الفرنسى من أم دينار واستقرت بين وراق الحضر بالبر الغربى للنيل وبين بشتيل فكانت الاهرام عن يمينهم، والنيل عن يسارهم ، وأمامهم مدينة إمبابة وفيها جموع المقاتلين من المصريين وعددهم نحو

عشرين ألفاً تحميهم المدافع والمتاريس [٦٣] واطمأن نابليون لما شاهد جيش مراد بك ، وقابل بين قواته وقوات خصمه ، حيث كانت قواته تتألف من ثلاثين ألف مقاتل مزودين بأحدث آلات الحرب والقتال ، مدربين على خوض غمار الحروب ، ومعتزين بالانتصارات التى حققوها فى ميادين القتال بأوربا ، أما جيش المماليك فكان جيشاً يعوزه الاستعداد والنظام والسلاح وكفاءة القيادة أى ينقصه كل ما يكفل له تحقيق الفوز والانتصار [٦٤]

نشبت المعركة بعد أن رتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات ووضع المدافع علي زوايا كل مربع وهجم بهذه الفرق على جيش مراد بك [٦٥] وقد أطبقت المربعات التى كونها نابليون على فرسان المماليك والمشاة المهاجمين فحصدتهم المدافع حصداً كما غرق فى النهر عدد كبير وقتل من المواطنين الذين تحصنوا في إمبابة بضعة آلاف ، وحين عاين مراد بك الهزيمة فرّ بنفسه فذهب إلى قصره بالجيزة [٦٦] وبقى فيه فترة قصيرة أخذ فيها ما استطاع أن يأخذه من أمواله وجواهره ثم توجه إلى الصعيد ، أما إبراهيم بك فقد ترك المعركة عندما رأى هزيمة مراد ، وفرّ إلى خارج القاهرة ، فلما وصل إلى العادلية ، أرسل فأخذ حريمه ثم سار إلى الشام ، ولم يشترك فى الدفاع عن القاهرة ، وقد أثارت هذه الهزيمة شعور الناس فنهبوا بيوت مراد وإبراهيم ، وغيرهما من كبار المماليك [٦٧] وانتهت معركة امبابة أو الأهرام كما يسميها الفرنسيون بالنصر المؤزر على المماليك فكانت نصراً للنظام على الفوضى ، وللمدفعية الحديثة على فروسية القرون الوسطى ولفن الحرب المعتمد على التنسيق والتعاون وبراعة القيادة على الشجاعة الفطرية والبسالة الفردية [٦٨]

وتأتى أهمية هذه المعركة فى أنها حطمت شوكة المماليك ، وأطاحت بمجدهم فظلوا مشردين أيام الحملة الفرنسية ، وبعد رحيلها لم يستطيعوا أن يستعيدوا قوتهم أبداً . [٦٩]

نابليون فى القاهرة :

استسلمت القاهرة بعد فرار المماليك للجنرال الفرنسي ديبوى ، فدخلها ونزل في بيت ابراهيم بك الصغير ، ودخل نابليون القاهرة فى اليوم التالى وشرع يداهن المصريين ويتودد إليهم ويتملقهم فأمر بأن ينشأ ديوان لحكم مصر حتى يوهمهم بأنهم يحكمون أنفسهم

بأنفسهم ، وجعل أعضاء الديوان عشرة من كبار العلماء برئاسة الشيخ عبدالله الشرقاوى ، وضم إليهم القاضى ، ونائب الوالى العثمانى (٧٠)

لم يكد نابليون ينتهى من تدبير الأمور فى القاهرة وإحكام السيطرة عليها ويهنئ نفسه بنجاح مشروعه حتى فاجأته الأحداث بكارثة مروعة أفقدته حلاوة النصر وجعلته يرى الهزيمة ماثلة أمام عينيه ، إذ بعد اسبوع واحد من دخوله القاهرة جاء الأميرال نلسون قائد الاسطول الانجليزى الذى كان يتعقب خطوات نابليون منذ علم بمغادرته مالطه متجهاً نحو الشرق ووجد الاسطول الفرنسى راسياً فى مياه خليج « أبو قير » (٧١)وكان الاسطول الفرنسى مؤلفاً من ١٧ سفينة حربية منها ١٣ بارجة كبيرة وأربع فرقاطات عدا السفن المتوسطه الحجم والصغيرة التى كانت حولها ، وكان عدد مدافع الاسطول ١١٨٠ مدفعاً وعدد البحارة ٨٩٠٠ مقاتلاً ، أما الاسطول الانجليزى فكان مؤلفاً من ١٥ سفينة حربية منها ١٤ بارجة كبيرة وكان عدد المدافع ١٠٥٠ مدفعاً وعدد البحارة ٨٢٤٠ مقاتلاً (٧٢)

وبدأت معركة حامية الوطيس بين الاسطولين استمر إطلاق المدافع فيها عشر ساعات من الخامسة مساء إلى الثالثة صباحاً وأسفرت هذه المعركة عن تحطيم الاسطول الفرنسي تحطيماً كاملاً وقتل قائده ومعه من البحاره الفرنسيين عدد كبير، ولم يبق من هذا الاسطول إلا أربع سفن فرت إلى مالطه (٧٣)

كان فى هذه الكارثة القضاء على طموحات نابليون فى الشرق فقد أصبح هو وجنوده محاصرين داخل حدود مصر لا تصل إليهم الإمدادات ولا الذخائر من بلادهم ، بينما تستطيع انجلترا أن تنقل الجيوش وتتصل بكل البلدان على شواطئ البحر المتوسط ، فاذا كان هدفه من حملته على مصر أن يوجه إلى انجلترا ضربة قاصمة ، وأن ينتزع منها السيادة على هذا البحر ، وأن يوجد قاعدة ثابته يواصل منها الفتح إلى أن يصل إلى الهند، فإن كل هذه الآمال قد نسفتها مدافع الأسطول الانجليزى فى تلك الموقعة (٧٤)

ومع عظم هذه الكارثة فقد قابلها نابليون بقوة تحمل شديدة وتظاهر أمام المصريين أنه لا يكترث لها ، وعمد إلى سياسة الحفلات يحجب بها جزعه ويحاول أن يستميل بها قلوب الشعب .

فانتهز فرصة وفاء النيل فى ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٨م واراد أن يشارك المصريين احتفالهم بهذا اليوم فأصدر أمراً بأن يجرى الاحتفال المعتاد وأن يشارك الجيش فيه ، وأقيمت الزينات وأطلقت المدافع والصواريخ من البر والبحر (٧٥)

وجاءت مناسبة أخرى حاول فيها نابليون التقرب من الشعب المصرى وهى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى ١٢ ربيع الاول سنة ١٢١٣ هـ / ٢٤ أغسطس ١٧٩٨ م فسأل عن أسباب عدم إقامة الاحتفال فتعلل الشيخ البكرى بقلة المال فأعطاه ثلاثمائة ريال فرنسى(٧٦) وأمر أن يجرى الاحتفال بالمولد كالمعتاد ، وأقيمت الليلة الكبيرة فى منزل السيد خليل البكرى نقيب الاشراف وحضر نابليون الاحتفال (٧٧)

وكان من التقاليد المتبعة عند ما يحل موسم الحج أن يعين أمير للحج فى احتفال كبير، فأمر نابليون أن يستمر هذا التقليد ، وعين مصطفى بك وكيل الوالى العثمانى أميراً للحج وخلع عليه خلعة خضراء وأهداه جواداً كريماً وأطلقت المدافع ابتهاجاً بهذا التعيين (٧٨)

أراد نابليون أن يرضى المصريين بكل هذه المظاهر ، لكن وسائله لم تجد ، فالمصريون لم يشاركوا فى مهرجان وفاء النيل ، ولم يشاركوا فى حفلات المولد النبوى أيضاً على الرغم من مجاملة نابليون لهم فيه ، بل أن نفوسهم كانت تمتلئ سخطاً وعضباً على الغزاة المعتدين ، وجاءهم نبأ إعدام السيد محمد كريم (٧٩) حاكم الاسكندرية وزعيمها الوطنى فزاد من سخطهم وغضبهم وكراهيتهم وهيأ هذا الشعور المكبوت للانفجار والثورة (٨٠)

ثورة القاهرة الأولى

١١ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ / ٢١ اكتوبر ١٧٩٨م

لم يمض على نابليون فى القاهرة بضعة أيام حتى جمع الديوان وطلب منه فرض ضريبة أسماها « سلفة » على تجار العاصمة وأرباب الحرف بها وكان مقدار هذه الضريبة ٥٠٠٠٠٠ ريال وبعد ذلك توالى طلب الضرائب والسلف ، وتعددت مقاديرها ، واختلفت مناسباتها ، وفرضت على أهل الريف كما فرضت على المدن ، ولم ينج أحد من ذلك حتى النساء ، فقد اجبرت السيدة نفسيه المرادية زوجة مراد بك على أن تدفع ما يزيد على ٤٠٠٠٠٠ ريال ، وأرغم غيرهامن النساء على أن يفتدين أنفسهن بمبالغ أخرى ، وكانت

البيوت تهاجم وتفتش باستمرار بحجة البحث عن دقائق وخبايا أو إحراز أسلحة (٨١) وسلط الفرنسيون على الناس لهذا الغرض ولجمع الضرائب نصارى الشوام والأروام ، وبعض الصيارفة من القبط الذين تعاونوا معهم فكانوا أول من أثار النعرة الدينية ، وبذر بذور الشقاق بين أبنا الوطن الواحد (٨٢) ولما أعيتهم الحيل في جمع المال أنشئوا المحاكم التجارية أو محاكم القضايا التى تجبى من أصحاب القضايا رسوماً تقدر باثنين فى المائة من المبالغ المحكوم بها وأسسوا مصلحة التسجيلات التى كانت تلزم الناس بتسجيل ممتلكاتهم ، وأن يقدم كل واحد الحجة التى تثبت ملكيته فمن وجد الحجة وجب عليه أن يدفع رسوم القيد ثم رسوم التثبيت ، ومن لم يجد أصبح للحكومة الحق فى مصادرة أملاكه والسيطرة عليها (٨٣) رأى الشعب أن الضرائب التى كانت تثقل كاهله فى عهد المماليك قد بقيت كما كانت وزادت عليها ضرائب جديدة ابتكرها الفرنسيون فساءت الأحوال من الناحية المالية (٨٤)

واشتد ظلم الفرنسيين للمصريين فأخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم هم اليها ، وهدموا كثيراً من المبانى والآثار والمساجد بحجة تحصين قلعة القاهرة ، وأمروا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه الأبواب تغلق فى الليل فتصير كل حارة فى مأمن من اعتداء اللصوص فاشتد قلق الناس من هدمها ، وكان الفرنسيون يقصدون من هدم الابواب اخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة (٨٥)

ويرى كلٌ من الجبرتى والرافعى أن السبب المباشر لاشتعال الثورة هو تلك الضرائب الجديدة التى أمر نابليون بفرضها على الأملاك والعقارات وأقرها الديوان العام فى ٢٠ اكتوبر ١٧٩٨م (٨٦) بينما يرى نقولا الترك المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث هو ظلم الفرنسيين للمصريين وهتك الأعراض وإخراج النساء والبنات الى الطرقات مكشوفات وشرب الخمر فى وضح النهار وهدم المساجد والجوامع بحجة توسيع الطرقات (٨٧)

والحقيقة أن السبب المباشر للثورة بالاضافة الى كل ما سبق هو الأنفة من الرضا بحكم المحتل الغاصب والشعور بالكرامة الوطنية ، لأن المسلم يأبى أن يذل لغير الله أو يخضع لحكم الأجنبى .

اشتعال الثـــورة :

أخذ أئمة المساجد يحرضون الناس فى خطبهم على الثورة ، كما صار المؤذنون يعلنون من فوق المآذن الدعوة الى الجهاد ضد الكفار الظالمين ، وشكلت فى الازهر لجان لتنظيم الثورة من صغار المشايخ والطلاب والفقهاء المبصرين وغير المبصرين ، وصار الجميع يتحينون الفرصة المواتية لاشعال الثورة ضد المحتل الغاصب

وحانت الفرصة عندما أصدر نابليون أوامره بفرض الضرائب الجديدة على الأملاك والعقارات والمبانى ، فما كادت تذاع هذه الأوامر حتى استغلها زعماء الثورة ودعاتها من المشايخ لاشعال نار الثورة فى نفوس الشعب ضد الفرنسيين الغزاة ، فقامت ثورة القاهرة الأولى التى اندلعت فى اليوم التالى الأحد ١١ جمادى الاولى ١٢١٣ هـ ـ ٢١ اكتوبر ١٧٩٨م فأبرز الثوار ما كانوا قد أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وأخذوا يهتفون « نصر الله دين الإسلام » [88] وذهبوا الى بيت القاضى التركى إبراهيم أدهم أفندى فى مظاهرة صاخبة وهم ينادون : إلى بونابرت ! إلى بونابرت ! القاضى معنا إلى بونابرت ، فخشى القاضى على نفسه ورفض أن يصحبهم إلى دار نابليون وأغلق أبوبه دونهم فأخذوا يرجمونه بالحجارة والطوب [89]

واتجهت جموع الثائرين الى حى الأزهر الذى صار مركز الثورة وشعلتها المتأججة ، واحتشد المواطنون فى الجامع الازهر يضجون ويصيحون ويهتفون بالقتال ، وامتلأت الطرق المؤدية الى حى الأزهر بالثوار الذين حملو ما وصل الى أيديهم من الأسلحة كالبنادق والرماح والسيوف ، ولم يلبثوا أن اتجهوا الى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها ، واستطاع الثوار التغلب على الجنود الفرنسيين فى أحياء متفرقة من القاهرة ، كما قتلوا الجنرال الفرنسى ديبوى Dupuy حاكم القاهرة الفرنسى وعدداً لابأس به من جنوده ، مما شجع الثوار على اتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع عن منطقة الثورة [90] فاستولوا على المواقع المحيطة بمعظم خطط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية إلى جهة البندقانيين ، واتخذوا من مساطب الحوانيت متاريس أقاموها فى الشوارع والحارات

يتصدون بها للجنود الفرنسيين ويعرقلون سيرهم ، وأخذوا يطلقون النار من خلالها ، وزادت جموع الثائرين بمن انضم إليهم من اهل الضواحي الذين أقبلوا من طريق الأهرام وبلبيس[٩١]

وكان نابليون خارج القاهرة وقت اندلاع الثورة حيث كان يتفقد استحكامات مصر القديمة والروضة [٩٢]

فلما علم بأنباء الثورة عاد مسرعاً الى المدينة وأصدر أوامره للجنرال Bon بمهاجمة حى الأزهر وإطلاق المدافع على الجامع الأزهر من تلال المقطم ، كما عهد إلى الجنرال دومارتان Dumartin بمحاصرة الجامع ، وقطع السبل المؤدية إليه [٩٣]

واستمرر إطلاق الرصاص على الجامع الازهر عدة ساعات ، وكأنهم أرادوا هدم الجامع بمن فيه من المسلمين الثائرين ، ولكن الله سبحانه وتعالى اراد ألا يمس هذا الجامع بسوء [٩٤]

وتحت حماية القصف المدفعي أقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة إلى الأزهر وكانوا قد عجزوا عن اقتحامها من قبل ، وصار الثوار محصورين بين نارين نار المدافع من فوقهم ونار الجنود من حولهم فاضطروا لطلب الهدنة والتسليم وانتهت المفاوضات بإلقاء السلاح ورفع المتاريس فدخل منها الجنود الفرنسيون حتى وصلوا الى الجامع الأزهر فاقتحموه عنوة [٩٥]

ويصف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ماحدث فى الجامع الأزهر بقوله : « ثم دخل أولئك الوعول (التيوس) إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وواجوه من الباب الكبير وخرجوا من الباب الثانى حيث موقف الحمير ، وداس فيه المشاة بالنعالات وهم يحملون السلاح والبندقيات وتفرقوا فى صحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والبحرات (مساكن الطلاب) وكسروا القناديل والسهارات وفتحوا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبه ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ، وشققوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالاتهم داسوها » [٩٦]

وقد ظل الجنود الفرنسيون يحتلون الأزهر حتى ذهب وفد من العلماء يطلب من نابليون جلاء جنوده عنه .

وهكذا استطاع الفرنسيون بفضل تفوق أسلحتهم وكثرة عددهم من إخماد الثورة التى لم تستمر أكثر من ثلاثة أيام وانتقم الفرنسيون من سكان القاهرة والضواحى الذين اشتركوا فى الثورة أبشع انتقام (٩٧) وبصورة وحشية تدل على مبلغ ما وصل اليه هؤلاء الفاتحون من الحضارة والمدنية فقتلوا من أهل القاهرة - باعترافهم - ما يزيد على أربعة آلاف ! وقبضوا على عدد كبير من المواطنين وأعدموهم سراً بالقلعة بدون محاكمة وبينهم عدد كبير من النساء (٩٨)

وبحثوا عن زعماء الثورة فاتهموا خمسة من علماء الأزهر وهم الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى (٩٩) وبعد محاكمة صورية لم يعلم بها أحد ، نفذ فيها حكم الإعدام رمياً بالرصاص (١٠٠) والقوهم من السور خلف القلعة (١٠١) وصادروا ممتلكاتهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أحاطوا القاهرة وضواحيها بالحصون والقلاع والمعاقل (١٠٢) وهدموا فى سبيل ذلك الكثير من المنازل والقصور (١٠٣) وبلغ عدد القلاع التى أقامها الفرنسيون أنذاك تسع عشرة قلعة مما يدل على مدى المقاومة التى لقيها الفرنسيون من المصريين (١٠٤)

وانتهت ثورة القاهرة الأولى التى دلت على حيوية المصريين ونزعتهم القوية الى التحرر من سيطرة العدو الغاصب ، واستعدادهم للتضحية بالأموال والأرواح فى سبيل نيل حريتهم، وعرف نابليون أنه أمام شعب لا يقهر وقد وطد العــزم على مكافحتــه وأخراجه من بلاده (١٠٥)

ولم تكن القاهرة وحدها هى الغاضبة من عدوان نابليون على أرض مصر ولا الثائرة وحدها فى وجه جيوشه بل شاركتها فى الغضب كل مدن وقرى مصر فى الوجهين القبلى والبحرى (١٠٦) حتى اعتقد الفرنسيون أن هناك تدبيراً مسبقاً بين المصريين لقيام ثورة عامة فى كل أنحاء القطر المصرى (١٠٧) وقد ذكر نابليون فى مذكراته أثر هذه الثورة على الحملة

الفرنسية إذ لم يكن الفرنسيون يتوقعون مقاومة من المصريين ؛ بل كانت خطتهم مرسومة على أساس استمالة الجماهير إلى جانبهم وضرب المماليك وتصفية نفوذهم [١٠٨] وكانت المفاجأة المذهلة وهى مقاومة المصريين التى لم تنقطع للفرنسيين فى كل مكان .

الزحف الفرنسى على بلاد الشام :

حينما علمت الدولة العثمانية بأخبار الحملة الفرنسية وتصدى المصريين العزل من السلاح لها بادرت بإعلان الحرب على الفرنسيين فى ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨م وشرعت تعد جيشين أحدهما يتوجه عن طريق البر من الشام والثانى عن طريق البحر ونقطة تجمعه فى رودس وأنضم إلى العثمانيين فى عدائهم للفرنسيين كل من إنجلترا وروسيا والنمسا [١٠٩]

فلما علم نابليون بذلك رأى أن يفاجىء أعداءه قبل أن يفاجئوه فقرر إعداد حملة إلى بلاد الشام ، وفى ١٠ فبراير سنة ١٧٩٩م غادر القاهرة ومعه ١٣٠٠٠ مقاتل متجهاً نحو بلاد الشام [١١٠]

وبعد عشرة أيام وصل إلى العريش وسيطر عليها بعد هزيمة الجيش العثمانى بها ثم تابع زحفه حتى وصل إلى يافا فحاصرها واستولى عليها بعد قتال شديد وفى مدينة يافا ارتكب الجيش الفرنسى - باعتراف - المؤرخين الفرنسيين أنفسهم أبشع جريمة ستظل أبد الدهر وصمة عار فى جبين الفرنسيين فبالإضافة إلى أعمال السلب والنهب والقتل التى استمرت يومين كاملين ، فإن الفرنسيين أعدموا رمياً بالرصاص ثلاثة آلاف أسير عثمانى على الرغم مما نصت عليه شروط التسليم من ضمان أرواحهم [١١١]

وهكذا كشف نابليون زيفه وتضليله بأنه حامى الإسلام وضد البابويه بعد أن ذبح الآلاف من المسلمين فى هذه المجزرة الوحشية [١١٢] مخالفاً بذلك كل قوانين الحرب والإنسانية[١١٣]

أما المصريون الذين كانوا فى مدينة يافا فقد أعادهم نابليون إلى مصر بعد أن فشل فى ضمهم إلى الجيش الفرنسى ، وكان على رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الذى رحل عن مصر إلى يافا عقب هزيمة المصريين والمماليك فى معركة إمبابة (الأهرام) [١١٤]

واستأنف نابليون سيره من يافا حتى وصل إلى أسوار عكا ، وكانت هذه المدينة مفتاح سورية الشمالية ولبنان فبذل كل مايستطيع من أجل السيطرة عليها وعاود الهجوم بعد الهجوم من أجل فتحها (١١٥) لكنه فشل فى التغلب عليها فعقد مجلساً حربياً من قواده تقرر فيه رفع الحصار الذى استمر لمدة شهرين وانتهى بالفشل والهزيمة ، وانسحب نابليون بجيوشه عائداً إلى مصر (١١٦) بعد أن خاب مسعاه وكان ذلك راجعاً إلى بطولة أهل عكا واستبسالهم فى التصدى له لما رأوا من وحشيته التى ظهرت عند استيلائه على يافا ، وللحصار الذى ضربه الأسطول الانجليزى بقيادة السير سدنى سميث على الشواطىء فوقعت فى يده أكثر المؤن والذخائر التى أرسلت إلى الجيش الفرنسى من مصر (١١٧) كما لقنه أحمد باشا الجزار والى عكا درساً قاسياً خسر فيه نابليون نصف قواته عند أسوار قلعة عكا المنيعة (١١٨)

ولقد محت هزيمة نابليون فى هذه الحملة ما تركته انتصاراته من هيبة فى النفوس وتبين للناس أن الجيش الفرنسى الذى تعود الانتصار فى المعارك قد تحطمت قوته أمام مدينة صغيرة يتولى الدفاع عنها قائد شرقى

واهتزت هيبة فرنسا فى نظر المصريين والشرقيين عامه وانبعثت فى نفوسهم روح الأمل فى القوة الكامنة فى أوطانهم ، وكان لهذا العامل أثره فى تجدد حركات المقاومة الشعبية فى مصر .

تكبد الجيش الفرنسى خسائر فادحة أمام عكا وفقد نخبة من جنوده وضباطه (١١٩) ولما وصل نابليون إلى مشارف مصر أمر بتوزيع الجرحى والمصابين من أفراد جيشه فى سريه تامة ، فوزعوا على المدن لاخفاء حقيقة الهزيمة فى عكا ، ورتب مسرحية لدخول القاهرة فسارت فلول قواته يصاحبها الموسيقى وثلة تحمل الأعلام التركية التى استولى عليها فى يافا ، وأعلن البروجى دخول القائد المظفر من باب النصر ، وكانت غنائمه مجرد أعلام تركية ، لكن المصريين لم تنطل عليهم حيلة نابليون فأخذوا يسخرون منه ومن جنوده ويسألون عن عدد الباقين من الفرنسيين ، فمعظم أفراد الحملة قد دفنوا فى رمال الشام(١٢٠)

العثمانيون يدافعون عن مصر :

أرسلت الدولة العثمانية حملة عسكرية لإخراج الفرنسيين من مصر فوصلت الحملة إلى الاسكندرية يوم ١١ يوليه سنة ١٧٩٩م ونزل الجند العثمانى بقيادة مصطفى باشا خليج «أبوقير » يوم ١٤ يوليو وقد بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل فحاصروا قلعة « أبو قير » وكانت الحامية الفرنسية تتحصن فيها ، لكن الهجوم العثمانى كان شديداً فاخترقوا الاستحكامات وقتلوا الفرنسيين الذين دافعوا عنها ثم احتلوا القرية ، ولم يبق أمامهم سوى القلعة ، فآثر قائدها الفرنسى الاستسلام هو وجنده ، فأسرهم العثمانيون وسيطروا على القلعة [١٢١]

لما علم نابليون بما حدث لجنده ، أدرك خطورة الموقف وبادر إلى وضع خطة محكمة لمواجهة الحملة العثمانية وبدأ فى تجهيز جنده ، واتخذ معسكره على مسافة سبعة كيلومترات غرب « أبو قير » وقضى الليل يُرتب مواقع جنده استعداداً لخوض المعركة فى صباح اليوم التالى

وفى صباح يوم ٢٥ يوليو التقى الجيشان واشتد القتال واستبسل الفريقان ، وهجم الجيش الفرنسى غير مرة على مواقع الجيش العثمانى فأصلاهم العثمانيون ناراً حامية من مدافعهم المركبة فى مواقعهم المنيعة ، لكن الفرنسيون تفوقوا بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم، وأحكام هجومهم وكثرة عددهم فتمكنوا من اختراق خطى الدفاع اللذين أقامهما الجيش العثمانى فالتجأ مصطفى باشا إلى قرية « أبو قير » ليستند إلى القلعة فحال الجند الفرنسى بين القرية والقلعة فحصر مصطفى باشا وجنوده فى قرية « أبو قير » واقتحم الفرنسيون معسكر مصطفى باشا فأخذوه فى حينه ، ووقع هو ورجاله فى الأسر ، وكانت هزيمة العثمانيين فى هذه المعركة أشبه بالكارثة ، فقد فقدوا من القتلى والجرحى نحو ثمانية آلاف ، وبلغ عدد الأسرى نحو ثلاثة آلاف ، واستولى الفرنسيون على مدافع الجيش العثمانى ، وذخائره وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلاً وجرح منهم سبعة وخمسون .

وتعد واقعة « أبوقير » البرية فوزاً كبيراً للجند الفرنسى ولنابليون لأنها بمثابة غزو جديد لمصر كما كانت واقعة الأهرام من قبل [١٢٢]

ولم يقبل العثمانيون بهذه الهزيمة فأخذوا يحشدون جيشاً آخر فى سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا ، وجاءت الأنباء بأن هذا الجيش قد تم استعداده وأن الصدر الأعظم قادم بعدد كبير من المقاتلين لطرد الفرنسيين من مصر ، فلم يكن انتصار الفرنسيين فى معركة « أبو قير » سوى هدنة وقتية سنحت للجيش الفرنسى ليستريح من عناء القتال وأهواله فأخذ نابليون يجهز قواته استعداداً لصد حملة العثمانيين القادمة [١٢٣]

رحيل نابليون وتولى كليبر قيادة الحملة :

لم يمكث نابليون فى مصر طويلاً بعد هزيمته للعثمانيين فقد رحل إلى فرنسا سراً بعد شهر من موقعة أبى قير البرية ، ولم ينتظر مقدم الحملة العثمانية الثانية ، وذلك بعد أن علم بأخبار الهزائم التى حلت بالجيوش الفرنسية فى أوربا ، وتولى كليبر قيادة الحملة بعد رحيل نابليون ، غير أن القائد الجديد لم يكن من أنصار البقاء فى مصر ، ولذا قرر دعوة العثمانيين إلى التفاوض من أجل رحيل القوات الفرنسية عن مصر ، وبعث برسالة إلى الصدر الأعظم يطلب فيها عقد الصلح بين الدولتين ويطلب منه ايفاد مندوب للتفاوض فى قواعد الصلح ، ويبدو أن العثمانيين أدركوا أن مركز الفرنسيين أصبح ضعيفاً فى مصر بحيث اضطروا إلى طلب الصلح فتلكأوا فى الرد عليهم واستمروا فى تجهيز جيوشهم للزحف على مصر [١٢٤]

وفى أول نوفمبر سنة ١٧٩٩م قدمت الحملة العثمانية وبصحبتها بارجة انجليزية على متنها السير سدنى سميث قائد الاسطول الانجليزى ، ونزل جنود العثمانيين إلى الشاطىء بالقرب من بوغاز دمياط فاحتلوا برج البوغاز الذى كان يحمى مصب النيل بالبر الشرقى ، وكانت الجنود الفرنسية معسكرة بين عزبة البرج وشاطىء البحر بين بوغاز دمياط وبحيرة المنزلة ونشبت بين الفريقين معركة انتصر فيها الفرنسيون انتصاراً كبيراً [١٢٥]

وبالرغم من انتصار الفرنسيين على العثمانيين فى عزبة البرج فإن كليبر كان مقتنعاً بضرورة الصلح وبضرورة انهاء حالة الحرب التى كانت تركيا تعد المعدات لاستئنافها فعاد يطلب المفاوضة معها لعقد الصلح وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة الصلح التى عرفت فى التاريخ باسم معاهدة العريش يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠م[١٢٦] وكان من أهم شروط هذه المعاهدة جلاء الفرنسيين عن مصر وأن تتولى تركيا نقل القوات الفرنسية إلى فرنسا بكامل

أسلحتها وعتادها ، لكن الحكومة الانجليزية رفضت الموافقة على هذه الاتفاقية خوفاً من عودة الجيش الفرنسي المحاصر في مصر للاشتراك في ميادين الحرب والقتال بالقارة الأوربية مما يزيد من قوة الفرنسيين العسكرية هناك ، وإزاء ذلك رفض كليبر الجلاء واشتبك مع الجيش العثماني الذي بدأ يدخل مصر بالفعل تنفيذاً لاتفاقية العريش والتقى في معركة هليوبوليس أو (عين شمس) في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠م حيث هزم العثمانيون واستولى الفرنسيون على معسكرهم بالمطرية وأخذوا يضربونهم بالمدافع[١٢٧]

ثـورة القاهـرة الثانيـة

(٢٠ مارس - ٢١ أبريل ١٨٠٠م)

اشتعلت هذه الثورة في القاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠م ومعركة هليوبوليس (عين شمس) قائمة بين الفرنسيين والعثمانيين ، إذ لم يكد يسمع سكان القاهرة قصف المدافع في ميدان المعركة حتى بدأت الثورة في حي بولاق بزعامة السيد مصطفى البشتيلي[١٢٨] حيث قام أهل بولاق بأسلحتهم وعصيهم فهاجموا معسكر الفرنسيين على النيل وقتلوا من جند الغزاة عدداً كبيراً واستولوا على جميع ماكان في المعسكر من ذخيرة ومؤن ثم ذهبوا إلى مخازن الغلال التي يختزنها الفرنسيون فاستولوا عليها ، وطافوا بالقاهرة يقيمون حولها الأسوار والحصون ما استطاعوا [١٢٩] .

وامتدت نيران الثورة من بولاق حتى شملت كثيراً من أحياء القاهرة وتنادى الناس جميعاً بالكفاح والجهاد وانبث دعاة الثورة في كل مكان يحرضون الناس على القتال وامتلأت الشوارع والميادين وأسطح المنازل بالثائرين الذين بلغ عددهم خمسين ألف ثائر يحملون البنادق والعصى [١٣٠]

واتجه الثائرون إلى معسكر الفرنسيين بميدان الأزبكية وهاجموه واستخدموا في الهجوم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين التي كانت لهم في المطرية ولعدم وجود القنابل استعاضوا عنها بكرات الموازين الحديد التي أتوا بها من المحلات والدكاكين ، لكن الحامية الفرنسية كانت تتحصن داخل المعسكر فثبتت لهم واستمر القتال إلى اليوم التالي ، وأخذت

قلاع الفرنسيين منذ ابتداء الثورة تضرب المدينة بالمدافع وتسلط قنابلها على الأحياء الثائرة[١٣١]

ولم يفت هذا فى عزيمة الثائرين الذين صمموا على مقاومة الفرنسيين بكل وسيلة فأنشأوا مصنعاً للبارود بالخرنفش ، وآخر لإصلاح المدافع والأسلحة التى عثروا عليها فى قصور المماليك ، وثالثاً لصنع القنابل وصب المدافع من الحديد الذى جمعوه من المساجد والحوانيت ، كما صاروا يستخدمون بقايا القنابل المتساقطة من المدافع الفرنسية فى صنع قذائف جديدة يطلقونها على الفرنسيين [١٣٢].

وكافح أهل القاهرة بكل ما فى استطاعتهم من أجل الصمود فى وجه الفرنسيين سوا القادرون منهم على الحرب والكفاح أو غير القادرين ، فالقادرون أقاموا وراء المتاريس يصلون العدو ناراً حامية من رصاص بنادقهم ، وأما غير القادرين على القتال فكانوا يمدون الثوار المرابطين خلف المتاريس بجميع ما يلزمهم من المؤن [١٣٣]

وعندما عاد كليبر إلى القاهرة بعد ثمانية أيام من اشتعال الثورة وجد المدينة وقد تحولت إلى ثكنة عسكرية تموج بالمحاربين فأصدر أوامره بتشديد الحصار عليها ومنع المؤن من الوصول إلى المحاربين حتى يهلكوا جوعاً ، كما أمر بقصف المدينة بالمدافع من القلاع والتلال ، وشدد كليبر الضرب على حى بولاق فاندلعت ألسنة النيران فى كل مكان فيه ، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكائل والخانات [١٣٤]

ولم يتعرض حى بولاق وحدة للدمار والخراب ؛ بل أضرم الفرنسيون النار فى الأحياء الأخرى مثل الأزبكية والفوالة وباب الشعرية وباب الحديد وبركة الرطلى وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها إثر بعض [١٣٥]

ومع ذلك فقد ظلت روح الشعب المعنوية قوية ، وخرج المشايخ والفقهاء والتجار يدعون الناس للقتال ويحرضونهم على الجهاد .

ورغم كل هذا فقد استطاعت القوة الغاشمة التغلب على أهل القاهرة لكثرة أسلحتها وافتقار الثوار إلى المدافع الكافية بالإضافة إلى وحشية الفرنسيين فى الانتقام من أهالى الأحياء التى استطاعوا دخولها [١٣٦]

واضطر الثوار إلى التسليم وانتهت هذه الثورة التى دامت أربعة وثلاثين يوماً ، وحوصرت فيها القاهرة حصاراً محكماً لقيت فيه من الهول الكثير ، وتم الصلح وأعطى الفرنسيون لأهل القاهرة أماناً على أنفسهم وأعلن الجنرال كليبر أنه لن يعاقب أحداً من المصريين حتى الذين اشتركوا فى الثورة على شرط ألا يلحق أحد من المصريين بالجيش العثمانى عند خروجه من مصر إلى الشام مخافة أن يقوى هذا الجيش بهم وأن تقع بينه وبين الفرنسيين حرب (١٣٧)

لكن كليبر تنكر لأهل القاهرة بعد أن أخمدت الثورة وكان اقتصاصه منهم رهيباً ففرض غرامات مالية كبيرة على كثير من العلماء والأعيان وفرض على الدور والممتلكات أجر سنة واشترك أهل القاهرة جميعاً فى دفع الغرامات التى فرضها الفرنسيون على المدينة(١٣٨)

وفقد الفرنسيون كل وعي أو تقدير لمبادىء العدل والانسانية فقتلوا وسجنوا وعذبوا تحت قيادة كليبر الذى جاوز كل حد حتى سلط الله عليه الشاب سليمان الحلبى فاغتاله فى قصره (١٣٩) يوم السبت ٢١ من محرم ١٢١٥هـ ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠م (١٤٠) فخلفه الجنرال مينو واستمر فى فرض الغرامات وإرهاق الناس بالضرائب(١٤١) فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة الانجليزية تسعى سعياً حثيثاً من أجل إعداد حملة عثمانية انجليزية للزحف على مصر وإخراج الفرنسيين منها (١٤٢)

جلاء الفرنسيين عن مصر :

كان عام ١٨٠١م هو عام النكبات والضربات التى حلت بالفرنسيين حتى خرجوا من مصر ففى ٨ مارس من هذا العام وصلت الحملة الانجليزية بقيادة السير « أبركرومبى » ونزلت على شاطىء « أبو قير » ثم التقت مع الفرنسيين فى موقعة «كانوب » بالقرب من الاسكندرية فى ٢١ مارس فهزم الفرنسيون واضطر مينو إلى الالتجاء إلى الاسكندرية (١٤٣) بعد أن خسر الجيش الفرنسى نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى (١٤٤)

وبعد أربعة أيام من هزيمة الفرنسيين جاءت الحملة العثمانية بقيادة حسين قبطان باشا تقل ستة آلاف جندى فنزلوا إلى البر وانضموا إلى الجيش الانجليزى فازداد بهم قوة وزحف إلى داخل البلاد واحتل رشيد ثم الرحمانية (١٤٥)

واثناء ذلك تقدم جيش عثمانى آخر من طريق العريش بقيادة الوزير يوسف ضيا باشا وتابع سيره دون مقاومة حتى التقى بالفرنسيين عند الزوامل فى منتصف الطريق بين الخانكة وبلبيس واستطاع الانتصار عليهم فتراجعوا إلى القاهرة (١٤٦)

وفى شمال القاهرة التقت الجيوش العثمانية الانجليزية عند خط « إمبابة ـ منية الشيرج » وأعدوا خططهم لمهاجمة العاصمة والاستيلاء عليها فأدرك الجنرال بليار الذى أنابه مينو عنه أن لا فائدة ترجى من المقاومة واستشار معاونيه فأشاروا عليه بالتسليم ، فأرسل إلى الجيش العثمانى والانجليزى يطلب التفاوض للجلاء عن مصر(١٤٧) على مثل الشروط التى اتفق عليها فى معاهدة العريش فوقعت اتفاقية الجلاء فى ٢٧يونيه ١٨٠١هـ وجلا الفرنسيون نهائياً عن القاهرة فى ١٤ يوليو (١٤٨) أما مينو فقد استمر يقاوم فى الاسكندرية ، لكنه اضطر أخيراً أن يحنو حنو زميله « بليار » فوقع معاهدة التسليم فى ٣١ أغسطس ثم أخذت الجنود الفرنسية تجلو عن ميناء الاسكندرية عائدة إلى بلادها فى خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٠١م (١٤٩)

وانتهت الحملة الفرنسية التى ترتب على دخولها مصر عدة نتائج بعيدة المدى لا على الأحداث السياسية الداخلية فحسب ؛ بل فى الشرق العربى كله ، فقد ضربت القوات الفرنسية المماليك ضربة قاصمة ، وكانت البقية الباقية منهم بعد خروج الحملة أضعف من أن تستطيع التأثير فى مجرى الصراع الذى نشب بعد ذلك لتولى السلطة (١٥٠)

ووحدت هذه الحملة بين قوى المسلمين للتصدى للغزو الفرنسى وظهر ذلك جلياً حين أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد ضد الفرنسيين الصليبيين (١٢١٣هـ / ١٧٩٨م) واستجاب لدعوته المسلمون فى الحجاز والشام وشمال افريقيا وأقبل بعض المتطوعين على مصر ويذكر الجبرتى فى حوادث شهر شعبان ١٢١٣هـ / ١٧٩٩م أنه لما وردت أخبار الفرنسيين ودخولهم إلى مصر وعلم بها أهل الحجاز انزعجوا وضجوا بالحرم وقام أحد المجاورين من علماء المغرب فأخذ يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين فاستجاب له الناس بالأموال والأنفس واجتمع نحو ستمائة من المجاهدين ونزلوا فى ميناء القصير على ساحل البحر الأحمر مع من انضم إليهم من أهل ينبع ووقع بينهم وبين الفرنسيين عدة معارك (١٥١)

وحمل الشعب المصرى السلاح لأول مرة منذ فترة طويلة فشعر بذاته وقوته ونبع من صفوفه أبطال وقادة مثل السيد عمر مكرم والشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والبشتيلى والخضرى (١٥٢) الذين دافعوا عن وطنهم دفاع الابطال ورفضوا أن يدنس الأجانب أرض وطنهم وكان هذا الشعور الوطنى نتيجة الروح الدينية القوية التى كانت من أظهر مميزات هذا العهد إذ أن المسلم يأبى أن يذل لغير الله أو يخضع لحكم الاجنبى (١٥٣)

وقد نبهت الحملة الفرنسية الاستعمار الانجليزى لبدء خططه الاستعمارية للشرق وفتحت عينه عن خطورة توانيه عن العمل الفورى حتى لا تمد فرنسا نفوذها وتبسط سيطرتها على المنطقة وتهدد الهند كبرى المستعمرات الانجليزية ، وبدأت انجلترا تتحرك بالفعل فحاولت غزو مصر سنة ١٨٠٧م .

وقد نبهت الحملة الفرنسية الاستعمار الانجليزى إلى أهمية الطريق التجارى المار بمصر وبلاد الشرق الإسلامى ، خاصة بعد أن تدعمت أقدام الانجليز فى الهند وكونوا مستعمرتهم الكبرى هناك فاتجهوا بأنظارهم صوب مصر ، وبدأت انجلترا تتحرك بالفعل حتى أرسلت حملتها على رشيد سنة ١٨٠٧م .

الحملة الإنجليزية على رشيد
(١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م)

لم يكن الشعب المصرى يعرف شيئاً عن الانجليز إلا حينما حضروا سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م مع العثمانيين ليتعاونوا معهم فى إخراج الفرنسيين من مصر ، وكان من المنتظر بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، أن يرحل الانجليز عن البلاد فى إثرهم بعد انتهاء الغرض الذين جاءوا من أجله لكنهم كعادتهم ماطلوا فى التنفيذ ومافتئوا يتلكأون وينتحلون الأعذار[١٥٤] لأنهم كانوا يطمعون فى بسط نفوذهم على مصر حتى يضمنوا عدم عودة الفرنسيين مرة أخرى لاحتلالها واتخاذها قاعدة للإغارة على الممتلكات الانجليزية فى الهند[١٥٥]

وقد رأى الانجليز فى بادىء الأمر أن منع فرنسا من وضع يدها على مصر من جديد لن يتأتى إلا بإنشاء حكومة تابعة لهم تستطيع دفع أى اعتداء قد يقع على البلاد من جانب الفرنسيين [١٥٦]

ولم يجد الانجليز من يقبل التعاون معهم فى مصر سوى المماليك فدخلوا فى مساومات معهم ، ونصبوا من أنفسهم حماة متطوعين للدفاع عنهم وبخاصة عندما أراد العثمانيون القضاء على المماليك فى مصر وتصدى لهم الجنرال هتشنسون Hutchinson قائد الجيش الانجليزى فى مصر الذى فرض حمايته على المماليك الذين صاروا صنائع لهم فى قضاء مآربهم [١٥٧]

ونجح الانجليز فى التآمر مع محمد بك الألفى كبير زعماء المماليك من أجل إعادة دولة المماليك التى انهارت دعائمها منذ أحداث الحملة الفرنسية على أن تكون خاضعة لنفوذ الانجليز ومشمولة برعايتهم [١٥٨] ، ونتيجة لهذا اصطحبوا معهم محمد بك الألفى أثناء خروجهم من مصر سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٣م كى يطلب من الحكومة الانجليزية معاونة المماليك على رجوعهم للحكم [١٥٩] فمكث هناك سنة وبضعة أشهر ثم عاد إلى مصر ليبدأ فى تنفيذ الخطة [١٦٠]

وفشلت خطة محمد بك الألفى مع الانجليز لأن الشعب المصرى قطع الطريق على المؤامرات والدسائس التى حدثت عقب خروج الحملة الفرنسية ، وقرر أن يختار حاكماً جديداً لا يصغى إلا إلى مشورة الشعب ، ولا يخضع إلا لإرادته وكان الحاكم الجديد هو محمد على (١٦١) الذى وافق العثمانيون على تعيينه والياً على مصر فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠هـ الموافق ٨ يوليو سنة ١٨٠٥م (١٦٢).

وغضب الانجليز لتعيين محمد على وأخذوا يسعون لدى الباب العالى يطلبون منه عزل محمد على أو نقله إلى ولاية أخرى لأنهم كانوا يميلون لمحمد الألفى زعيم المماليك ويرغبون فى وضعه على مكان القيادة فى مصر ، واستجاب الباب العالى لرغبة الانجليز ، وأمر بنقل محمد على إلى ولاية أخرى فلم يقبل علماء مصر وزعماء الشعب بهذا النقل ، وكتبوا إلى السلطان العثمانى يلتمسون منه ابقاء محمد على فى ولاية مصر ، وساندهم الجند الألبانيون ، فقبل السلطان إرادة الشعب المصرى وبخاصة أنهم لم يطالبوا باستقلال مصر عن العثمانيين ، وأرسل إلى محمد على فرماناً بتثبيته ، وصل إليه فى شعبان سنة ١٢٢١هـ/ ٧ نوفمبر ١٨٠٦م (١٦٣).

ومن هنا فشلت المحاولة الاستعمارية الأولى وتمكن الشعب من أن يظل قابضاً على ناصية الأمور ، ثم أراد الله أن يحبط كيد الانجليز ومن تعاون معهم من الخائنين فتوفى الألفى فجأة فى يناير سنة ١٨٠٧م (١٦٤).

وتطور الموقف السياسى والعسكرى فى أوربا فى غير صالح الانجليز بسبب التقارب والتفاهم الذى حدث بين الإمبراطور نابليون الأول والسلطان سليم الثالث العثمانى ونجحت الدبلوماسية الفرنسية فى اقناع السلطان بإعلان الحرب على انجلترا وروسيا فى ديسمبر ١٨٠٦م (١٦٥) مما أغضب انجلترا التى سارعت بإرسال إسطول بقيادة الأميرال دكورث Duchworth لمهاجمة استانبول فى فبراير سنة ١٨٠٧م لكن العثمانيين دفعوا عن أنفسهم دفاعاً قوياً وردوا الأسطول الانجليزى على أعقابه خاسراً مهزوماً (١٦٦) وتابعت انجلترا نشاطها العسكرى ضد العثمانيين بأن أعدت حملة لغزو مصر ولم يكن خبر وفاة محمد بك الألفى قد وصلها ، وكانت أهداف هذه الحملة تتمثل فى غزو مصر ووضعها تحت السيطرة

الانجليزية ثم تحويلها إلى مستعمرة تابعة لهم يستحوذون على خيراتها ويجعلونها قاعدة لهم فى الشرق الإسلامى ويحمون باستيلائهم عليها خطوط مواصلاتهم إلى امبراطوريتهم التى أنشأت فى الهند (١٦٧)

ووصلت أخبار هذه الحملة قبل قدومها إلى مصر ، وعلم الناس بها من خلال الرسائل التى وردت من استانبول فأخذ الشعب يستعد لمقاومتها ، وتولى السيد عمر مكرم زعامة المقاومة الشعبية (١٦٨)

وفى ٦ محرم سنة ١٢٢٢هـ / ١٦ مارس ١٨٠٧م وصلت حملة الانجليز إلى الاسكندرية بقيادة الجنرال فريزر Frazar وكانت مكونة من فرقتين الفرقة الأولى بقيادة الجنرال ستيورات Stewart والثانية بقيادة الجنرال Wecop وتعداد الفرقتين يزيد على ستة آلاف جندى (١٦٩) .

ويبدو أن هذا العدد الضئيل الذى أتى به الانجليز جاء نتيجة فهمهم الخاطىء للأحوال فى مصر ، إذ كانوا يظنون أنهم لن يجدوا مقاومة تذكر بسبب الاضطرابات التى كانت سائدة آنذاك وأهمها الصراع بين محمد على والمماليك ، وكانوا من جهة أخرى يعتمدون على قوات المماليك فى مصر ، ولذلك لم يصطحبوا معهم قوة كبيرة اكتفاء بما يظاهرهم به صنائعهم المماليك (١٧٠)

ويذكر كثير من المؤرخين والباحثين أن الحملة الانجليزية حينما وصلت إلى الاسكندرية لم تجد مقاومة نتيجة استسلام أمين أغا حاكم الاسكندرية التركى الذى وافق على أن ينتقل هو وصالح أغا قومندان البحرية وسائر موظفى الحكومة وجميع العسكر فى السفن العثمانية إلى ميناء تركى بسلاحهم وعتادهم كاسرى حرب ويقولون : إن قنصل انجلترا اشترى حاكم المدينة بالمال فاتفق معه على تسليم المدينة دون قتال (١٧١)

ونحن نرى أن هذه فرية روج لها الانجليز للوقيعة بين العثمانيين والمصريين هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نتساءل نحن : أين الشعب المصرى البطل ؟ وهل نسوا مقاومته للفرنسيين منذ وطأت أقدامهم أرض الاسكندرية ؟

وتعالوا بنا نستمع إلى ما ذكره الجبرتى فهو يقول فى أحداث المحرم سنة ١٢٢٢هـ «وردت مكاتبات مع السعاة من ثغر اسكندرية وذلك يوم الخميس وقت العصر وفيها الأخبار بورود مراكب الانكليز وعدتها اثنان واربعون مركباً فيها عشرون قطعة كباراً والباقى صغاراً فطلبوا الحاكم والقنصل ، وتكلموا معهم وطلبوا الطلوع إلى الثغر فقالوا لهم : لا نمكنكم من الطلوع إلا بمرسوم سلطانى » (١٧٢) ولما رفض حاكم الاسكندية السماح لهم هددوه بالقتال فيقول الجبرتى : فإما أن تسمحوا لنا فى الطلوع بالرضا والتسليم ، وإما بالقهر والحرب والمهلة فى رد الجواب بأحد الأمرين أربعة وعشرون ساعة ثم تندمون على الممانعة » (١٧٣) ثم يعود الجبرتى فيقول : « ولما انقضت الأربعة وعشرون ساعة التى جعلها الانجليز أجلاً بينهم وبين أهل الاسكندرية وهم فى الممانعة ضربوا عليهم بالقنابل والمدافع الهائلة من البحر فهدموا جانباً من البرج الكبير ، وكذلك الابراج الصغار والسور » (١٧٤)

وكل ماذكره الجبرتى ينفى القول باستسلام المدينة للانجليز وخيانة حاكمها العثمانى ، كما يؤكد مقاومة الشعب المصرى لهذه الحملة ، وتعالوا ننظر إلى شروط الأمان التي كتبها الانجليز لأهل الاسكندرية فهى تدل أيضاً على أنهم كانوا يخشونهم وهذه الشروط أوردها الجبرتى فى كتابة ومن أهمها .

ألا يسكن الانجليز البيوت فى الاسكندرية قهراً عن أصحابها ؛ بل بالمؤاجرة والتراضى ، ولا يمتهنون المساجد ، ولايبطلون منها الشعائر الإسلامية وأعطوا حاكم المدينة الأمان على نفسه ومن معه ، وألا يكلفون أهل الاسكندرية بأى شىء من المال وأن محكمة الإسلام تكون مفتوحة تحكم بشريعة الإسلام (١٧٥)

أما عن عجز مدينة الاسكندرية عن صد أى هجوم يقع عليها فيرجع إلى ضعف تحصينها وحاميتها وقلة الجند بها ، ثم ضعف البحرية التى عهد إليها بالدفاع عن الساحل بأسره أمام جيش منظم ومزود بأسلحة الحرب الحديثة (١٧٦)

وبعد دخول الانجليز الاسكندرية صار الطريق مفتوحاً أمامهم إلى القاهرة وكانت خطتهم أن يستولوا على الموانىء أولاً بمعاونة الأسطول ، وكان ميناء رشيد أهم ميناء بعد

الاسكندرية لأنه يقع على الطريق النيلى إلى العاصمة فى وقت لم تكن فيه مواصلات حديدية ، ووصل الجيش الزاحف تحت قيادة الجنرال ويكوب إلى أسوار رشيد فى ٣٠مارس١٨٠٧م وأخذ يتأهب للاستيلاء عليها فى اليوم التالى [١٧٧]

ولم يكن برشيد آنذاك سوى حامية صغيرة يتراوح عددها بين ٤٦٠ ، ٥٥٠ جندياً وعزم هؤلاء على التصدى للانجليز ومقاومتهم معتمدين على مساندة أهل رشيد لهم ، وكان هؤلاء الجنود مسلحين تسليحاً رديئاً وتنقصهم الذخائر الكافية ، مما جعل الانجليز يظنون أنهم لن يجدوا أية مقاومة فى هجومهم ؛ بل إن الجنرال ويكوب أهمل القيام بعمليات استطلاع دقيقة للتعرف على أخبار المدينة ، ولم يطلب من جنوده سوى الاستيلاء عليها [١٧٨]

وكان على بك السنانكلى محافظ رشيد قد أمر جنود الحامية بالتراجع إلى داخل المدينة والاعتصام مع الأهالى بالمنازل استعداداً للقتال ، ولما لم يجد الانجليز أثراً للمقاومة خارج رشيد دخلوا المدينة مطمئنين فى ثلاثة طوابير[١٧٩] ، وانتشروا فى الطرق والأسواق يبحثون عن أماكن يستريحون فيها بعد أن تعبوا من عناء السير في الرمال من الاسكندرية إلى رشيد ، لكنهم ما كادوا يجوسون خلال الديار وتشتمل المدينة عليهم حتى أصدر على بك محافظ المدينة أوامره بإطلاق النار عليهم فأخذهم الرصاص من كل صوب ، وأخذ أهل المدينة يطلقون النار من النوافذ والأسطح ، فدبّ الرعب فى قلوب الانجليز من هول المفاجاة، وسقط الكثيرون منهم صرعى فى الشوارع ، وقتل قائد الحملة الجنرال ويكوب ومعه عدد كبير من الضباط ، فاستولى الذعر على نفوس البقية الباقية منهم فلاذوا بالفرار وانتهت الواقعة بهزيمة الجيش الانجليزى وفرار الأحياء منه إلى الاسكندرية ، وبلغ عدد القتلى فى هذه المعركة نحو ١٧٠ قتيلاً و ٢٥٠ من الجرحى وأسر المصريون منهم ١٢٠ أسيراً [١٨٠]

وقد بادر على بك حاكم رشيد بعد الموقعة إلى انفاذ الأسرى الانجليز إلى القاهرة ومعهم رءوس القتلى ليكون ذلك إعلاناً بالنصر الذى نالته رشيد ، وليبعث هذا المنظر فى نفوس الجند والشعب روح الأمل والثقة فى النفس[١٨١] ، وفرح أهل القاهرة فرحاً كبيراً بعد أن شاهدوا المبشرين ومعهم الأسرى ورءوس القتلى يطوفون بهم فى الشوارع والناس يقفون لمشاهدتهم متهللين [١٨٢]

لكن فرح أهل القاهرة لم يلههم ولم يقعد بهم عن الاستعداد للقاء العدو فأخذوا يحصنون القاهرة ، وقام بينهم شعور رائع من التكافل الاجتماعي والتعاون سببه الاشتراك في المحنة والتعرض للخطر ، فكان الأغنياء يجمعون العمال ويدفعون لهم أجورهم ليقيموا الخنادق والمتاريس والفقراء يعملون بأيديهم (١٨٣)

وكان فريزر قد هزته هزيمة جنوده في رشيد فأرسل حملة ثانية إلى هناك لمحو أثر الهزيمة التي حلت بجنوده والمحافظة على شرف بريطانيا وسمعتها العسكرية وتحركت هذه الحملة بقيادة الجنرال وليم ستيوارت William Stewart ومعه نحو ٢٥٠٠ جندي حاصروا رشيد ونصبوا عليها المدافع الثقيلة (١٨٤)

وفي أثناء ذلك كان المتطوعون المصريون يفدون على رشيد لمساعدة أهلها وفك حصارها ، واستطاعوا الهجوم على الانجليز من كل جانب وهم يكبرون ويصيحون حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان فلم يتركوهم ؛ بل قبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم وأرسلت الغنائم ومعها الأسرى ورءوس القتلى إلى القاهرة في عدة سفن (١٨٥)

وكان الجنرال ستيوارت مرابطاً أثناء الواقعة جنوبي رشيد فلما أدرك شدة النكبة التي حلت بجنوده سارع إلى الفرار عن رشيد قبل أن ينقضّ عليه المصريون ، وأتلف مدافعه التي لم يستطع حملها وتراجع إلى طريق « أبو قير » يجر أذيال الخيبة والهزيمة (١٨٦)

وتذكر المصادر أن خسائر الانجليز في معركة رشيد الثانية كانت نحو ٩٠٠ جندي بين قتيل وجريح وأسير .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى محمد علي ، وكان قد عاد إلى القاهرة ، أمر بإطلاق المدافع من القلعة وبولاق والأزبكية والجيزة ابتهاجاً بهذا النصر(١٨٧)

ومما لاشك فيه أن النصر في معركة رشيد الأولى والثانية قد تحقق بفضل شجاعة أهلها الذين أبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن مدينتهم ، وقد أشار إلى ذلك عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث الذي يقول : « ولبت العامة شكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل ؛ بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره » (١٨٨)

وهكذا كان انتصار المصريين على الانجليز انتصار للحق على الباطل ، والعدل على العدوان ، والوطنية على القرصنة والهمجية [189]

ولم تلبث حملة فريزر أن رحلت عن الاسكندرية فى سبتمبر سنة ١٨٠٧م عنما اتضح أن وجودها منعزلة بالاسكندرية فى حالة الضعف التى هى عليها لا يفيد سوى فائدة ضئيلة فى المجهود الحربى فى البحر المتوسط ، وكان من أهم النتائج المباشرة لحملة فريزر تمكن محمد على من الاستيلاء على الاسكندرية التى كانت خارجة عن حكمه قبل مجىء الحملة [190]

الهوامش

١- د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ٥ / مكتبة النهضة المصرية ط٢ سنة ١٩٧٢م

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ١١٢

٣- د . محمد عامر : تاريخ الشرق الإسلامى ١٤٥

٤- د . إبراهيم العدوى : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ١٢٤

٥- المرجع السابق

٦- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ١٣٣

٧- كتب الفيلسوف الألمانى جوتفريد فيلهلم ليبنيز (١٠٥٦ ـ ١١٢٨هـ / ١٦٤٦ ـ ١٧١٦م) مذكرة صغيرة باللغتين اللاتينية والفرنسية يشير فيها على الملك الفرنسى لويس الرابع عشر أن يقوم بغزو مصر لأن الاستيلاء عليها سوف يوقف المد العثمانى الإسلامى وسط أوربا حيث كان العثمانيون يهددون النمسا وبولندا والمجر ، وشرح هذا الفيلسوف فى مذكرته مبررات الحملة وظروفها السياسية والاجتماعية ، ودرس الشواطىء المصرية والمسافة بين فرنسا ومصر وسهولة الانتقال بالبحر ومدة الانتقال وعدد التحصينات وغير ذلك من عوامل «تقدير الموقف» التى يعكف عليها العسكريون بالضرورة وبين فى مذكرته سبب تفكيره فى غزو مصر بقوله « إنه بسبب مصر فقد المسيحيون الأراضى المقدسة ، وذلك أنها كانت المنقذ للمسلمين الذين يجب أن يختفوا من الأرض » ولم ينتبه لويس الرابع عشر لمذكرة هذا الرجل لأنه كان مشغولاً بالحرب مع هولندا . (انظر : د . أحمد يوسف : المخطوط السرى لغزو مصر ٥ ـ ٦ ، ٨ ، ٦٠ كتاب الهلال ـ العدد ٥٢٥ ـ سبتمبر ١٩٩٤)

٨- د . إبراهيم العدوى : الشرق الإسلامى ١٢٥

٩- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ١٣٤

١٠- المرجع السابق ١٣٧

١١- المرجع السابق

١٢- المرجع السابق ١٤١

١٣- د . محمد ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١١

١٤- محمد فريد تاريخ الدولة العلية ١٤١

١٥- د . عبدالله جمال الدين : من تاريخ الشرق الإسلامى ٢٩٥

١٦- د . إبراهيم العدوى : الشرق الإسلامى ١٢٧

١٧- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٨

١٨- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ١٦٠

١٩- انظر نصوص هذه المعاهدة فى كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦١ - ١٧١ نقلاً عن تاريخ جودت باشا

٢٠- القرم شبه جزيرة فى شمال البحر الأسود يحيط بها بحر القازاق من الشرق كما يحيط بها البحر الأسود من الجنوب والغرب وعاصمة القرم هى مدينة المسجد الأبيض (آق مسجد)ويسميها الروس « سيمفربول »

(د . محمد حرب : العثمانيون ١٩٠)

٢١- د . جمال عبد الهادى : الدولة العثمانية ٨٢

٢٢- د . محمد ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٩

٢٣- المرجع السابق ١٨

٢٤- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ١٤٢

٢٥- روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ٢ / ٥

٢٦- أطلق الاستعمار الأوربى اصطلاح الرجل المريض على الدولة العثمانية حينما دب الضعف والانهيار فى انحائها وسعى أولئك المستعمرون إلى اقتسام أملاك الدولة العثمانية التى أطلقوا عليها تركة الرجل المريض .

(د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ١١٢)

٢٧- د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٥ / ٥٥٣

٢٨- د . أحمد يوسف : المخطوط السرى لغزو مصر ٢٧

٢٩- نقولا الترك : تاريخ نابليون الأول ٦٩

٣٠- د . محمد ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١١٤

٣١- المرجع السابق

٣٢- المرجع السابق

٣٣- المرجع السابق ١١٧

٣٤- د . أحمد يوسف : المخطوط السرى لغزو مصر ٢٨

٣٥- د . إبراهيم العدوى : الشرق الإسلامى ١٥٨

٣٦- د . أحمد يوسف : المخطوط السرى لغزو مصر ٢٧

٣٧- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ٤٧

٣٨- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١١٨

٣٩- عبد الرحمن الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٣

٤٠- المصدر السابق

وانظر:

Charles-Roux, Francois , L , Angleterre et L' expedition Francaise en Egypte, Vol. 1. PP. 53-55 (Le Caire 1925)

Caire 1925)

٤١- ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربي ١١٩

٤٢- عبد الرحمن الرافعي : مصر المجاهدة ١ / ١٣

٤٣- عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ١ / ٥٣

٤٤- المصدر السابق

٤٥- المصدر السابق

٤٦- المصدر السابق

٤٧- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربي ١٢٠

٤٨- السناجق مفردها سنجق وهى كلمة تركية تعنى لواء أو راية وقد أطلق على حكام الأقاليم فى الامبراطورية العثمانية لقب « سناجق » باعتبارهم أمراء العلم .

(نقولا الترك : تاريخ نابليون الأول ٧٨ حاشية ٢)

٤٩- يلص فلاناً من ماله أخذه منه (انظر المنجد)

والمقصود أن المماليك كانوا يأخذون أموال التجار الفرنسيين ظلماً

(الجبرتى : مظهرالتقديس ١ / ٥٧ حاشية ٣)

٥٠- آبازه : كلمة تركية معناها « القوقاسى » أو القوقازى نسبة إلى بلاد القوقاز أو قفقاسيا

(المصدر السابق حاشية ٥)

٥١- الكرجستان هى المعروفة باسم « جورجيا » وتقع وراء جبال القوقاز وعاصمتها تفليس

(المصدر السابق)

٥٢- انظر : الجبرتى : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ١ / ٥٧ ـ ٦٠

٥٣- د . أحمد عوف : أحوال مصر ٩٩

٥٤- المرجع السابق

٥٥- قبل أن يغادر نابليون الاسكندرية اجتمع بكبير علمائها الشيخ محمد المسيرى والسيد محمد كريم حاكم المدينة وألف منهما ومن خمسة من أعيان المدينة مجلساً يتولى الحكم فيها وترك الجنرال كليبر حاكماً عسكرياً على المدينة ومعه نحو تسعة آلاف جندى تركهم لحمايتها .

(محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٣٩)

٥٦- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٤٨ ـ ١٤٩

٥٧- بعد وفاة محمد بك أبو الذهب فى عكا سنة ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م خلص حكم مصر لمراد بك وإبراهيم بك بالاشتراك بينهما وكان كلاهما من مماليك أبى الذهب ، وكان لابراهيم ومراد من النفوذ والسطوة ما لم يتح لغيرهما من المماليك ولم يستطع الوالى العثمانى أن يفعل شيئاً مما جعل الدولة العثمانية ترسل حملة لحربهما بقيادة حسن باشا قبطان الذى استطاع أن يهزمهما وأن يستقر فى القلعة بعد هربهما إلى الصعيد لكن السلطان العثمانى عاد وعفا عنهما وأمر حسن باشا قبطان بترك مصر سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٧م فعاد إبراهيم ومراد مرة أخرى إلى حكم مصر وقد استهان هؤلاء المماليك بالفرنسيين ، إذ

حينما علم مراد بك بقدوم حملة نابليون استهزأ وقال لصديقه قنصل النمسا كيف نخاف هؤلاء الرعاع الذين لا فرق بينهم وبين الواقفين على بابنا . . . ! إنهم ليسوا إلا فستق خلق للأكل لا للحرب . . ! وسنقضى عليهم بقوة حرسنا الخاص)

(محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٣٢ ـ ٣٥)

٥٨- عبد الرحمن الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٢١

٥٩- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٢١

٦٠- عبد الرحمن الرافعى : مصر المجاهده فى العصر الحديث ١ / ٢٦

٦١- المرجع السابق

٦٢- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٢٣

٦٣- عبد الرحمن الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٢٨

٦٤- المرجع السابق ١ / ٢٨

٦٥- المرجع السابق

٦٦- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٢٣

٦٧- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٤٦

٦٨- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٢٣

٦٩- المرجع السابق ١٢٤

٧٠- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٤٧

٧١- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٢٩

٧٢- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ٩٢

٧٣- المصدر السابق

٧٤- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٢٩

٧٥- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٣٢

٧٦- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ٨٨

٧٧- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٣٢

٧٨- المرجع السابق ٣٣

٧٩- كان السيد محمد كريم فى أيامه قباناً يزن البضائع فى حانوت بميناء الاسكندرية ثم عمل وكيلاً بدار السعادة وكانت له الكلمة النافذة فى كفرشيد واتصل بمراد بك الذى رفع شأنه وقلده أمر الديوان والجمارك بالميناء ثم تولى أمر المدينة ، وحين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر تصدى لها بكل قوة ورفض التعاون مع الفرنسيين وحينما عفا عنه نابليون وتركه بالاسكندرية أخذ يقود المقاومة السرية ضدهم حتى اكتشفوا أمره وأمروا بالقبض عليه وحقق معه ديبوى حاكم القاهرة وانتهى التحقيق بثبوت التهمة عليه فقرر نابليون فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إعدامه رمياً بالرصاص ومصادرة أملاكه وأمواله

وسمح له بأن يفتدى نفسه بغرامة مالية قدرها ثلاثين ألف ريال فرفض السيد محمد كريم وقال إذا كان مقدراً على أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المال ، وإذا كان مقدراً لى الحياة فعلام أدفعه، وظل على إصراره حتى نفذ فيه حكم الإعدام رمياً بالرصاص فى ميدان الرميلة (القلعة) فى يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨م فمات بطلاً شهيداً .

(الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٨ ـ ٢٠ ، نقولا الترك : تاريخ نابليون ٧٣ ، ١١٥)

٨٠- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٥١

٨١- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٣١

٨٢- المرجع السابق .

٨٣- المرجع السابق ١٣٦

٨٤- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٣٨

٨٥- المرجع السابق ٣٩

٨٦- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ١٢٤

الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٣٨

٨٧- نقولا الترك : تاريخ نابليون الأول ١٣١

٨٨- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ١٢٥

٨٩- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٤١

٩٠- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٥٤

٩١- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٤٣

٩٢- المرجع السابق

٩٣- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٥٤

٩٤- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٣٧

٩٥- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٤٥

٩٦- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ١٣١

٩٧- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٥٥

٩٨- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٣٧

٩٩- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ١٣٦

١٠٠- الرافعى : مصر المجاهد ١ / ٤٨

١٠١- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ١٣٦

١٠٢- نقولا الترك : تاريخ نابليون الأول ١٣٧

١٠٣- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ١٤٦

١٠٤- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٥٠

١٠٥- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٣٨

١٠٦- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ /.٦٢

١٠٧- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٥٢

١٠٨- فوزى جرجس : دراسات فى تاريخ مصر السياسى ٢٧

١٠٩- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٣٩

١١٠- المرجع السابق

١١١- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٠٤

١١٢- د . أحمد عوف : أحوال مصر ١٠٧

١١٣- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٣٩

١١٤- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٠٤

د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٣٩

١١٥- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٠٥

١١٦- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٣٩

١١٧- د . أحمد عوف : أحوال مصر ١٠٨

١١٨- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٠٥

١١٩- د . أحمد عوف : أحوال مصر ١٠٨

١٢٠- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١١٥

١٢١- المرجع السابق ١ / ١١٦

١٢٢- المرجع السابق ١١٧

١٢٣- المرجع السابق

١٢٤- المرجع السابق : ١ / ١٢١

١٢٥- المرجع السابق ١٢٢

١٢٦- المرجع السابق

١٢٧- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٥٦

١٢٨- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٢٥

١٢٩- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٨٧

١٣٠- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٢٦

١٣١- المرجع السابق

١٣٢- المرجع السابق ١٢٧

١٣٣- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٥٨

١٣٤- المرجع السابق

١٣٥- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٩٤

١٣٦- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٥٩

١٣٧- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٩٥

١٣٨- الجبرتى : مظهر التقديس ٢ / ٥٦ حيث يقول عن الفرنسيين : « وشرعوا فى توزيع الغرامات وتقسيمها على عموم الناس وخاصتهم من الملتزمين والتجار والمتسببين وجماعة الغورية وخان الخليلى والصاغة والنحاسين والدلالين والقبانية حتى قضاة المحاكم وأهل الجمالية وسائر الأخطاط بما تحوى من الوكائل والعطارين والزياتين والجزارين والمزينين والحدادين وجميع الصنائع والحرف »

١٣٩- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٤٣

١٤٠- الجبرتى : مظهر التقديس ٢ / ٦٦

١٤١- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٤٣

١٤٢- المرجع السابق ١٤٦

١٤٣- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٤٣

١٤٤- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٥٥

١٤٥- الجبرتى : مظهر التقديس ٢ / ١٠٨ ـ ١٠٩
الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٥٦
نقولا الترك : تاريخ نابليون الأول ٢٥٦

١٤٦- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٥٦

١٤٧- المرجع السابق ١٥٩

١٤٨- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ١٤٤

١٤٩- المرجع السابق ١٤٤

١٥٠- فوزى جرجس : دراسات فى تاريخ مصر السياسى ٢٧

١٥١- الجبرتى : مظهر التقديس ١ / ١٦٦ ـ ١٦٧
د . جمال عبد الهادى : الدولة العثمانية ٨٧

١٥٢- فوزى جرجس : دراسات فى تاريخ مصر السياسى ٢٧

١٥٣- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث ٥٣

١٥٤- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ٧٠

١٥٥- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٦٢

١٥٦- المرجع السابق

١٥٧- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٩٠

١٥٨- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ٧١

١٥٩- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ١٩٦

١٦٠- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ٧١

١٦١- المرجع السابق ٧٣

١٦٢- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٢٢٧

١٦٣- الرافعى : المرجع السابق ٢ / ١٢ - ١٧

١٦٤- د . ضياء الدين الريس ٧٣

١٦٥- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٦٤

١٦٦- د . ضياء الدين الريس ٧٤

١٦٧- المرجع السابق ٧٣

١٦٨- الجبرتى : عجائب الآثار ٢ / ١٤٣

١٦٩- الرافعى : مصر المجاهدة ٢ / ٢٤

١٧٠- المرجع السابق

١٧١- المرجع السابق ٢ / ٢٥

١٧٢- الجبرتى : عجائب الآثار ٣ / ١٧٣

١٧٣- المصدر السابق

١٧٤- المصدر السابق ١٧٨

١٧٥- المصدر السابق ١٨٠

١٧٦- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٦٥

١٧٧- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ٧٦

١٧٨- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٦٦

١٧٩- المرجع السابق

١٨٠- الرافعى : مصر المجاهدة ٢ / ٢٧

١٨١- المرجع السابق ٢٩

١٨٢- الجبرتى : عجائب الآثار ٣ / ١٩٣

١٨٣- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢ / ٢٨

١٨٤- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٧١

١٨٥- الجبرتى : عجائب الآثار ٣ / ١٩٥ - ١٩٦

١٨٦- الرافعى : مصر المجاهدة ٢ / ٣٦

١٨٧- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٢٩

١٨٨- الجبرتى : عجائب الآثار ٣ / ١٩٦

١٨٩- د . ضياء الدين الريس ٧٦ - ٧٧

١٩٠- د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ١٧٢

محمد على يتولى السلطة الكاملة فى مصر

تردد اسم محمد على كثيراً أثناء حديثنا عن الحملة الانجليزية على رشيد سنة ١٨٠٧م فمن هو محمد على ؟ ومن أين أتى ؟ وكيف تسنى له الوصول إلى حكم مصر ؟

هذا ما سوف نتناوله فيما يلى :

حينما خرج الفرنسيون من مصر سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١م (١) خلا الجو للعثمانيين والمماليك للتنافس على السلطة ، فعين العثمانيون محمد باشا خسرو والياً على مصر (٢) ، لكنه لم يوفق فى عمله ، إذ نشب الصراع بينه وبين المماليك عقب توليه الحكم ولم يستطع السيطرة على الأمور ففر هارباً إلى دمياط فاختار العلماء طاهر باشا قائد الأرناؤوط قائمقاماً لكنه لم يمكث فى منصبه سوى ثلاثة أسابيع قتل بعدها على يد الانكشارية فخلفة ضابط فى الثلاثين من عمره يدعى محمد على (٣)

ولد محمد على فى قرية « قولة »(٤) سنة ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م(٥) وتوفى والده وهو فى العقد السابع من عمره فكفله عمه طوسون حتى بلغ أشده (٦) فاشترك فى الحملات التى كانت توجهها حكومة المدينة لتعقب قاطعى الطريق أو لتحصيل أموال الدولة ، وقد تولى قيادة بعض هذه الحملات وأبدى براعة استرعت نظر الوالى الذى قربه منه وزوجه احدى قريباته ولقد آثر محمد على الاشتغال بالتجارة بعد زواجه فعمل فى تجارة التبغ (الدخان) وربح منها كثيراً لأن التبغ كان من أهم السلع فى تلك المنطقة (٧)

وخلال الحملة الفرنسية على مصر قرر العثمانيون إرسال حملة بحرية للتصدى للفرنسيين سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م وأصدر السلطان سليم الثالث أمراً إلى حاكم قولة بأن يرسل كتيبة مؤلفة من ثلاثمائة جندى (٨) لتشترك مع القوة العثمانية التى جمعت فى تركيا وقد اصطلح على تسميتها بالقوة الألبانية لأن اكثر رجالها كان منها ، وخدم محمد على فى تلك القوة العثمانية الأوربية ، وترقى سريعاً فى رتبها العسكرية (٩) وسار محمد على فى سلم الترقية حتى صار فى مدة سنتين زعيماً لأقوى الفرق العسكرية الموجودة فى مصر بعد أن عينه خسرو باشا الذى صار والياً على مصر بعد خروج الفرنسيين فى رتبة قائمقام قول

أغاسي وهي الرتبة التي تقابل عقيد حالياً ، ثم عين قائداً للفرقة الألبانية المنوطة بحماية مصر من أي اعتداء خارجي أو سيطرة داخلية مثل المماليك أو انتفاضة شعبية ضد العثمانيين (١٠)

ومن ثم أخذ في استمالة قلوب الجند إليه للاستعانة بهم عندما تسنح الفرصة ليحقق ما يطمح إليه ، ولجأ أيضاً إلى المماليك فتقرب منهم وتودد إليهم ، واستطاع بدهائه أن يرتبط بهم ، وتحالف مع أحد زعمائهم ويدعى البرديسي ، لكن التحالف مع البرديسي لم يدم طويلاً فلم يمض عليه أكثر من شهر واحد حتى كانت سياسة البرديسي المالية ، قد أدت إلى تذمر الجند والشعب لكثرة ما فرضه من الضرائب ، وعدم دفع مرتبات الجند (١١) وثار الناس وخرجت جموعهم تصيح « إيش تأخذ من تفليسي ! يابرديسي !» وأغلق التجار وكالاتهم ودكاكينهم واتجهوا مع الثائرين إلى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج لديهم على ضرائب البرديسي الجديدة فقام المشايخ والعلماء معهم وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده بالأذى فبادر إلى كشف المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفاً لغضب الجماهير، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ ، ونزل في الشوارع واختلط بالجماهير الثائرة ، وقابل العلماء بالأزهر وتعهد لهم بأن يبذل كل ما في وسعه لإلغاء هذه الضرائب الجديدة (١٢) وأوصى جنوده بأن يحترموا الشعب ويعلنوا عدم رضاهم عن الضرائب الجديدة وأنهم يطلبون مرتباتهم من الحكومة لا من الرعية (١٣) .

وانتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزع جنود المماليك في الاقاليم ليتخلص منهم فأمر بمهاجمة المماليك الموجودين في القاهرة ، وكان جنود المماليك قد احتلوا القلعة وأخذوا يطلقون النار على الناس فتمكن جنود محمد على من التغلب عليهم فتركوا القلعة وفروا مع بقية الأمراء المماليك إلى الوجة القبلي بعد أن قتل المماليك وجنودهم نحو ثلثمائة وخمسين ، وفي اليوم التالي أبطلت الضرائب الجديدة التي كانت سبباً في اشتعال الثورة (١٤) ففرح الشعب بمحمد على وتعلق به .

ونتيجة للأحداث التي كانت تدور في مصر قرر السلطان العثماني تعيين خورشيد باشا والياً على مصر فلم تكن سلطته تتعدى حدود مدينة القاهرة التي كانت عرضة لتمرد الجنود وعصيانهم (١٥)

وقد أحسّ خورشيد بارتفاع شأن محمد على واتجاه الأنظار إليه فسعى لدى الباب العالى لإبعاده عن مصر ، ونجح في مسعاه عندما ورد فرمان سلطانى بتقليد محمد على ولاية جدة وقبل محمد على الأمر جرياً على ماسار عليه (١٦)

إلا أن الكوارث المتوالية من فرض الضرائب وقطع المواصلات وتمرد الجند وانتشار السلب والنهب جعلت أهل القاهرة يخرجون عن حد الاحتمال فالتفوا ثائرين حول شيوخهم وأعيانهم وبخاصة نقيب الأشراف السيد عمر مكرم وانضم إليهم بعض طوائف الجند ، وطالبوا بوضع حد لسوء الحال ثم انتهى أمر المشايخ والعلماء إلى مطالبة الباشا العثمانى باعتزال منصبه ، ولما رفض حاصروه فى القلعة وترامى الفريقان بالقنابل (١٧)

وفى يوم الأثنين ١٣ من صفر سنة ١٢٢٠هـ / ١٣من مايو سنة ١٨٠٥م اختار زعماء الشعب محمد على والياً للبلاد وألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى خلعة الولاية (١٨)

وهكذا نجح المصريون فى تقرير مبدأ دستورى مهم ، وهو حق الأمة فى اختيار واليها وتعيين حاكمها فكان أول انقلاب فى الحياة السياسية فى مصر فى العصر الحديث .

ويقول الرافعى المؤرخ فى تقييمه لهذا اليوم أن مصر وضعت فيه أساس حريتها واستقلالها ، وأعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها (١٩)

ولقد وجدت الحكومة العثمانية أنه من الحكمة الموافقة على اختيار الشعب المصرى فأصدر الباب العالى فرماناً بتعيين محمد على سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م (٢٠) لكن الانجليز تدخلوا لصالح خادمهم محمد بك الألفى وسعوا لدى السلطان العثمانى لخلع محمد على من ولاية مصر فاستجاب لهم الباب العالى وأمر بنقله فرفض علماء مصر وزعماء الشعب هذا النقل وكتبوا إلى السلطان العثمانى يطلبون إبقاء محمد على وساندهم الجند الألبانيون فأمر الباب العالى بتثبت محمد على فى حكم مصر سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م(٢١)

وعقب جلاء الانجليز عن مصر قرر محمد على القضاء على المماليك جميعاً فأجهز عليهم فى القلعة سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م (٢٢)

وتوطدت الأمور لمحمد على داخل مصر ، واستقر حكمه بها فأخذ يعيد تنظيمها بمايتناسب وطموحه الشخصى فاهتم بالجيش الذى أصبح أداته الأولى فى تأمين دولته والعمل على توسعها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .

الجيش المصرى فى عهد محمد على :

كان محمد على يسعى إلى تكوين جيش قوى لضمان استقلاله فى الداخل ولكى يحقق ما يصبو إليه فى الخارج ، ولكن كيف يحقق هدفه وسعيه ؟

فى بادىء الامر حاول إعادة تنظيم الجند الالبانيين (الأرناؤوط) الذين كانوا لايزالون خاضعين خضوعاً بعيداً لتأثير الروح العثمانية ، ولم يبرهنوا على كفاءتهم فى الحملات التى شنها ضد الوهابيين والتى شغلته حتى سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م فلما سعى إلى أخذهم بالشدة والصرامة كى يتعودوا على الطاعة والنظام ، تمردوا عليه (٢٣) فسكت عنهم إلى حين، ولم يتمكن من بدء الإصلاح الحقيقى لجيشه إلا بمقدم الكولونيل « سيف » أحد الضباط المتقاعدين من جيش نابليون فهدا إليه تدريب جنود جديدة من السودانيين فى أسوان وأسست مدرسة للتدريب على النظام الحديث هناك لكن هؤلاء السودانيين لم يحققوا آمال محمد على ولم تلائمهم الأجواء خارج السودان فكثرت بينهم الوفيات (٢٤) ، ولذا لجأ محمد نهائياً إلى تجنيد الفلاحين المصريين الذين اثبتوا كفاءة ممتازة فى التدريب والطاعة والالتزام .

واتجه محمد على إلى الفرنسيين للاستعانة بهم فى إمداده بالضباط اللازمين لتدريب جيشه الجديد وتخريج الضباط المصريين الذين يتولون قيادة هذا الجيش (٢٥)

وانشأ المدارس العسكرية اللازمة لتكون فى خدمة هذا الجيش مثل المدارس الحربية بأسوان وفرشوط والنخيلة وجرجا ، وأنشا سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م مدرسة إعدادية للتعليم الحربى بقصر العينى ثم مدرسة للمشاة بالخانكة ومدرسة للفرسان بالجيزة ومدرسة للمدفعية بطرة ومدرسة لأركان حرب الجيش بالخانكة (٢٦)

وبنى محمد على لهذا الجيش القلاع والحصون وأنشا له مصانع للأسلحة كالبنادق والمدافع والذخائر بالقلعة ، كما أنشا مصنعاً آخر لصنع البنادق فى الحوض المرصود ، واقيمت عدة مصانع أخرى للبارود فى القاهرة والبدرشين والأشمونيين والفيوم واهناسيا والطرانة (٢٧)

وظل الجيش ينمو حتى صار عدده ٢٥٠٠٠ فى سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م ثم ٩٠,٠٠٠ فى سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م ثم ١٥٠,٠٠٠ فى سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م من الجنود النظامية عدا المتطوعين والأنواع الأخرى (٢٨)

وكان محمد على يرى أن قوة مصر العسكرية لا تكون كافية للدفاع عن استقلال مصر وبسط نفوذها فى الخارج إلا إذا عاونها أسطول حربى قوى ، لذلك جاء تنظيم البحرية المصرية عقب تشكيل الجيش المصرى النظامى بزمن يسير فبدأ بشراء بعض السفن الحربية من الموانىء الأوربية كمرسيليا وليفون وتريسيا ، وقد سلحها بالمدافع وعهد بقيادتها إلى قباطين السفن التجارية من الاسكندرية ومن الاتراك ، وجعل ملاحيها من المتطوعين وجعل بها بعض الضباط من الفرنسيين والايطاليين لتعليم التجارة وتدريبهم (٢٩) .

وكان بالاسكندرية ترسانة قديمة تبنى فيها بعض السفن على الطراز القديم فعهد محمد على برئاستها إلى رجل من أهل الاسكندرية يدعى شاكر افندى يعاونه مهندس بارع اسمه الحاج عمر وبدأ الاثنان فى تجديد الترسانة وانشاء السفن الحربية (٣٠) .

وفى سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م انشأ ترسانة جديدة على شاطىء الميناء بالاسكندرية برئاسة المسيودى سريزى بك Decerisy وهو مهندس بحرى فرنسى من ميناء طولون اشتهر بالكفاءة والخبرة فى فنون البحرية وبخاصة فى بناء السفن والأحواض والترسانات .

واتسعت أعمال هذه الترسانة وكثر عمالها حتى بلغ ٨٠٠٠ عامل مصرى اتقنوا بناء السفن فاستغنت مصر عن شراء السفن من الخارج (٣١)

ولما شاع استعمال البخار قامت دار الصناعة بإنشاء عدة سفن حربية بخارية وكانت السفن الحربية قبل ذلك تسير بالشراع ، ولم يكتف محمد على بذلك ، بل انشأ معسكراً لتعليم البحارة من الجنود الأعمال البحرية وانتقتهم الحكومة من كل المديريات وأعدت لإقامتهم وتدريبهم الجهة الشمالية الشرقية من رأس التين ، وانشأ مستشفى للبحرية فى رأس التين وآخر فى الترسانة ، وانشأ مدرسة بحرية لتخريج ضباط البحرية ، وأرسل البعثات العسكرية إلى كثير من الدول الأوربية كى يساهم هؤلاء المبعوثون فى سرعة تدريب الجيش المصرى (٣٢)

وبهذا الجيش الجديد المزود بالسلاح الحديث والمدرب على الأسلوب الفرنسى استطاع محمد على السيطرة على طرق التجارة الافريقية حيث البهارات والعاج والذهب فى السودان وطارد فلول المماليك الذين فروا إلى النوبة فأخضعها لحكمه ، ووصل بقواته إلى الحبشة لتأمين منابع النيل كما وصل بقواته إلى شرق البحيرات بجنوب السودان لنفس هذا الغرض ، واندفع إلى محاربة الوهابيين الذين كانت دعوتهم أصولية للعودة إلى الإسلام مع نبذ البدع والضلالات فكانوا مصلحين ولم يكونوا مرتدين (٣٣)

وتمكن محمد على من خوض حروب عديدة حتى حقق أهدافه فى تكوين امبراطورية كبرى مما جعل الدول الأوربية تتوجس منه خيفة بسبب تهديده لمصالحها فى شرق البحر المتوسط ، فأسرعت روسيا بعقد معاهدة دفاعية وهجومية مع الباب العالى فى سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م سميت بمعاهدة (خونكار اسكله سى) تعهدت فيها روسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية لو هاجمها المصريون ، ولم يكتف الأوربيون بذلك ، بل اجتمعت كل من النمسا وروسيا وانجلترا ووقعوا معاهدة لندن بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠م التى بمقتضاها ينحصر نفوذ محمد على فى مصر وحدها وصدقت الدولة العثمانية على هذه المعاهدة التى أوردها لنا محمد فريد فى كتابه تاريخ الدولة العلية (٣٤) وجاء فيها :

أولاً : أن يلتزم محمد على بك بإرجاع ما فتحة للدولة العثمانية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبى من الشام مع عدم دخول مدينة عكا .

ثانياً : أن يكون لانجلترا الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة موانى الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العثمانية ، وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان والتمرد كى تشغل الجيوش المصرية فى الداخل فلا تقوى على مقاومة السفن الحربية النمساوية والانجليزية .

ثالثاً : أن يكون للسفن الروسية والنمساوية والانجليزية معاً حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها

رابعاً : ألا يكون لأحد الحق فى الدخول فى مياه البوسفور مادامت القسطنطينية غير مهددة

خامساً : يجب على الدول الموقعة على هذا الاتفاق أن تصدق عليه فى مدة لاتزيد عن شهرين

وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدولة العثمانية مبين فيها الحقوق والامتيازات التى يمكن منحها لمحمد على .

وفى سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م أصدرت الدولة العثمانية فرماناً من ضمن بنوده تحديد عدد أفراد الجيش المصرى بثمانية عشر ألف نفر من الجند فى وقت السلم ويمكن أن يزداد هذا العدد فى وقت الحرب وبموافقة الدولة العثمانية وحددت مدة التجنيد لهؤلاء الأفراد بخمس سنوات يعودون بعدها إلى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية ، ومما جاء فى هذا الفرمان أيضاً وقف رتب الضباط حتى رُتبة الملازم أما ماكان أعلى من هذه الرتبة فيتم التعيين إليها بإرادة الباب العالى [٣٥]

وهكذا شلّ هذا الفرمان يدى محمد على فعجز عن الانطلاق نحو تطوير الجيش المصرى الذى شهد له القنصل البريطانى فى القاهرة آنذاك بأنه كان يفوق فى قوته أى جيش آخر كونته حكومة شرقية ، وقد كان لهذا الجيش دور كبير فى الجزيرة العربية والسودان وبه استطاع محمد على توسيع حدود دولته التى امتدت إلى فاشودة جنوباً وكردفان غرباً وحدود الحبشة شرقا ، وصارت مصر ملكا له ولأسرته من بعده إلى أن تمّ القضاء عليهم بثورة الجيش المصرى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م .

الهـوامـش

١- عبد الرحمن الرافعي : مصر المجاهدة ١ / ١٦١

٢- المرجع السابق ١٨٧

٣- على مبارك : الخطط التوفيقية ١ / ١٦٤ ط٢ سنة ١٩٨٠م الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤- تقع قرية « قولة » على الساحل الأوربى لبحر إيجة وهى تبعد عن مدينة سالونيك غرباً بحوالى ٨٠ كيلومتراً وعن عاصمة الدولة العثمانية استانبول (الأستانة) بحوالى ٣٨٠ كيلومتراً ، والقرية تحتل صخرة موغلة فى مياة البحر وتظهر من بعد على هيئة رأس جواد وكانت المدينة تسمى « لاكوال » أى الحصان باللغة اللاتينية أو « قل » بالاغريقية نسبة إلى هذه الصخرة التى قامت عليها القرية وقد حرفت مع الزمن إلى « كافالا » وحرفت فى العربية إلى « قولة » التى كان سكانها من رعاية الدولة العثمانية (حسين كفافى : محمد على ٦٠)

٥- شفيق غربال : محمد على الكبير ٦

٦- حسين كفافى : محمد على ٧٢

٧- شفيق غربال : محمد على الكبير ٢٦ ـ ٢٧

٨- حسين كفافى : محمد على ٨٢

٩- شفيق غربال : محمد على الكبير ٤٣

١٠- حسين كفافى : محمد على ٩٩

١١- عبد الرحمن الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٢٠٠

١٢- عبد الرحمن الرافعى : مصر المجاهدة ٢٠١

١٣- المرجع السابق

١٤- المرجع السابق ٢٠٣ ـ ٢٠٤

١٥- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٢٠٥

١٦- شفيق غربال : محمد على الكبير ٤٧ .

١٧- المرجع السابق

١٨- المرجع السابق

١٩- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٢١٥

٢٠- الجبرتى : عجائب الآثار ٣ / ٧٤

٢١- الجبرتى : عجائب الآثار ١٣٧ ـ ١٣٨

٢٢- الرافعى : مصر المجاهدة ١ / ٦٦ ـ ٦٨

٢٣- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ٢١١

٢٤- المرجع السابق

٢٥- الرافعي : مصر المجاهدة ٢/ ١١٥ ـ ١١٦

٢٦- المرجع السابق ١١٦

٢٧- المرجع السابق ١١٧

٢٨- د . ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى ٢١٢

٢٩- الرافعي : مصر المجاهدة ٢ / ١٢٠

٣٠- المرجع السابق

٣١- المرجع السابق ٢ / ١٢١

٣٢- الرافعي : مصر المجاهدة ١٢٢

٣٣- د . أحمد عوف : أحوال مصر ١١٧

٣٤- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ٢٤١

٣٥- المرجع السابق ٢٤٨ .

حاول المستعمرون هدم الإسلام فنشروا بين أبنائه عدم صلاحيته للمجتمع الحديث وتلقف هذا الرأى عملاء الإستعمار ومن شايعهم من أنصاف المثقفين الذين لايعرفون شيئا عن التعاليم الإسلامية سوي ما يجري علي ألسنة العامة والجهلاء (١)

وعارض هذا الإتجاة تيار آخر آمن بمبادئ الإسلام ودعا أنصاره إلي بعث التعاليم الإسلامية من جديد علي أساس أنها تنظم حياة الدولة إجتماعيا وسياسيا بالإضافة إلي كونها مبادئ دينية تربي الفرد روحيا وترسم له طريق العبادة والتقرب إلي الله (٢)

وكان من أهم عوامل ظهورهذا التيار مواجهة الشرق للغرب الذي أنقض علي الأمة الإسلامية يحاول تدميرها .

وقد تقابلت هذه الدعوة إلى النهضة الدينية مع طموح السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي كان يدعو إلي الوحدة الإسلامية عن طريق الدعوة إلي إنشاءالجامعة الإسلامية التي تربط بين شعوب المسلمين و تحفظهم من الغزاةالمعتدين .

وأول من رفع لواء هذه النهضة السيد جمال الدين الأفغاني ؛ فهو يعتبر الأب الفكري لها ؛ وباعث حركتها في معظم بقاع العالم الإسلامي (٣)

لقد كان السيد جمال الدين أفغاني الأصل(٤)ولد في قرية سعد أبادبالقرب من مدينة كابل عاصمة أفغانستان سنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٩م من أسرة تنتسب إلي آل البيت حيث ينتهي نسبة إلي الحسين بن علي رضي الله عنهما ؛ولعل هذا هو السبب في تسميتة بالسيد ؛ وقد تمتعت أسرتة بمكانة رفيعة في قلوب الأفغانيين لحرمة نسبها الشريف (٥)

تلقي جمال الدين العلم في كابل حيث درس مبادئ العلوم العربية وعلوم الشريعة الإسلامية والتاريخ والرياضيات وساعده ذكاؤه على التفوق فى دراسته (٦) وقضى حياته الأولى في بخارى حيث عناصر الإستعمارالروسي يتقاطر هناك واصطدم لأول مرة بالقوى الغربية حين رحل إلى الهند حيث قابل الإستعمار الإنجليزى هناك (٧)

وعندما بلغ العشرين من عمره انخرط في سلك خدمة أمير أفغانستان (٨) الأمير محمد أعظم ابن أمير الأفغان الكبير (دوست محمد خان)وكانت سياسة الأفغان في أواسط

القرن الماضي سياسة نشيطلكثيرة التقلبات حافلة بالأحداث نتيجة نشاط السياسة الاستعمارية وما يصاحبها من المؤامرات والدسائس التي كانت تديرها الدولتان المتنافستان؛ إنجلترا التي كانت تملك إمبراطورية الهند شرقي أفغانستان وروسيا القيصرية التي كانت تواصل الزحف علي أراضي الدولة العثمانية والإستيلاء علي الأقطار الإسلامية في أواسط آسيا [٩]

وعقب وفاة الأمير محمد خان أختلف أولادة وتنازعوا فانقسمت البلاد معهم شيعا وأحزابا ،ورأي جمال الدين أن يؤيد (محمد أعظم)الذي وثق به وجعله وزيره الأول وأعتمد علي نصائحة وإشتركا معا في تدبير الأمور فاكتسب جمال الدين خبرة عملية في الحياة وهو لايزال شابا يافعا ،وأتيحت له الفرصة ليطلع علي حقيقة نوايا الإستعمار الأوربي وخططة لإضعاف البلدان الإسلامية تمهيدا لتدميرها مماكان له أبعد الأثر في تكوين شخصية وبلورة آرائه وتحديد إتجاهاته [١٠]

لكن الأمور لم تسر حسبما أراد جمال الدين إذ تغلب أحد أبناء الأمير دوست محمد خان وهو (شير علي)الذي كان مؤيدا من الإنجليز علي أخية الأمير محمد أعظم فزالت دولتة وحينئذ اضطر جمال الدين إلي مغادرة بلاده علي كره منه [١١]

واستقر رأية على التوجة إلى إستانبول ،وكانت شهرته كعالم عظيم قد سبقته إلي هناك فاستقبل إستقبالا طيبا من قبل الحكومة والأوساط العلمية [١٢] وعين علي الفور في منصب الأستاذية بالمدرسة العليا للشريعة الإسلامية[١٣] التي استطاع أن يحدث فيها تأثيرا بعيدا بما ألقي من دروس ومحاضرات [١٤] فالتف التلاميذ حوله ، ولقنهم المبادئ التي آمن بها ورباهم تربية دينية ثورية فكانوا هم الرعيل الأول الذي حمل دعوته الإصلاحية [١٥]

كماكانوا سبب ما عاناه من متاعب في تركيا إذ ثار عليه العلماء المحافظون علي القديم[١٦] ورأوا في دعوته خطرا عليهم ونجح شيخ الإسلام في إثارة الشك حوله[١٧]واتهمه بالزندقة واضطر علي أثر ذلك إلي الرحيل عن تركيا كي يتفادى هجوم شيخ الإسلام واعوانه [١٨] واتجه إلى مصر فاستقر بها ثمانى سنوات في ظل رعاية وترحيب الخديوي إسماعيل الذي

شجعه على المضى فى دعوته لأن ذلك يوافق غرض إسماعيل فى التصدى للنفوذ الأجنبى الذي يحاول سلب السلطة من صاحبها الشرعى (١٩)

تبين لجمال الدين في القاهرة مدي الخطورة التي تهدد الشرق الإسلامي ففي مصر تتركز هجمات أوربا فأشعل ثورته على الاستعمار الأوربى ؛ ولم يكن كفاحه ضد الإستعمار أقل من معارضته موقف الطبقات الحاكمة التى تحاول استغلال الشعوب الإسلامية وبين جمال الدين أن الإسلام يعطى للشعب حق تقرير مصيره وأن الأحداث السياسية التى نتج عنها إقامة نظم الحكم الموجودة إثر الهجوم الغربى على الشرق لايجوز قبولها على أنها قضاء وقدر كتب على جبين هذا الشعب ، بل يجب الكفاح ضدها حتى تستقيم أو تزول لتحل محلها حكومات عادلة ، وبين أن الدفاع عن حقوق الشعب واجب مقدس فى عنق كل مسلم (٢٠)

وكرس جمال الدين الأفغانى جهده لتوسيع دائرة الثقافة العربية ونقلها من محيط الترجمة والتأليف إلى ميدان السياسة والاتصال المباشر بعامة الشعب بدلا من الاقتصار علي جماعة معينة من المثقفين ثقافة عالية ، فقد لاحظ هذا الرجل أن الأدب مازال مكر سا للطبقة الارستقراطية لاهم له إلا مدح الملوك والأمراء والتغنى بأفعالهم وصفاتهم مما زاد من ظلمهم فثارت نفسه لذلك ، وحول مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال ، لقد استطاع أن يسخر الأدب لخدمة الشعب وجعله يطالب بحقوقه ، ويدافع عنه ، ويهاجم من اعتدي عليه، ويبين للناس سوء حالهم ويبصرهم بحقوقهم ويحرضهم على الخروج من الظلمات إلى النور ، فخرج جمال الدين بأدب جديد ينشد الحرية ويتخلص من رق العبودية ويفيض فى حقوق الناس وواجبات الحكام ، وكانت هذه النعمة التي بثها جمال الدين فى الثقافة العربية نغمة جديدة في مطالع العصور الحديثة وخطوة حررت المثقفين فى مصر من قيود أسرة محمد على ، وجعلتهم رسل هداية وانقاذ ليس لبلدهم فحسب ، بل ولسائر أرجاء العالم العربى الذي كان يعانى اكثر مما تعانيه مصر من قيود الثقافة والجهالة (٢١)

وقد عمل جمال الدين مدرسا في الأزهر فنجح في تحريره من نظام التعليم التقليدى الذي توارثه الخلف عن السلف وأعلن فيه صيحة التجديد ، ولقن تلاميذه طريقة لإصلاح هذه الجامعة الاسلامية الكبيرة (٢٢)

واستطاع جمال الدين القيام بدور كبير في مصر فشكل حزبا من أنصاره وتلاميذه عرف بالحزب الوطنى أو الحزب الأهلى أو حزب الفلاحين (٢٣) وقد ساعده على تشكيل هذا الحزب وجود بعض الجمعيات الناشئة مثل الجمعية السرية التى ألفها على الروبى سنة ١٨٧٦م من ضباط الجيش وكان من بين أفرادها أحمد عرابي وكانت أهداف هذه الجمعية تتلخص في العمل على تخليص الجيش المصرى من العناصر الشركسية والتركية التي كانت تستحوذ على المناصب والنفوذ وتتمتع بالترقيات والعلاوات دون المصريين (٢٤) هذا إلى جانب جمعية مصر الفتاة التي تشكلت بمدينة الأسكندرية عام ١٨٧٩م من المثقفين الذين تأثروا بأفكار جمال الدين مثل أديب إسحاق وسليم النقاش وكانت تطالب بالحياة النيابية السليمة وجمعية حلوان التي تكونت عام ١٨٧٩ أيضا من كبار ملاك الأراضي الزراعية وكان من نتيجة الإتصال بين جمعية الجيش السرية وجمعية حلوان أن أعلن عن قيام الحزب الوطني السابق ذكره(٢٥)

وهكذا نبتت من تعاليم السيد جمال الدين تلك الروح العربية الجديدة التي تمثلت في الدعوة إلى التحرير السياسي والتضامن والإتحاد كى يستعيد المسلمون مكانتهم القديمة السامية ،لكن الظروف السياسية في مصر لم تتركه حتى يتم رسالته فى بعث الوعى السياسى لدى الأمة إذ كانت البلاد تعانى أنذاك ضغطا أجنبيا إنجليزيا وفرنسيا بسبب ديون الخديوى إسماعيل (٢٦)

ونجحت انجلترا في حمل السلطان العثمانى على عزل الخديوى إسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق مكانه ، وبقيام توفيق فى الحكم فتحت صفحة سوداء فى تاريخ مصر قوامها هذا الخديوى الذليل الذى صار مطية للنفوذ الأجنبى (٢٧)

وقد غضب هذا الخديوى من السيد جمال الدين واعتقد أن دعوته سوف تنزعه عن العرش وتؤدى إلى الحكم الجمهورى ، كما أن دعوته للإصلاح هيجت عليه شيوخ الأزهر المتحفظين فرموه بالفسوق ، وأوغرت عليه كذلك صدر قنصل بريطانيا العام فى مصر ، وانتهى الأمر بنفيه إلى الهند عام ١٨٧٩ م (٢٨)

وغادر الأفغانى مصر بعد أن ترك خلفه عدداً من التلاميد الممتازين حافظوا على أفكاره، ودعوا إليها ونشروها فى مصر التى كانت فى أمس الحاجة إليها لكى تتقدم إلى الإمام فى المجالات الدينية والسياسية (٢٩)

وكفى أنه كان من بين تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى كل من الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وأحمد عرابى وسعد زغلول وعبد الكريم سليمان وغيرهم ، فكانوا هم الطليعة من بناة مصر الحديثة المجاهدة من أجل الحرية والنهضة على أسس إسلامية وما زال أثرهم متصلاً إلى اليوم (٣٠)

وظل الأزهر منذ عهد جمال الدين المكان الذى نبتت فيه براعم الثورة الإصلاحية رغم طرده منه فى وقت مبكر فتطورت فيه الدعوة إلى النهضة الإسلامية واكتسبت منه القدرة على التأثير بين الجماهير ، واستمدت منه القوة على الاستمرار رغم التيارات الغربية الدخيلة ، ففيه نمت طبقة الزعماء الإسلاميين الجدد الذين كرسوا جهدهم لتحويل الحركات القومية فى الشرق مرة أخرى إلى الناحية الإسلامية وقد بعثت هذه الطبقة النشاط فى الأزهر ، وخلصته من الجمود الذى ران عليه طويلاً (٣١)

وقد استطاع السيد جمال الدين أن يبث فى نفوس الشباب المصريين الأمل فى التحرر من السيادة الأوربية إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه التعليمية ابتغاء الدفاع عن الإسلام بوصفه ديناً أكثر إمعاناً فى مضمار الرقى (٣٢)

ولما وصل السيد جمال الدين إلى الهند طرده الإنجليز من هناك عام ١٨٨٢ م بسبب نشاطه الهدام الذى أفسد عليهم الجو هناك ، وأيقظ صوت المعارضة ضدهم(٣٣) فذهب إلى باريس التى كانت تفتح أبوابها لثوار البلاد التى بها الاستعمار الانجليزى لخلافها مع انجلترا (٣٤) وكتب إلى تلميذه الشيخ محمد عبده وكان منفياً فى بيروت عقب أحداث الثورة العرابية وطلب منه المجئ إلى باريس حيث أصدرا معاً جريدة « العروة الوثقى » التى تولى الإنفاق عليها جمعية العروة الوثقى ولها فروع فى مصر والهند وغيرهما من أقطار الشرق الإسلامى (٣٥)

وجعل هدفها إيقاظ الشرق الإسلامى من سباته ، وتنبيهه إلى خطر الإستعمار الغربى وبث روح الحياة فيه ، والعمل على تجنبه الزلل فى مهاوى القنوط واليأس فجاء فى العدد الأول من تلك الصحيفة أن من أهم أهدافها بيان الواجبات على الشرقيين والتي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات ثم ملأ النفوس بيقين الأمل فى النجاح وإزالة ما حل بها من اليأس ودعوتهم إلى التمسك بالأصول التى كان عليها آباؤهم وأسلافهم(٣٦)

ونجح جمال الدين الأفغانى بفضل المقالات التى نشرها على صفحات « العروة الوثقى » فى إحياء تراث الحضارة العربية الإسلامية ، والدفاع عنها ضد المغرضين من الأجانب الذين سلطوا كل ما تعلموه من أسلحة الجدل والمغالطة لتمزيق الوحدة العربية وبث الشكوك فى علمائها (٣٧) لينصرف أبناءالأمة عن دراسة هذا الكنز الثمين الذى يبعث فيهم الثقة بالنفس ، ويكفل لهم السير قدماً دون الارتماء فى أحضان الحضارة الأوربية وتقليد مظاهرها البراقة ، فكانت أعمال السيد جمال الدين خير دعوة للعرب جميعاً كي يتمسكوا بتراث حضارتهم وبيان أفضالهم على الأوربيين ، وأن آباءهم قد أسهموا فى بناء الحضارات الأوربية بما قاموا به من دراسات علمية وأدبية في شتى صنوف المعرفة (٣٨)

وقد لقيت جريدة العروة الوثقى إقبالاً من القراء المسلمين مما أثار الإنجليز الذين أمروا بمصادرتها فى الهند ومصر حتى كانت تهرب إلى داخل البلاد ، وأعلنت السلطات المصرية الرازحة تحت تأثير الإنجليز أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يعزم بغرامة مالية تتراوح بين خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيها .

واستمرت الجريدة فى الصدور لمدة ثمانية أشهر ثم احتجبت عن الصدور سنة ١٣٠١ هـ بسبب محاربة الانجليز لها (٣٩)

وفى سنة ١٣٠٣ هـ /١٨٨٥م سافر السيد جمال الدين إلى إيران بدعوة من الشاه ناصر الدين ، وفى إيران تزاحم الأمراء والمجتهدون من رجال الدين حوله ولم يلبث أن بثهم تعاليمه ودعوته إلى التجديد والنهضة والثورة على الجمود ، وكان تأثيره فى طهران كما كان فى القاهرة واستانبول ، وجره هذا إلى الوقوع فى نزاع مع الشاه المستبد فى حكمه

وبعد سنتين من النشاط والحركة الدائبة هرب إلى لندن سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢ م وقابل هناك الإيراني « بالكولم خان » الذى صار أخلص تلميذ للأفغاني أثناء إقامته فى لندن ، وأصبح فيما بعد خليفته فى إيران (٤٠)

وفى سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٥ م طلب السلطان عبد الحميد الثانى من جمال الدين العودة إلى استانبول ، فلبى طلبه ، وواصل نشاطه فى عاصمة تركيا وترك السلطان عبد الحميد له الحرية بعد أن لقيت دعوته هوى فى نفس السلطان الذى كان يدعو إلى إقامة الجامعة الإسلامية رداً على الدول الأوربية التى كانت تتربص بدولته الكبيرة لتمزيقها وتوزيعها فيما بينهم (٤١)

واستمر السيد جمال الدين مقيماً فى استانبول لمدة خمس سنوات حتى وافته المنية فى سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٧ م (٤٢) وظلت تعاليمه حية بعد موته واستمر تأثيرها واضحاً وملموساً وأحدثت صدى كبيزاً فى اليقظة الإسلامية التى كانت تزداد يوماً بعد يوم (٤٣)

ويمكن القول إن طريقة هذا الرجل فى الإصلاح كانت تتمثل فى رفع المستوى الفكرى والروحى للشعوب بنشر الثقافة الإسلامية الأصيلة واغترافها من منابعها الأولى ، فكانت دعوته إلى إحياء العلوم الإسلامية والتجديد فيها ، وكان درسه بمصر وغيرها من البلدان نموذجاً لما يمكن أن يسار عليه فى فهمها وعرضها فى ثوب قشيب يتفق وروح العصر(٤٤) ، وكانت القاعدة التى تقوم عليها الطريقة هى الإجتهاد وتحكيم العقل بعيداً عن التقليد ، أما الطريق الآخر للإصلاح فهو تحرير الشعوب من الاستبداد ورفع الظلم عنها حتى تتمتع بحقوقها السياسية وتصير لها الإرادة العليا فى تصريف شئونها وتقرير مصيرها وفى سبيل ذلك كان يلجأ إلى إثارة الشعوب وتنبيه الأقوام إلى حقوقهم بالأحاديث والخطب كما نصح رجال الصحف بأن يكتبوا المقالات ويحاولوا الإجادة فيها على أحسن ما تقتضيه الأساليب والقواعد العربية مما ساهم فى إيجاد نهضة لغوية .

وكان فى مقدمة الأهداف التى بذل جمال الدين كل جهده لتحقيقها العمل على توحيد الشعوب الإسلامية أو إيجاد جامعة تلم شملها حتى يمكن أن تصبح قوية أمام أعدائها (٤٥)

وقد استمر يدعو طوال حياته إلى تلك المبادئ وترك من بعده تلاميذاً حملوا أفكاره وتأثروا بها ولقد عبر الشيخ محمد عبده عن مدى تأثير أستاذه فيه فقال : « لقد أعطانى والدى حياة يشاركنى فيها على ومحروس ، أما السيد جمال الدين فقد أعطانى حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم والأولياء والقديسين »(٤٦)

الشيخ الإمام محمد عبده

لما ترك جمال الدين الأفغانى مصر فى بداية حكم الخديوى توفيق قال : « مصر أحب بلاد الله تعالى إلى ، وقد تركت لها الشيخ محمد عبده طوداً فى العلم وعرمرماً من الحكمة والشمم وعلو الهمم »(٤٧)

فقد كان الشيخ محمد عبده فى مقدمة من تلقوا الرسالة عن السيد جمال الدين لذا فالحديث عن جمال الدين يستتبع حتماً الحديث عن محمد عبده فهو الذى حمل المهمة بعده وواصل دعوته وأكمل منهاجه وطريقته (٤٨)

والشيخ محمد عبده مصرى المولد والنشأة ، ولد فى قرية « شبشير » إحدى قرى مديرية الغربية ، ونشأ ببلدة « محلة نصر » من قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة سنة ١٢٦٦هـ / ١٨٤٩ م حيث استقر والده وأسرته من قبله ، وتعلم محمد عبده كما تعلم أبناء مصر آنذاك فى القرى(٤٩) حيث حفظ القرآن الكريم ثم التحق بالجامع الأحمدى بطنطا ليتعلم كما تعلم كثير من مواطنيه(٥٠) وهناك اصطدم بفساد التعليم وطرقه ، وتمرد على هذا التعليم بعد سنة ونصف حاول فيها أن يفك طلاسم الأجرومية حتى أعيته الحيل(٥١)

وقد استفاد محمد عبده من علم وتوجيه بعض المشايخ المتنورين من أمثال الشيخ درويش الصوفى النزعة السلفى المذهب والذى كان يكره الجهل والبدع والشعوذة (٥٢)

وكان للشيخ درويش أثر كبير فى حياة هذا القائد الناشئ إذ استطاع أن يعالج العقدة التى تكونت عنده من الأجرومية ، فأعطاه كتاباً سهلاً فى المواعظ والأخلاق ، وفسّر له ما يقرأ حتى أحب محمد عبده العلم وصار ينفر من اللهو ، ولم تتوقف اللقاءات بين الشيخ درويش ومحمد عبده بعد أن انتقل من المعهد الأحمدى إلى الأزهر وظلت توجيهات الشيخ درويش تلازمه وتدفعه للاختلاط بالناس وإرشادهم وتقديم العون والنصح لهم حتى صارت

شخصية قادرة على أداء الدور الجليل الذى أدخرته له المقادير ، وصارت نفس الشيخ محمد عبده تألف التجديد منذ التحق بالأزهر وتأبى السير على نهج التدريس التقليدى آنذاك (٥٣)

ونتيجة لموقف محمد عبده من المشايخ المتحفظين فقد نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد اختبار ظهر فيه أن المشايخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى (٥٤)

وقد انتقد الشيخ محمد عبده طريقة التعليم فى الأزهر ، ووصفها بأنها كانت فى أغلبها جامدة وعقيمة ومحصورة فى عدة مختصرات وشروح وحواش وتقارير كما أنها لم تكن تتصل فى أغلبها بالحياة اليومية إلا فى إطار العبادات بالإضافة إلى أن معظم مشايخ الأزهر لا يشعرون بما أصاب الإسلام والمسلمين من تدهور واهتموا بأنفسهم وعاشوا فى عزلة عن العالم من حولهم (٥٥)

واستفاد الشيخ محمد عبده من أفكار السيد جمال الدين الأفغانى فارتبط به وبشخصيته ليتم معه الرسالة الإصلاحية للمسلمين فى الشرق العربى الذى تعاقبت عليه إذ ذاك المصائب وتكاثرت عليه الكوارث والأعداء (٥٦)

إلا أنه اتخذ لبلوغ الإصلاح طريقاً يختلف عن طريق السيد جمال الدين الذى اختار طريق الثورة السياسية للوصول إلى أهدافه ، وكان جهاده أكثره عملياً فلم يتفرغ لأبحاث نظرية ، وإنما أوجد مدرسة من الرجال وبث روحاً ، أما الشيخ محمد عبده فإنه رأى أن يتخذ طريقاً ثانياً ، فبدلاً من الثورة السياسية نجده يوجه جهوده إلى الإصلاح الدينى والنهضة الثقافية والاجتماعية (٥٧)

وهكذا اختلفت وسيلتا المصلحين وإن كانت الغايات واحدة ، وكان كل من المنهجين خيراً للعالم الإسلامى ومحققاً لأهدافه فى التقدم فإذا قلنا إن السيد جمال الدين قد أحيا الروح فإنه يمكن القول إن الشيخ محمد عبده أحيا أو أيقظ العقل ، وكان لابد للنهضة الإسلامية الحديثة من وجود العقل والروح معاً ولا غنى لأحدهما عن الآخر (٥٨)

وكان الشيخ محمد عبده بعد حصوله على العالمية من الجامع الأزهر عام ١٨٧٧ م قد شغل عدة وظائف بدأها بالتدريس فى الجامع الأزهر (٥٩) ثم اشتغل بتدريس التاريخ

الإسلامى وفلسفة الإجتماع فى دار العلوم (٦٠) ثم عمل مدرساً للغة العربية بمدرسة الألسن إلى جانب أنه كان يكتب المقالات الأدبية والاجتماعية بجريدة الأهرام ، وكانت هذه المقالات تؤكد ميله إلى العلوم العصرية والبحث فى الأصول الدينية (٦١)

ولقد اشترك الشيخ محمد عبده فى الثورة العرابية حينما رأى خديو مصر يستعين بالانجليز لمساعدته فى القضاء على الحركة الوطنية فأعلن سخطه على الخديوى واتهمه بالخيانه وانغمس فى الدعوة إلى الجهاد ومساعدة الحركة العرابية .

ولما انتهت أحداث تلك الثورة بالاحتلال الانجليزى لمصر نفى الشيخ محمد عبده إلى بيروت فاستدعاه السيد جمال الدين الأفغانى إلى باريس حيث تعاونا فى تحرير جريدة « العروة الوثقى » التى كانت حرباً على المستعمرين (٦٢) فأخذ يعالج فى مقالاته الأسباب التى أدت بالعرب إلى الإستكانة والهزيمة ويشرح العوامل التى تكفل لهم النهوض والعزة ، ويذكرهم بماضيهم التليد وقد اتخذ مما حدث فى مصر نموذجاً يثير به انتباه الدول العربية إلى أطماع الأوربيين ويدفعهم إلى التنبه والإستعداد حتى يتجنبوا ما حدث فى مصر (٦٣)

ولما ركزت انجلترا كل جهودها فى محاربة جريدة « العروة الوثقى » اضطر الشيخ محمد عبده إلى إيقاف إصدار تلك الجريدة بعد أن عجزت أعدادها عن الوصول إلى القارئ العربى ، وغادر باريس متجهاً إلى بيروت بعد أن ودع أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى ، وأقام الشيخ محمد عبده فى بيروت فترة من الزمن لأن السلطات المصرية لم تكن لتعفو عنه سريعاً بعد رأيه الذى صرّح به لمراسل إحدى الصحف البريطانية وقال فيه : « إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله ـ انضم إلى أعدائنا أيام الحرب ـ لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية(٦٤)

وقد طاف الشيخ وهو فى بيروت بكثير من حواضر سوريا ومدنها كدمشق وطرابلس وبعلبك ، وصيدا والقدس ، وغيرها وكانت شهرته قد سبقته إلى هذه المدن فجلس الناس إليه يستفيدون من محاضراته وينهلون من تعاليمه وأفكاره (٦٥)

ولما عاد الشيخ محمد عبده إلى مصر بعد ست سنوات أثر الإبتعاد عن الشئون السياسية [٦٦] ورغم أنه حرص على الإصلاح الدينى والإجتماعى والثقافى وتجنب الخوض فى الإصلاح السياسى إلا أنه كان شديد الحرص على تحقيق برامجه الإصلاحية فى هذه المجالات ، مما أشعل عليه حرباً لا هوادة فيها من رجال الدين المحافظين الذين كان يحركهم الخديوى عباس حلمى الثانى حيث حاربوه بكل شدة واتهموه بالكفر والإلحاد ، واعتبروا دعوته إلحادية ويجدر بصاحبها أن يبوء بغضب صاحب العرش والجمهور [٦٧]

ونتيجة لما لاقاه الشيخ محمد عبده من عنت المشايخ الجامدين ، ومن تعسف الأتراك الحاكمين لإشتراكه فى الثورة العرابية ونفيهم له خارج مصر ، ونتيجة لما بذله من جهود كبيرة لتحقيق دعوته الإصلاحية ، فقد تأثرت صحته حتى وافته المنية عام ١٩٠٥ م [٦٨] وترك وراءه رسالة واضحة المعالم للنهوض بالأمة العربية ، وخلف مدرسة من القادة نهضت بعبء الجهاد من بعده مستمدين من تعاليمه ما يهديهم إلى الوصول للهدف السليم [٦٩]

وقد اتفق الشيخ محمد عبده مع أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية التى اعتبر أن المحافظة عليها ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله فهى فى رأيه الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته وليس للدين سلطان سواها [٧٠]

كما أنه استطاع تحطيم قيود التقليد ، وحرر العقل من إساره ، وعمل على التوفيق بين الدين والعقل ، وبذلك أوجد حركة فلسفية جديدة ، ففى وقت واحد أعاد للعقل مكانته كما جعل أساس الدين قوياً ، ولم يغفل شأن الوجدان أو العاطفة الدينية ولم يقلل من أثرها فنادى بأن يكون هناك توازن بين الفكر والوجدان ، وفى كل ذلك كان محمد عبده مجدداً وإماماً فاستحق لقب الإمام عن جدارة [٧١] ووصف بأنه رائد الفكر الدينى الحديث [٧٢]

***

الهوامش

١- باول شمتز : الإسلام ـ قوة الغد العالمية ١٠٦ حاشية ١ المترجم د / محمد شامة
٢- المرجع السابق
٣- المرجع السابق
٤- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرير العربى ٨٨
٥- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٨٩
٦- المرجع السابق
٧- باول شمتز : الإسلام ١٠٨
٨- المرجع السابق
٩- ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث ١٤٠
١٠- المرجع السابق ١٤١
١١- المرجع السابق .
١٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٦١٧
١٣- باول شمتز : الإسلام ١٠٨
١٤- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٦١٧
١٥- باول شمتز : الإسلام ١٠٨
١٦- المرجع السابق
١٧- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٦١٧
١٨- باول شمتز : الإسلام ١٠٩
١٩- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٩٠
٢٠- باول شمتز : الإسلام ١٠٩
٢١- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرر العربى ٩٠
٢٢- باول شمتز : الإسلام ١٠٩
٢٣- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٩٠
٢٤- المرجع السابق
٢٥- المرجع السابق ٣٩١
٢٦- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرر العربى ٩٣
٢٧- المرجع السابق
٢٨- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٩١

٢٩- باول شمتز : الإسلام ١٠٩

٣٠- ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ١٤٨

٣١- باول شمتز : الإسلام ١١٠

٣٢- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٩١

٣٣- باول شمتز : الإسلام ١١٠

٣٤- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى ١٧٨

٣٥- المرجع السابق

٣٦- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرير العربى ٩٥

٣٧- المرجع السابق

٣٨- المرجع السابق ٩٨

٣٩- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى ١٧٩

٤٠- باول شمتز : الإسلام ١١٠ ـ ١١١

٤١- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى ١٨٠

٤٢- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ١٤٨

٤٣- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى ١٨٠

٤٤- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ١٤٦

٤٥- المرجع السابق

٤٦- المرجع السابق ١٥١

٤٧- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرير العربى ١٠٤

٤٨- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ١٦٤

٤٩- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٩٤

٥٠- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرير العربى ١٠٤

٥١- المرجع السابق

٥٢- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٩٤

٥٣- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرير العربى ١٠٥

٥٤- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٩٥

٥٥- المرجع السابق

٥٦- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرير العربى ١٠٦

٥٧- ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ١٦٥

٥٨- المرجع السابق

٥٩- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ٣٩٥

٦٠- ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ١٦٧

٦١- د . رأفت غنيمي : في تاريخ العرب الحديث ٣٩٥

٦٢- د . ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ١٦٧

٦٣- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرير العربي ١١٢

٦٤- المرجع السابق ١١٧

٦٥- المرجع السابق

٦٦- المرجع السابق ١٢٠

٦٧- د . رأفت غنيمي : في تاريخ العرب الحديث ٣٩٨

٦٨- المرجع السابق

٦٩- د . إبراهيم العدوى : قادة التحرير العربي ١٢١

٧٠- د . رأفت غنيمي : في تاريخ العرب الحديث ٣٩٨

٧١- ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ١٦٨

٧٢- المرجع السابق ١٦٩

السلطان عبد الحميد والدعوة للجامعة الإسلامية

انبثق عن الصحوة الفكرية والثقافية فى الشرق الإسلامى دعوة مهمة تنادى بأن خلاص الشرق الإسلامى من متاعبه الداخلية والخارجية رهن بقيام جامعة إسلامية يتوافر فى ظلها الأمن والأمان للمسلمين (١)

فقد كان قادة المسلمين يدركون أن الإسلام مهدد بالخطر الفادح والبلاء الشديد بسبب انتشار سيطرة الغرب المسيحى على كثير من بلدانه ، فازدادت حاجة المسلمين إلى التماسك وقوى لديهم الشعور بالترابط بعد طول تفرق ، وأصبحت الجامعة الإسلامية أمراً ملحاً لمقاومة الغرب والتصدى له ، وإيقاف أطماعه (٢)

ويعد جمال الدين الأفغانى أول من دعا إلى إنشاء الجامعة الإسلامية وسار على نهجه أيضاً تلميذه الشيخ الأمام محمد عبده كما ذكرنا من قبل ، وقد وجد السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى فى تبنى دعوة السيد جمال الدين الأفغانى سبيلاً لإحياء عظمة الإسلام ، وتقوية الروابط بين المسلمين وإيقاظهم لصد أطماع الغرب (٣)

وكان السلطان عبدا لحميد الثانى (١٢٩٣ ـ ١٣٢٧ هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م) قد تولى السلطنة وأطماع الدول الغربية فى الدولة العثمانية قد بلغت أشدها فرأى العمل على تجميع القوى الإسلامية المبعثرة فى العالم لمواجهة أطماع الدول الكبرى(٤)

وأحاط نفسه بالعلماء والمشايخ وأبعد عن مجالسه وقصوره كل ما لا يتفق مع تعاليم الإسلام ، وأكثر من الإنفاق على المؤسسات الإسلامية داخل ولايات الدولة العثمانية وخارجها (٥)

وحاول الاتصال بألمانيا عقب انتصارها على فرنسا سنة ١٨٧٠ م ونجاحها فى توحيد الشعب الألمانى قد بدأت تحاول إيجاد مجال حيوى لها خارج أوربا وتحركت نحو الشرق واتصلت بالدولة العثمانية وقوت علاقاتها بها . واستقبل السلطان عبد الحميد هذه الروح من ناحيته بالود والترحيب ، وحاول أن يستفيد من قوة ألمانيا وتقدمها فى مجال المشاريع التى يود القيام بها لتقوية الرابطة الإسلامية ، وذلك مثل سكة حديد الحجاز التى كان يود

لها أن تمتد من العاصمة العثمانية إلى مكة المكرمة عبر آسيا الصغرى وبلاد الشام ثم مدها إلى المدينة المنورة (٦)

وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ـ التى دعا إليها الأفغانى ـ تقوم على أساسين هما : الحج إلى بيت الله الحرام فى مكة والمدينة حيث يتجمع المسلمون سنوياً من شتى أرجاء العالم الإسلامى لتأدية الفريضة المباركة ، والأساس الثاني هو الالتفاف حول الخلافة رمز وحدة المسلمين ، وقد عمل السلطان عبدالحميد فى هذين المجالين فعمل على إحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الهيبة والمكانة فى العالم الإسلامى كما لجأ إلى استصراخ المسلمين إلى نصرته والالتفاف حوله ، وجمع إليه كثيراً من مقدمى العرب وزعمائهم ومشايخ الطرق من الحجاز والشام والعراق ونجد واليمن ومصر وطرابلس وتونس والمغرب وغير العرب من زعماء الألبان فأقرهم فى الأستانة وأجرى عليهم الأرزاق (٧)

وشرع فى بذل المساعدات المالية بسخاء كبير للمدارس الدينية داخل مملكته وخارجها، وأنشأ المجلات التى أخذت على عاتقها الدعوة لتوحيد المسلمين وأنشأ مدرسة للوعظ والإرشاد واهتم بالدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية (٨)

أما فيما يتعلق بالحج وهو الأساس الثانى الذى قامت عليه الدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية فقد عنى السلطان عبد الحميد بالاهتمام بالحجاز فأنشأ الخط الحديدى إلى مكة والمدينة الذى تم بناؤه سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م لتسهيل الحج للمسلمين (٩) والاستفادة منه فى بث الوعى الإسلامى ، وتقوية النفوذ العثمانى فى سوريا والحجاز وتأمين سلامة طرق الحج وتسهيله للحجاج ومواجهة بريطانيا التى طوقت المنطقة باستيلائها على عدن والخليج ومصر (١٠) كما دفع شريف مكة كى يحث الحجاج على التمسك بفكرة الوحدة الإسلامية ونشرها بينهم (١١)

وكان من الطبيعى أن يحظى العرب ـ من خلال تيار الجامعة الإسلامية بمركز مرموق عند السلطان عبد الحميد فهم الذين فيهم الرسالة ومنهم الرسول ـ (ص) ـ وبلغتهم نزلت رسالة الإسلام ، وفى أراضيهم توجد الأماكن المقدسة للمسلمين ، كما أن العرب يكونون العمود الفقرى للدولة الإسلامية فأنشأ فرقة فى حرسه الخاص من العرب ، واستخدم

العرب فى شئون القصر وبرز منهم رجال كبار مثل عزت باشا العابد وهو عربى من سوريا تولى منصب السكرتير الثانى للسلطان ، وكان من أقوى رجال الدولة ، وكان الناس يقولون فى عهد عبد الحميد : إذا بقى الباب العالى والوزارة فى يد الترك فإن القصر قد وقع جميعه فى قبضة العرب [١٢]

والحقيقة أن السلطان عبد الحميد حاول توحيد القوى الإسلامية للتصدى لأعداء الإسلام لكنه تعرض لحملة شديدة من الدعاية اليهودية التى شوهت صورته وسمعته ، وأطلقت عليه ظلماً وبهتانا لقب « السلطان الأحمر » لترسيخ أكذوبتها الكبرى التى لفقتها ضده حين لفقت عنه قصصاً كاذبة عن عمليات إغتيال مزعومة أمر بها ضد رجال المعارضة[١٣]

وكان هدف هذه الحملة التخلص من السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى الذى ذكر فى مذكراته أنه رفض توطين اليهود فى فلسطين فقال : « وانتظم يهود العالم وسعوا ـ عن طريق المحافل الماسونية للعمل فى سبيل الحصول على الأرض الموعودة ، وجاءوا إلىّ بعد فترة وطلبوا منى أرضاً لتوطين اليهود فى فلسطين مقابل أموال طائلة وبالطبع رفضت»[١٤]

وقال هرتزل « رئيس الجمعية الصهيونية » أنذاك : إنه فقد الأمل فى تحقيق أمال اليهود فى فلسطين ، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة طالما أن السلطان عبد الحميد قائماً فى الحكم مستمراً فيه [١٥]

وكان هرتزل قد ذهب لمقابلة السلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٩٠١ م يطلب منه السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين فأجابه السلطان بقوله : لو كنت أعلم أنك جئت تطلب منى ما رفضت إجابتك إليه من قبل لما سمحت لك بالدخول علي ، واعلم يا هرتزل أن فلسطين جزء من أرض الإسلام ، وأرض الإسلام لا تباع بالذهب والدراهم ، ولقد حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا ، ولن نفرط فى شبر منها قبل أن نبذل كل دمائنا دفاعاً عنها [١٦]

وأخذت الجمعية الصهيونية عقب ذلك تهاجم السلطان عبد الحميد الثانى فى كل مكان، وأيدت جمعية الاتحاد والترقى فى موقفها من السلطان العثمانى حتى نجحت في إسقاطه[١٧]

ولما سقط السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م [١٨] تلاشت فكرة الجامعة الإسلامية لتحلّ محلها الأفكار القومية التى كانت مجرد حركات علمانية موجهة ضد الدولة العثمانية لتمزيقها وتفتيت الوحدة الإسلامية[١٩]

* * *

انهيار الدولة العثمانية

استغل الاستعمار الأوربى ضعف الدولة العثمانية وتدهور أحوالها فاستطاع إقتطاع جيمع الولايات الأوربية والحقيقة أن نهاية العثمانيين فى أوربا جاءت عقب معاهدتى « سان استيفانو » و « برلين » سنة ١٨٧٨ م وقد تمت المعاهدة الأولى بين روسيا والدولة العثمانية ، وانشئت بمقتضاها دولة بلغارية تابعة للروس كى تكون منفذاً لهم على البحر المتوسط وسمح للروس باحتلال قارص وباطوم فى أرمينية [٢٠]

وغضب الانجليز لإنفراد الروس بعقد هذه المعاهدة وانضم إليهم كثير من دول أوربا فعقد مؤتمر برلين الذى اشتركت فيه ألمانيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا وتركيا ومن أهم قرارات هذا المؤتمر منح الإستقلال التام لرومانية والجبل الأسود والصرب ، ومنح البوسنة والهرسك للنمسا وتوسيع حدود اليونان وضم ميناء بارى على بحر الإدرياتيك للجبل الأسود [٢١]

أما بالنسبة للدول العربية فقد استطاع الاستعمار الأوربى الاستيلاء على معظم أراضيها فى القرن التاسع عشر فاستولت فرنسا على الجزائر سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م وأخذت بريطانيا عدن سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م واحتلت فرنسا تونس سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م ، وغزت بريطانيا مصر سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م للقضاء على الثورة العرابية ومساندة الخديوى توفيق [٢٢]

ولما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م دخلتها الدولة العثمانية متحالفة مع ألمانيا والنمسا والمجر ضد دول الحلفاء وهم بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا وهزمت تركيا ومن معها ، واحتل الحلفاء عاصمتها ، واحتلت بريطانيا وفرنسا بعض المناطق فى الأناضول والحجاز وبلاد الشام والعراق .

ولم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى صفيت الدولة العثمانية تماماً ، ولم يبق إلا القضاء على نظام الخلافة الإسلامى فاصطنع الاستعمار بعد الحرب أحد الضباط الأتراك ويدعى « مصطفى كمال أتاتورك » فتولى الأمور فى البلاد وقام بدور رئيسى فى إلغاء

الخلافة سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م [٢٣] ، وأعلن الجمهورية ونقل عاصمة دولته الجديدة إلى أنقرة وأفقدها المقر التاريخي فى إسلامبول ، ولم يكتف بهذا ؛ بل عمل على إلغاء كل ما هو إسلامى فألغى الأوقاف الإسلامية والتعليم الدينى وألغى عطلة يوم الجمعة وجعلها يوم الأحد كما يفعل المسيحيون وألغى التاريخ الهجرى وأحلّ محله التاريخ الميلادى ، وأمر بكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وإلغاء الحروف العربية منها وغير ذلك من الاجراءات التى قطعت صلة تركيا بالإسلام والعروبة وقربتها من أوربا [٢٤]

وكان المبدأ الرئيسى فى حركة مصطفى كمال أتاتورك هو العلمانية ، أى فصل الدين عن الدولة ، وهو مبدأ خطر لا يحق لأى أمة مسلمة أن تتمسك به لأن الإسلام ممتزج بالدولة بشكل قوى فالشريعة تحكم حياة الأفراد فى مختلف نواحيها .

ولم يستطع أى بلد إسلامى اختيار طريق العلمانية سوى تركيا التى أحدثت بموقفها هذا هزة فى العالم الإسلامى [٢٥] .

الهوامش

١- د . إبراهيم العدوى : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ١٨٩
٢- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى ١٦٧
٣- المرجع السابق ١٧٠
٤- د . محمد حرب : العثمانيون ٤٨
٥- د . رأفت غنيمى : فى تاريخ العرب الحديث ١ ـ ٤
٦- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى ١٧١
٧- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ٢٤١
٨- المرجع السابق
٩- المرجع السابق
١٠- د . عبد اللطيف عبد الحميد : وثائق سكة حديد الحجاز فى الأرشيف العثمانى ـ مقال منشور بدارة الملك عبد العزيز ـ العدد الثالث ـ السنة الثامنة عشرة جمادى الأخرة ١٤١٣ هـ ص ٦٢
١١- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ٢٤١
١٢- المرجع السابق ٢٤٢
١٣- زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ٥٠
١٤- مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى ٩٤ .
إعداد د . محمد حرب ـ كتاب الهلال ـ أكتوبر ١٩٨٥ م العدد ٤١٨
١٥- د . محمد حرب : العثمانيون ٥٦
١٦- زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين ٤٦
١٧- د . محمد حرب : العثمانيون ٥٧
١٨- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ٤١١
١٩- د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ٢٤٢
٢٠- د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٥ / ٥٦٠ .
٢١- المرجع السابق .
٢٢- د . مصطفى رمضان : العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث ١١٣ .
٢٣- المرجع السابق
٢٤- المرجع السابق
٢٥- المرجع السابق

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المطبوعة :

ابن الاثير (على بن محمد ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ - ١٢٣٣ م)

١- الكامل فى التاريخ

راجعه وصححه د / محمد يوسف الدقاق

الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧ م دار الكتب العلمية - بيروت

ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ - ١٥٢٤ م)

٢- بدائع الزهور فى وقائع الدهور

تحقيق محمد مصطفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب

ج ١ ق ١ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

ج١ ق ٢ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٣ م

ج٢، ٣، ٤، ٥ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

البصروى (الشيخ علاء الدين على بن يوسف ت ٩٠٥ هـ/ ١٤٩٩- ١٥٠٠م)

٣- تاريخ البصروى

تحقيق ودراسة أكرم حسن

الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م

دار المأمون للتراث - بيروت

البلـــوى (أبو محمد عبد الله بن محمد)

٤- سيرة أحمد بن طولون

تحقيق محمد كرد على - الناشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة (بدون تاريخ)

التـــرك (نقولا بن يوسف أغا ت ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٨ م)

٥- تاريخ نابليون الأول

دراسة وتحقيق د / أمل بشور بعنوان « حملة بونابرت إلى الشرق » الطبعة الأولى١٤١٣ هـ

١٩٩٣ م دار جروس برس / طرابلس - لبنان

ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)

٦- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م

٧- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور

ج١، ٢ الطبعة الاولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م عالم الكتب تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين

الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن ت ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ - ١٨٢٦ م)

٨- عجائب الآثار في التراجم والاخبار

(ثلاثة اجزاء) دار الجيل - بيروت (بدون تاريخ)

٩ - مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس

تحقيق احمد زكي عطيه - عبد المنعم عامر - محمد فهمي عبد اللطيف - حنفي عامر - ج ١ ، ٢

القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م

ابن حبيب (الحسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)

١٠ - تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه

حقيق د . محمد محمد امين

ج١ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٦ م

ج٢ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٨٢ م

ج٣ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٨٦ م

ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٢ م)

١١- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان

تحقيق د . إحسان عباس

دار الثقافة - بيروت ١٩٧٠ م / دار صادر بيروت ١٩٧٧

السخاوي (محمد بن عبد الرحن ت ٩٠٢ هـ)

١٢- التبر المسبوك في ذيل السلوك

الناشر مكتبة الكليات الأزهرية (بدون تاريخ)

السيوطي (جلال الدين ابوالفضل ت ٩١١ هـ / ١٥٠٦ م)

١٣- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة

تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم - دار احياء الكتب العربية - عيسى الحلبي - ط أ - ١٣٨٧ هـ/ ١٩٨٦ م

ابو شامة (شهاب الدين ابو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م) ١٤- الذيل على الروضتين

القاهرة ١٩٤٧ م

الصيرفي (على بن داود الجوهري ت ٨٧٩ هـ)

١٥ - إنباء الهصر بابناء العصر

تحقيق د / حسن حبشى
دار الفكر العربى بالقاهرة / ١٩٧٠ م
العصامى (عبد الملك بن حسين ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ ـ ١٧٠٠ م)
١٦- سمط النجوم العوالى فى الانباء والتوالى
(اربعة اجزاء) المطبعة السلفيه ـ بدون تاريخ
العينى (بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)
١٧ـ عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان
تحقيق د / محمد محمد امين
ج١ الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧
ج ٢ الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨
ج٣ الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩
ج٤ الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢
الفاسى (تقى الدين محمد بن احمد ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ ـ ١٤٢٩م)
١٨- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان)
دار الكتب العلميه ـ بيروت
١٩ـ العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين (ثمانية اجزاء)
ج١ تحقيق محمد حامد الفقى
ج٢ ـ ج ٧ تحقيق فؤاد سيد
ج٨ تحقيق محمود الطناحى
مؤسسة الرسالة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م
أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ ـ ١٣٣٢ م)
٢٠ – المختصر فى اخبار البشر
مكتبه المتنبى– القاهرة – بدون تاريخ
ابن فهد (محمد بن محمد الشهير بعمر ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م)
٢١ ـ اتحاف الورى بأخبار ام القرى

(ثلاثة اجزاء) تحقيق فهيم محمد شلتوت

جامعة أم القرى بمكة المكرمه ١٩٨٣ م

ابن فهد (عز الدين عبد العزيز عمر بن محمد ت ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م)

٢٢- غاية المرام بأخبار سلطنه البلد الحرام

ج ١ تحقيق فهيم محمد شلتوت ـ جامعة ام القرى مكة المكرمة ـ ط أ ـ ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف)

٢٣ ـ أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ

عالم الكتب ـ بيروت ـ مكتبة المتنبى بالقاهرة مكتبة سعد الدين بدمشق (بدون تاريخ)

القلقشندى (ابو العباس احمد بن على ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)

٢٤ ـ صبح الاعشى فى صناعة الانشا

المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م

ابن كثير (عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)

٢٥ ـ البداية والنهاية فى التاريخ

طبعة دار الغد العربى ـ القاهرة

المقريزى (تقى الدين ابو العباس احمد بن على ت ٨٤٥ هـ . ١٤٤١ م)

٢٦ـ كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف

بالخطط المقريزية

دار صادر ـ بيروت (بدون تاريخ)

٢٧ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك

ج١ ق ١ . ٢ . ٣ تحقيق د / محمد مصطفى زيادة

ج ٢ ق ١ . ٢ . ٣ تحقيق د / محمد مصطفى زيادة

ج٣ ق ١ . ٢ . ٣ تحقيق د / سعيد عبد الفتاح عاشور

ج٤ ق ١ . ٢ . ٣ تحقيق د / سعيد عبد الفتاح عاشور

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

٢٨ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا

ج١ تحقيق د / جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م

ج٢ تحقيق د / محمد حلمى محمد احمد ـ القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م

ج٣ تحقيق د / محمد حلمى محمد احمد ـ القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م

المنصورى (بيبرس « نائب السلطنة في مصر » ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م)
٢٩ ـ مختار الاخبار
تحقيق د / عبد الحميد صالح حمدان ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م
الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة
٣٠ ـ كتاب التحفة الملوكية فى الدولة التركية
نشر وتقديم د / عبد الحميد صالح حمدان
الطبعة الاولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م الدار المصرية اللبنانيةبالقاهرة .
النسوى (محمد بن احمد)
٣١ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى
تحقيق حافظ احمد حمدى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة (بدون تاريخ)
ياقوت (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م)
٣٢ـ نهاية الارب فى فنون الادب
ج ٢٩ ـ الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٩٩٢ م
النويرى (شهاب الدين ابو عبد الله بن عبد الله الحموى)
٣٣ ـ معجم البلدان
دار صادر ـ بيروت (بدون تاريخ)
اليونينى (قطب الدين ابو الفتح موسي بن احمد ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦ م)
٣٤ ـ ذيل مرآةالزمان
حيدر آباد ـ ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م
ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٧٩ هـ / ١٢٧٩ ـ ١٢٩٨ م)
٣٥ ـ مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب
ج ٤ ، ٥ تحقيق د / حسنين محمد ربيع نسخة مصورة (بدون تاريخ)
ابن الوردى (زين الدين عمر بن مظفرت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)
٣٦ ـ تاريخ ابن الوردى
ج١ ، ٢ ـ المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ط ٢

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

ابراهيم احمد العدوى (دكتور) ٣٧ ـ الشرق الاسلامى في العصر الحديث
مكتبة الشباب ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ ـ القاهرة
ابراهيم حليم ٣٨ : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية
الطبعة الأولى ـ بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م

أحمد الساداتى (دكتور) ٣٩ـ تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية
مكتبة الآداب ومطبعتها بالقاهرة (بدون تاريخ)

أحمد السعيد سليمان (دكتور) ٤٠ ـ تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة
دار المعارف بالقاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م

أحمد شلبى (دكتور) ٤١ ـ موسوعة التاريخ الاسلامى
ج ٥ مكتبة النهضة المصرية ط ٢ / ١٩٧٢ م

أحمد مختار العبادى (دكتور) ٤٢ ـ قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام
دار النهضة العربية ـ بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

أحمد يوسف (دكتور) ٤٣ ـ المخطوط السرى لغزو مصر
كتاب الهلال ـ العدد ٥٢٥ ـ سبتمبر ١٩٩٤ م

انطوان ضومط (دكتور) ٤٤ـ الدولة المملوكية
الطبعة الاولى ١٩٨٠ دار الحداثة ـ بيروت

جمال عبد الهادى (دكتور) ٤٥ ـ الدولة العثمانية
ط أ ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م دارالوفاء ـ المنصورة

حسين كفافى (دكتور) ٤٦ ـ محمد على
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ م

رأفت غنيمى الشيخ (دكتور) ٤٧ ـ فى تاريخ العرب الحديث
دار الثقافة ـ القاهرة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م

زياد ابو غنيمة ٤٨ ـ جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك
الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م عمان

سالم الرشيدى (دكتور) ٤٩ ـ محمد الفاتح
الطبعة الاولى ١٣٧٥ هـ /١٩٥٦ م مكتبة
ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر

سعيد عبد الفتاح عاشور(دكتور) ٥٠ ـ العصر المماليكى فى مصر والشام
ط ٢ ـ القاهرة ١٩٧٦

٥١ ـ المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
ط أ ـ ١٩٦٧ مكتبة دار النهضة العربية

٥٢ـ الايوبيون والمماليك فى مصر والشام
دار النهضة العربية ١٩٧٠ م

٥٣ ـ مصر والشام فى عصر الايوبيين والمماليك

دار النهضة العربية - بيروت (بدون تاريخ)

شفيق غربال ٥٤ - محمد علي الكبير

كتاب الهلال - العدد ٤٣٠ - اكتوبر ١٩٨٦ م

صلاح عيسى ٥٥ - رجال مرج دابق

ط أ - ١٩٨٣ م دار الفتح العربي

عبد الرحمن عبد التواب ٥٦ - قايتباي المحمودي

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ م

عبد الرحمن الرافعي ٥٧ - مصر المجاهدة في العصر الحديث

ج ١ ، ج ٢ المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٥٨ م

عبد السلام فهمي (دكتور) ٥٨ - تاريخ الدولة المغولية في ايران

دار المعارف - ١٩٨١ م

عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) ٥٩ - تاريخ العرب الحديث

العراق مكتبة سعيد رأفت - جامعة عين شمس ١٩٨٣م

عبد الله جمال الدين (دكتور) ٦٠- من تاريخ الشرق الاسـلامي في العصر الحديث

الطبعة الاولى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م

عبد المنعم ماجد (دكتور) ٦١ - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر

ط ٢ / ١٩٧٩ م / مكتبة الانجلو المصرية

عبد النعيم حسنين (دكتور) ٦٢ - ايران في ظل الاسلام

ط أ / ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م دار الوفاء -

المنصوره

فائق الصواف (دكتور) ٦٣- العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز مكة المكرمه ١٣٨٩هـ/١٩٨٧م

فاروق عثمان (دكتور) ٦٤ - أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجا

الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط

دار المعارف - الطبعة الثانية

فؤاد الصياد (دكتور) ٦٥ - السلطان محمود غازان المغولي

ط أ /١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م/ مكتبة الانجلو المصرية

فوزى جرجس — ٦٦- دراسات فى تاريخ مصر السياسى ، العربى للنشر والتوزيع - القاهرة (بدون تاريخ) .

محمد أحمد دهمان — ٦٧ - العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك
دار الفكر - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م

محمد انيس — ٦٨ - الدولة العثمانية والشرق العربى
القاهرة - ١٩٧٧ م

محمد حرب (دكتور) — ٦٩ - العثمانيون فى التاريخ والحضارة
الطبعة الاولى ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م دار القلم - دمشق

٧٠- مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى كتاب الهلال - العدد ٤١٨ - اكتوبر ١٩٨٥ م

محمد ضياء الدين الريس (دكتور) — ٧١ - تاريخ الشرق العربى والخلافة العثمانية
ج ١ / ١٩٥٠ مكتبة نهضة مصر بالفجالة

٧٢ - الشرق الاوسط فى التاريخ الحديث
ط ٢ / ١٩٧٥ مكتبة الشباب بالمنيرة

محمد عامر (دكتور) — ٧٣ - تاريخ الشرق الإسلامى الحديث
، القاهرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

محمد عبد اللطيف هريدى (دكتور) — ٧٤ - شئون الحرمين الشريفين فى العهد العثمانى
ط أ - ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ مطبعة المدنى

محمد فريد (المحامى) — ٧٥ - تاريخ الدولة العلية العثمانية
دار الجيل - بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٧٧ م

محمد فؤاد كوبريلى — ٧٦ - قيام الدولة العثمانية
ط ٢ / ١٩٩٣ م / الهيئة المصرية العامة للكتاب

محمود الشرقاوى — ٧٧ - مصر فى القرن الثامن عشر
ج ١، ٢ ط ٢ سنة ١٩٥٧ م مكتبة الانجلو المصرية

مصطفى محمد رمضان (دكتور) — ٧٨ - العالم الاسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر
القاهرة ١٩٨٢ م

نعيم زكى فهمى (دكتور) — ٧٩ - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م

وفاء محمد على (دكتور) ٨٠ - جهود المماليك الحربية ضد الصليبيين الطبعة الثانية/١٩٩١ م

ثالثا: مراجع اجنبية مترجمة إلى اللغة العربية:

ارمينيوس فامبرى ٨١ - تاريخ بخارى
ترجمة د / احمد الساداتى - المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر(بدون تاريخ)

باول شمتز ٨٢ - الاسلام قوة الغد العالمية
ترجمة د/ محمد شامة الطبعة الاولى ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م مكتبة وهبة بالقاهرة

برتولد شبولر ٨٣ - العالم الاسلامى فى العصر المغولى ترجمة خالد اسعد عيسى ، الطبعة الاولى /١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م بدمشق

بول كولز ٨٤ - العثمانيون فى اوربا
ترجمة د / عبد الرحمن الشيخ - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٢ م

دانيال كريسيليوس ٨٥ - جذور مصر الحديثة
ترجمة د / عبد الوهاب بكر مكتبة نهضة الشرق - جامعة القاهرة ١٩٨٥ م

روبير مانتران ومجموعة من ٨٦ - تاريخ الدولة العثمانية
ترجمة بشير السباعى دار الفكر للدراسات - الطبعة الاولى القاهرة ١٩٩٣ م

ستانلى لين بول ٨٧ - طبقات سلاطين الاسلام
ترجمة مكى طاهر - الطبعة الاولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م الدارالعالمية للطباعة والنشر

شرف خان البدليسى ٨٨ - شرفنامه
ترجمه محمد على عونى - مراجعة يحيى الخشاب دار احياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى ١٩٦٢ م

عباس اقبال ٨٩ - تاريخ ايران بعد الاسلام
ترجمة د / محمد علاء الدين منصور دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠

فيليب حتى ٩٠ - تاريخ العرب
ترجمة د . محمد مبروك نافع ط ٣ - ١٩٥٢ م
٩١ - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين

ج ١ ، ٢ ترجمة د . كمال اليازجي دار الثقافة - بيروت ط ١٩٧٢

قسطنطين بازيلي ٩٢ - سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني دار التقدم - موسكو - ١٩٨٩م

كارل بروكلمان ٩٣ - تاريخ الشعوب الاسلامية دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٨١ م

هايد ٩٤ - تاريخ التجاره فى الشرق الادنى

ترجمة - احمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٩٨٥ م

رابعا : المراجع الاجنبية :

1- Brown , EG , Aliterary History of persia vol .3 (Combridge 1928)

2- Carpini , Gohn of plano , " History of the Mongols " Ed , by ch . Dawson " the mongol Mission (London and New york 1955)

3- colonel churchill,The Druzes and Maronites under the Turkish Rule from 1840 to 1860 (London , 1862)

4- Grenard, F : Gengis - Khan (Paris , 1935)

5- Heyd :Hist du Commerce de Levant au moyen Age . (Leipzig 1885) .

6- King , Ej : The knights hospitallers in the Holy land (London 1931)

7- Little , A , The far East (Oxford 1905) .

8- Muir , W ,The Mamluks or slave Dynasty of Egypt (London 1896 - Amesterdam 1968)

9- Lane poole , Stanly , History of Egypt in the Middle Ages . (London 1912 - 1936)

- Medieval india under Mohammedan Rule A . D 712 - 1764 (London 1925)

-Turkey (London 1922)

10- Thomas E, Holland , The European concert in the Eastern Question (Oxford 1885)

11- Wief , G , L , Egypt Arab , Histoire de La Nation Egyptienne (paris 1926 - 1937) , L' Egypt.

ملحق رقم (١)

سلاطين الدولة المملوكية الأولى (البحرية) (١)

(٦٤٨ـ ٧٩٢ هـ / ١٢٥٠ـ ١٣٩٠ م)

١ ـ المعز عز الدين أيبك التركمانى	٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م
٢ ـ المنصور نور الدين على	٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م
٣ ـ المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م
٤ ـ الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقدارى	٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م
٥ ـ السعيد ناصر الدين بركة قان	٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م
٦ ـ العادل بدرالدين سلامش	٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م
٧ ـ المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م
٨ ـ الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م
٩ ـ الناصر ناصر الدين محمد	٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م
١٠ ـ العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م
١١ ـ المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م
١٢ ـ الناصر ناصر الدين محمد (مرة ثانية)	٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م
١٣ ـ المظفر ركن الدين بيبرس الثانى الجاشنكير	٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م
١٤ ـ الناصر ناصر الدين محمد (مرة ثالثة)	٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م
١٥ ـ المنصور سيف الدين أبو بكر	٧٤١ هـ / ١٣٤١ م
١٦ ـ الأشرف علاء الدين كجك	٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م
١٧ ـ الناصر شهاب الدين أحمد	٧٤٢ هـ / ١٣٤٢ م
١٨ ـ الناصر عماد الدين إسماعيل	٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م
١٩ ـ الكامل سيف الدين شعبان الأول	٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م
٢٠ ـ المظفر سيف الدين حاجى الأول	٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م
٢١ ـ الناصر ناصر الدين حسن	٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م
٢٢ ـ الصالح صلاح الدين صالح	٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م
٢٣ ـ الناصر ناصر الدين حسن (مرة ثانية)	٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م
٢٤ ـ المنصور صلاح الدين محمد	٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م
٢٥ ـ الأشرف ناصر الدين شعبان الثانى	٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م
٢٦ ـ المنصور علاء الدين على	٧٧٨ هـ / ١٣٧٧ م
٢٧ ـ الصالح صلاح الدين حاجى الثانى	٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م
٢٨ ـ برقوق (من المماليك الجراكسة)	٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م
٢٩ ـ المنصور ناصر الدين حاجى الثانى	٧٩١ـ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ـ١٣٩٠م

(١) د . أحمد السيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ١٦٢/١

ملحق رقم (٢)

سلاطين الدولة المملوكية الثانية (الجركسية) (١)

(٧٨٤-٩٢٣ هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)

١ ـ الظاهر سيف الدين برقوق	٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م
٢ ـ حاجى الثانى من مماليك الدولة الأولى	٧٩١ـ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩ـ ١٣٩٠م
٣ ـ الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق	٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م
٤ ـ المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م
٥ ـ الناصر ناصر الدين فرج (مرة ثانية)	٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م
٦ ـ العادل المستعين بالله أبو الفضل العباس (خليفة عباسى)	٨١٥ هـ / ١٤١٢ م
٧ ـ المؤيد سيف الدين شيخ	٨١٥ هـ / ١٤١٢ م
٨ ـ المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
٩ ـ الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
١٠ ـ الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
١١ ـ الأشرف سيف الدين برسباى	٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م
١٢ ـ العزيز جمال الدين يوسف بن برسباى	٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م
١٣ ـ الظاهر سيف الدين جقمق	٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م
١٤ ـ المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق	٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م
١٥ ـ الأشرف سيف الدين إينال	٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م
١٦ ـ المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م
١٧ ـ الظاهر سيف الدين خوشقدم	٨٦٥ هـ/١٤٦١ م
١٨ ـ الظاهر سيف الدين بلباى	٨٧٢ هـ/١٤٦٧م
١٩ ـ الظاهر تمر بغا	٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م
٢٠ ـ الأشرف سيف الدين قايتباى	٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م

(١) د . أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية١/١٦٣

٢١ ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قايتباى ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م

٢٢ ـ الظاهر قانصوه ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م

٢٣ ـ الأشرف جان بلاط ٩٠٥ هـ / ١٥٠٠ م

٢٤ ـ العادل سيف الدين طومان باى ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م

٢٥ ـ الأشرف قانصوه الغورى ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م

٢٦ ـ الأشرف طومان باى ٩٢٢ ـ ٩٢٣ هـ / ١٥١٦ ـ ١٥١٧ م

ملحق رقم (٣)

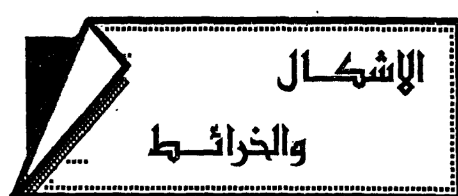
سلاطين الدولة العثمانية (١)

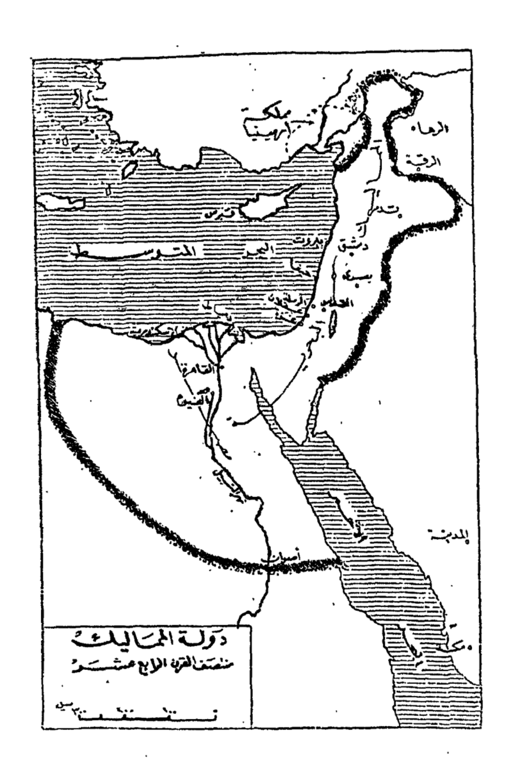
(٦٩٩-١٣٤١هـ/١٢٩٩-١٩٢٢م)

١ ـ عثمان الأول	٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م
٢ ـ أورخان الغازى	٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م
٣ ـ مراد الأول	٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م
٤ ـ بايزيد الأول (يلدرم)	٧٩٢ ـ ٨٠٥ هـ / ١٣٨٩ ـ ١٤٠٢ م
٥ ـ الأمير سليمان	٨٠٦ ـ ٨١٣ هـ / ١٤٠٣ ـ ١٤١٠ م
٦ ـ محمد چلبى	٨٠٦ ـ ٨١٦ هـ / ١٤٠٣ ـ ١٤١٣ م
٧ ـ موسى چلبى	٨١٣ ـ ٨١٦ هـ / ١٤١٠ ـ ١٤١٣ م
٨ ـ مصطفى جلبى	٨٢٢ ـ ٨٢٥ هـ / ١٤١٩ ـ ١٤٢٢ م
٩ ـ محمد جلبى	٨١٦ هـ / ١٤١٣ م
١٠ ـ مراد الثانى (المرة الأولى)	٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م
١١ ـ محمد الثانى الفاتح (المرة الأولى)	٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م
١٢ ـ مراد الثانى (المرة الثانية)	٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م
١٣ ـ محمد الثانى الفاتح (المرة الثانية)	٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م
١٤ ـ بايزيد الثانى	٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م
١٥ ـ سليم الأول	٩١٨ هـ / ١٥١٢ م
١٦ ـ سليمان الأول	٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م
١٧ ـ سليم الثانى	٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ م
١٨ ـ مراد الثالث	٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م
١٩ ـ محمد الثالث	١٠٠٣ هـ / ١٥٩٥ م
٢٠ أحمد الأول	١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م
٢١ ـ مصطفى الأول (المرة الأولى)	١٠٢٦ هـ / ١٦١٧ م
٢٢ ـ عثمان الثانى	١٠٢٧هـ/١٦١٨م
٢٣ ـ مصطفى الأول (المرة الثانية)	١٠٣١ هـ/١٦٢٢م
٢٤ ـ مراد الرابع	١٠٣٢هـ/١٦٢٣ م
٢٥ ـ إبراهيم	١٠٤٩ هـ / ١٦٤٠ م

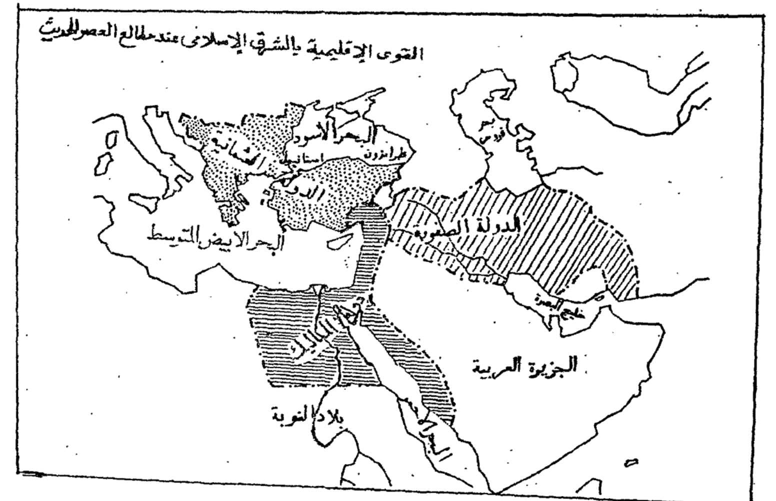
(١) د . أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ٤٥١/١ - ٤٥٣ .

٢٦ - محمد الرابع	١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م
٢٧ - سليمان الثانى	١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م
٢٨ - أحمد الثانى	١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م
٢٩ - مصطفى الثانى	١١٠٦ هـ / ١٦٩٥ م
٣٠ - أحمد الثالث	١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م
٣١ - محمود الأول	١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م
٣٢ - عثمان الثالث	١١٦٨هـ / ١٧٥٤ م
٣٣ - مصطفى الثالث	١١٧١ هـ / ١٧٥٧م
٣٤ - عبد الحميد الأول	١١٨٧ هـ / ١٧٧٤ م
٣٥ - سليم الثالث	١٢٠٣ هـ / ١٧٨٩ م
٣٦ - مصطفى الرابع	١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م
٣٧ - محمود الثانى	١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م
٣٨ - عبد المجيد	١٢٥٥هـ / ١٨٣٩ م
٣٩ - عبد العزيز	١٢٧٧ هـ / ١٨٦١ م
٤٠ - مراد الخامس	١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م
٤١ - عبد الحميد الثانى	١٢٩٣هـ / ١٨٧٦ م
٤٢ - محمد رشاد الخامس	١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م
٤٢ - محمد وحيد الدين السادس	١٣٣٦ - ١٣٤١ هـ/١٩١٨-١٩٢٢م


الأشكـــال
والخرائـــط



نقلاً عن كتاب د. فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢/٢٧٥



نقلاً عن كتاب صلاح عيسى : رجال مرج دابق ص ٦٠

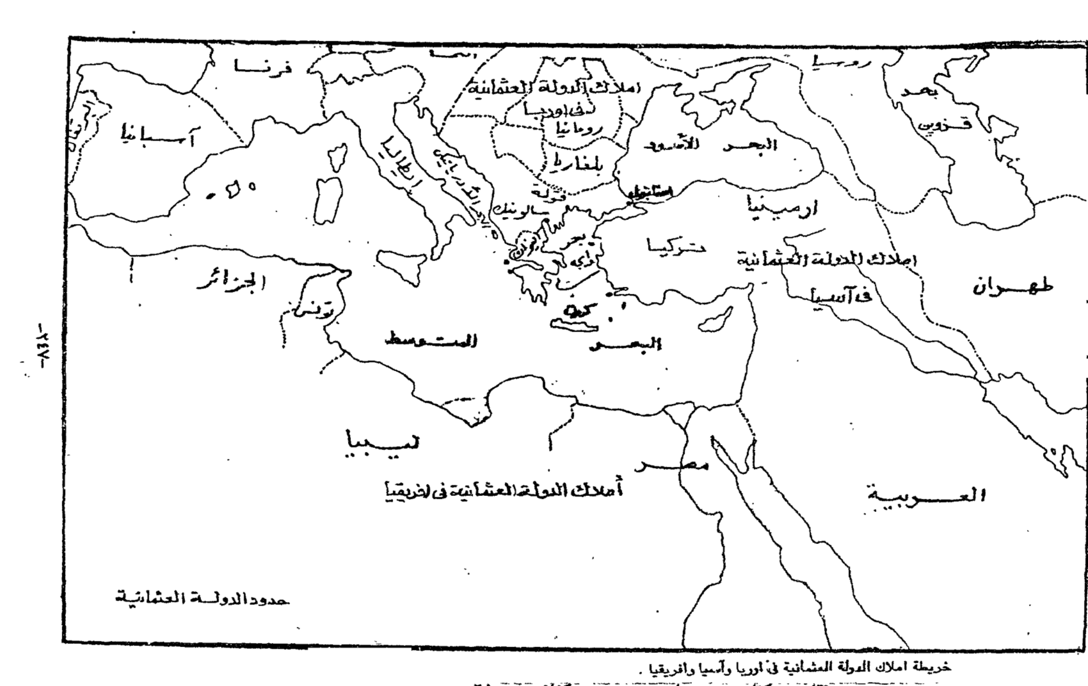
البرتغال
مدريد
اسبانيا
جبل طارق
البحر المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
السويس
عدن
بومباي
دلهي
المحيط الهندي

« رسم يوضح مصادر السلع الشرقية : من المحيط الهندى عدن البحر الأحمر إلى السويس ثم القاهرة براً ثم الاسكندرية أو دمياط والسلع الغربية تأتى عبر البحر المتوسط من أوروبا إلى الإسكندرية أو دمياط » (١)

(١) نقلاً عن كتاب صلاح عيسى رجال مرج دابق ص٤٦

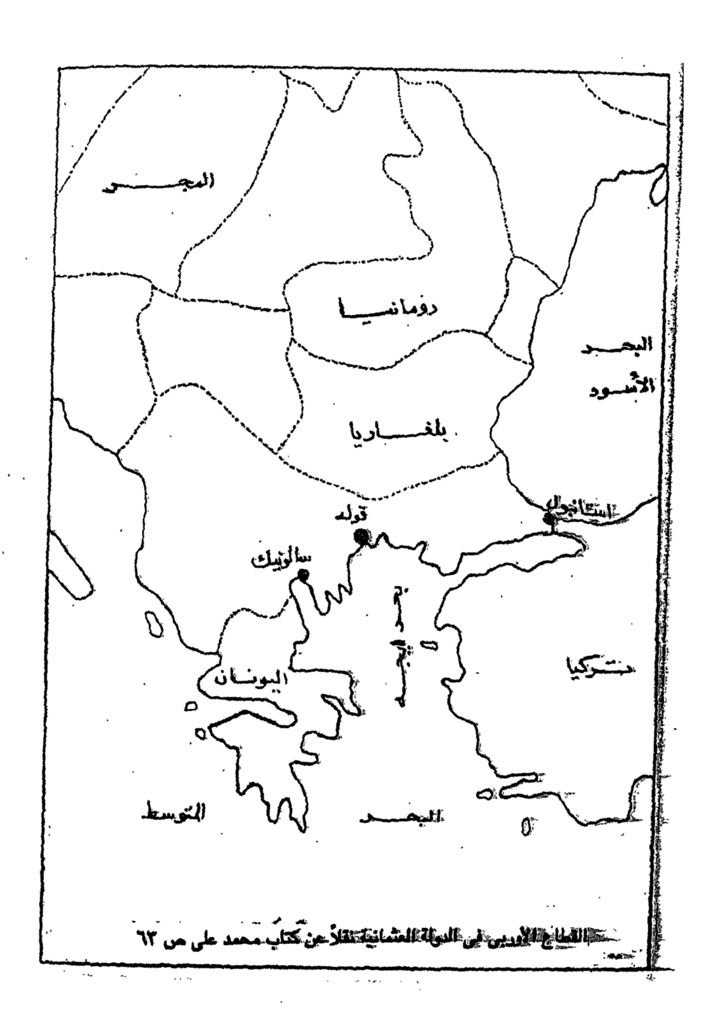
البرتغال
لشبونة
آسيا
الهند
النيجر
جزر الرأس الاخضر
كلكتا
المحيط الهندي
الكونغو
موزمبيق
راس الرجاء الصالح

خارطة رحلة فاسكو داجاما عبر رأس الرجاء
نقلاً عن كتاب رجال مرج دابق ص ٤٨

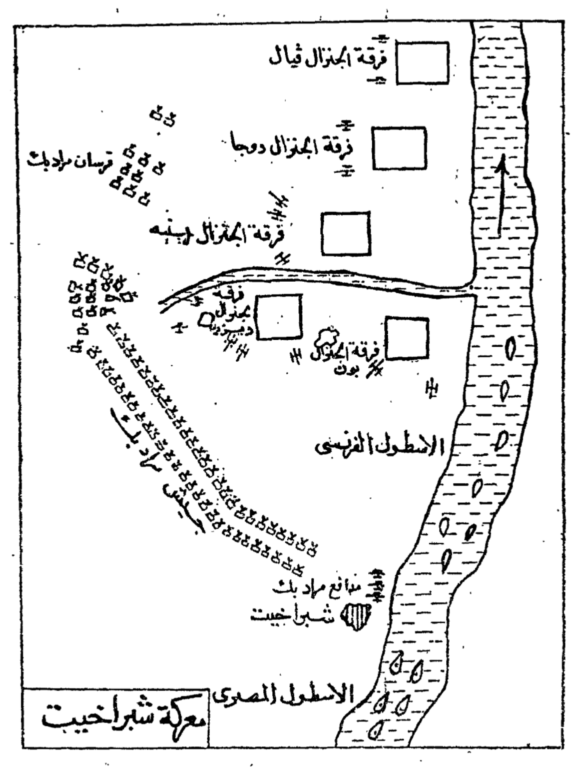


خريطة املاك الدولة العثمانية فى اوربا وآسيا وافريقيا .

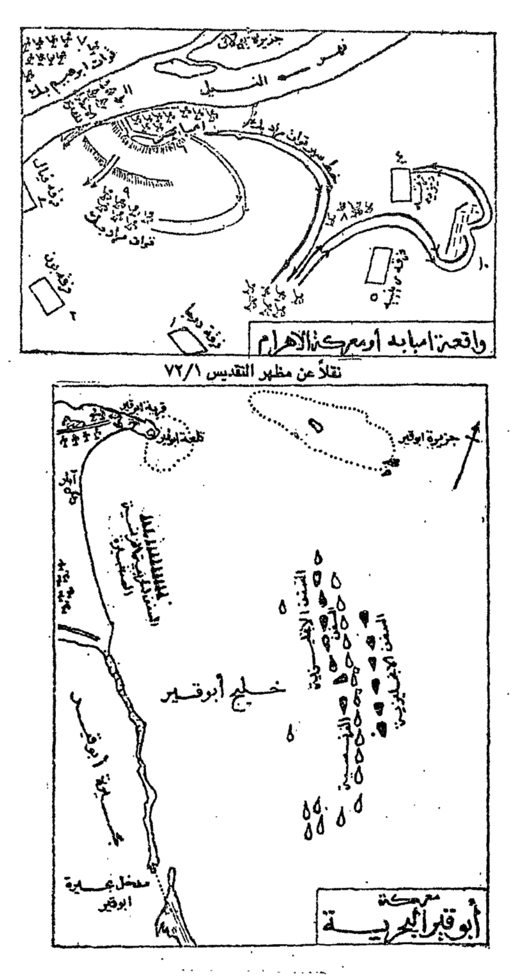
نقلا عن كتاب محمد على – د. حسين كفافى ص ٦١



القطاع الأوربي في الدولة العثمانية نقلاً عن كتاب محمد على ص ٦٢



نقلاً عن كتاب مظهر التقديس للجبرتى ٦٥/١



نقلاً عن مظهر التقديس ١/٧٢

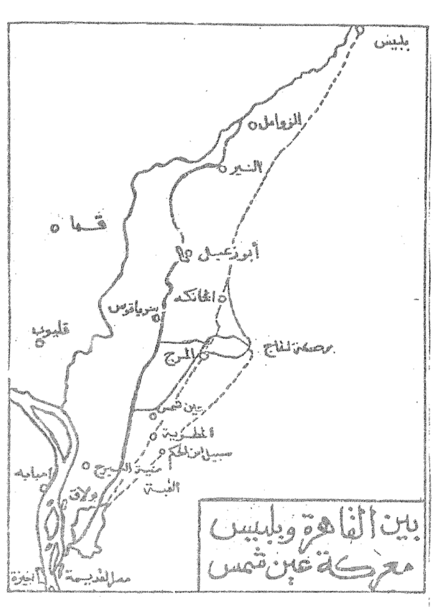
نقلاً عن مظهر التقديس ١/٩١



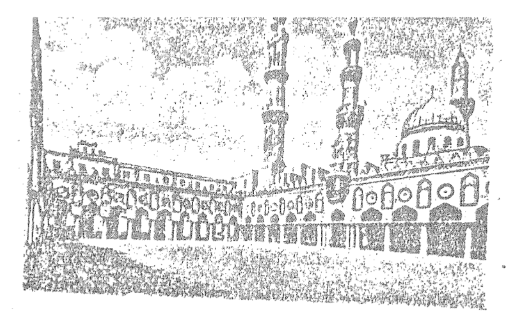
مدخل مدرسة الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة

نقلاً عن كتاب د.كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر
ص ٣٢ ، ٣٤

مدرسة وضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب



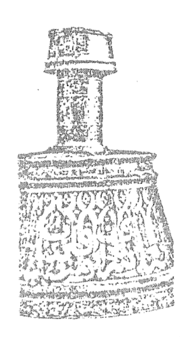
نقلاً عن مظهر التقديس ٢/٢٤



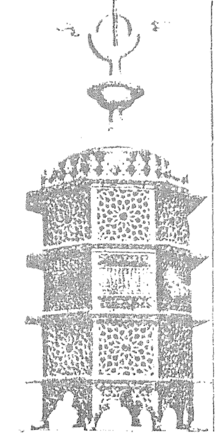
منظر من وسط صحن الجامع الأزهر

الواجهة الغربية لصحن الأزهر

نقلاً عن كتاب د . كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر٤٩ ، ٥١



« شمعدان من النحاس عليه
اسم السلطان قايتبــــاى »



تنور من النحاس محلى باسم السلطان الملك العادل طومان باى الأول »



مشكاه من الزجاج محلاة باسم الملك
الظاهر أبو سعيد قانصوة »

نقلاً عن كتاب صلاح عيسى : رجال مرج دابق ص ٢٩ ، ٣٠

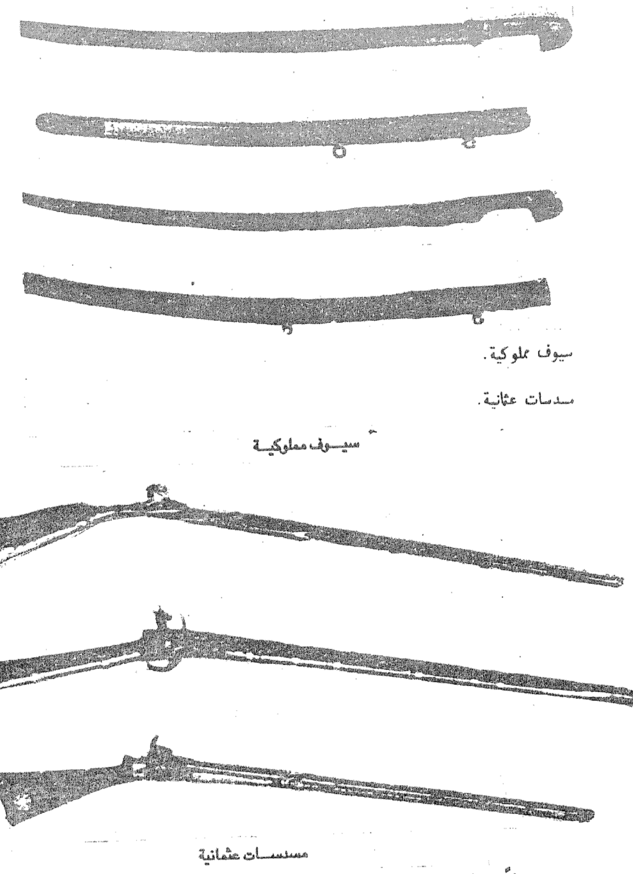


السلطان قايتباى الكبير



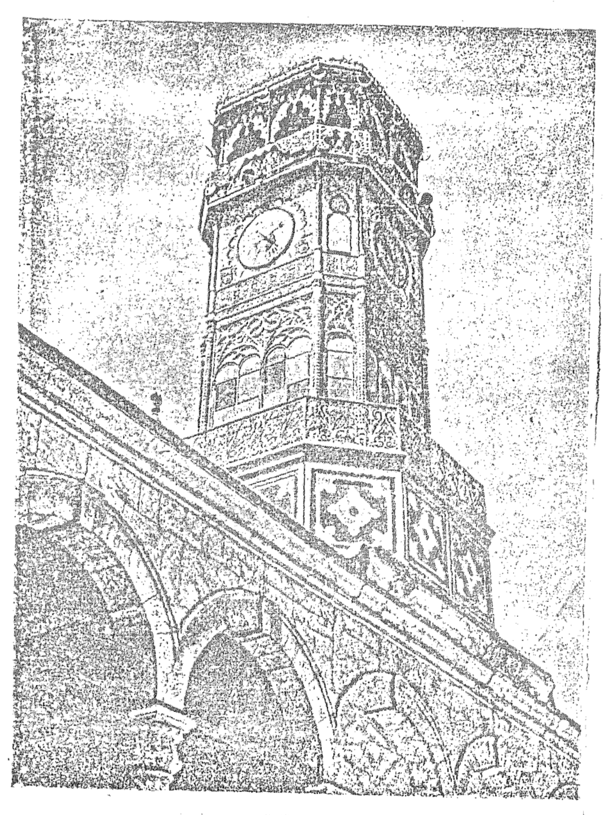
السلطان بايزيد الثانى

نقلاً عن كتاب صلاح عيسى : رجال مرج دابق ص ١٦



مسدســـات عثمانية

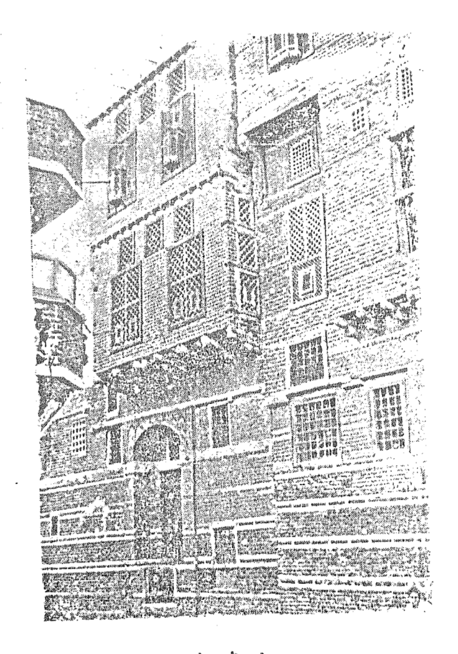
نقلاً عن كتاب صلاح عيسى : رجال مرج دابق ص ٥١



برج الساعة بمسجد محمد على الكبير بالقلعة

نقلاً عن كتاب د . كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر

ص٦٤



منـــزل بـرشيـــد

نقلاً عن كتاب د . كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية ص ١١٤

المحتويات

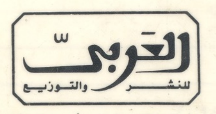
الموضـــوع	الصفحه

الموضـــوع الصفحة

رقم الايداع ٨٧٢٧ - ٩٥

I . S . B . N
977-5040-47-7

الموضـــوع الصفحة



٦٠ شارع القصر العينى أمام روزاليوسف
(١١٤٥١) القاهرة
ت : ٣٥٥٤٥٢٩ فاكس : ٣٥٤٧٥٦٦

